العرب

في

الإعلام الغربي

الدكتور

منير عبد الجليل أحمد عتيبة

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دار الجديد للنشر والتوزيع

31.161

ع. م

منير عبد الجليل أحمد.عتيبة ،

العرب في الإعلام الغربي/ منير عبد الجليل أحمد عتيبه.- ط1.- دسوق:دار العلم

. والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع

. ص ؛ 17.5 × 24.5سم 240

تدمك : 978 – 977 – 308 –627-5

1. .وسائل الإعلام والمجتمع العربي.2 الأعلام .

. أ - العنوان

رقم الإيداع : 28026.

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

elelm_aleman@yahoo.com&elelm_aleman2016@hotmail.com E-mail:

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم 71 زرالدة الجزائر

E-mail:dar_eldjadid@hotmail.com

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحـــذيـــر:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأي شكل

من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

2018

الفـــهرس

قائمة المحتويات

المقدمة

إن الاختلاف بين الشرق و الغرب ليس اختلاف في التجربةأو المهنية بالرغم أنّ الصحفي العربي ما يزال إلى حدٍّ كبير يلعب دو " شاعر القبيلة"و ذلك من خلال قيامه بالعمل بمؤسسة لا يتبنى خطابها التحريري، الاختلاف يقوم في جوهره على فكرة الإيمان بالحرية و الحق في التعبير عن الاختلاف، و بالرغم من هذا فإن التعميم بصورته المطلقة هو أمر خاطئ، الفكرة تقوم من الخلفية الثقافية في فهم الأشياء، فالغربو وسائله الإعلامية عموماً لم تكن تُظهِر الديكتاتور العربي بصورتِهِ الحقيقية حتى قيام الثورات العربية، و ضمن هذه المعادلة الصعبة روّجَت وسائل الإعلام الغربي لضربات الناتو التي عجّلت بسقوطِ النظام الليبي مثلاً بينما لم تنحُ بهذا الاتجاه في المسألة السورية، ربما هذا يتعلق بشبكة علاقات عامة كان النظام الحاكم في دمشق قد هيّأ لها من خلال دبلوماسيّتِهِ في تلك الدول أو عبر مؤسسات ثقافية كان يدعمها بشكل دائم لاستخدامها وقت الحاجة.و في ذات الوقت تخضع وسائل الإعلام الغربية إلى مزاجية و ذهنية المتلقي الغربي من خلال لعبة التقديم و التأخير في القضايا التي تهمّه،

تلك التي يأتي في مقدِّمَتِها القضايا الاقتصادية الداخلية و ملفات الضرائب و الرهن العقاري و مؤخراً الإرهاب الذي يتم التلويح به كسلاح فعَّال لضبط الشارع في المدن المختلفة. طبيعة الإطار المعرفي للجمهور مهمة جداً في عملية التلقي للأخبار أو البرامج الحوارية أو عناوين الصحف،

فالمتلقي الذيلا يملك أدنى معرفة عن تاريخ الصراع في الشرق مثلاً لن تُمثِّل الحالة الراهنة شيء في حساباته سوى من بابِها الإنساني و قد لاحظنا ذلك بشكل جلي في ملف اللاجئين الذي كان يعلو و يهبِط بحسب شمّاعة الإرهابأو بمنسوب الغرق في البحر الأبيض المتوسط، النظرة المسبقة هنا تغدو هي الصورة النمطية التي ينطلق منها الغربي في تجسيد مخاوفه و يساعده بذلك التجسيد صحفي لا يدرك أبعاد الصراع في الشرق الأوسط مثلاً، الحالة العربية من هذا النموذج يمكن توضيحها بمثال عن تعامل الشارع العربي مع مذابح رواندا أو الحرب في الكونغو. يمكن القول إن الإطار المعرفي يلعب دوراً كبيراً في خلق بيئة مقبولة لصناعة الرأي العام و تمرير المُراد من خلال جماهير مستعدة على تصديق كل ما يقال لها، و إن كانت القاعدة اليوم تقول إن المشاهد ذكي و عارف فإنّ الواقع أمامَ ذلك المشاهد يتفوّق على قدراتِه في التحليل

و التركيب العقلي.ومن هنا اتَّبَعَت المنظومة الغربية ككل في سياق تغطيتها لملفات ساخنة في منطقتنا العربية من القاعدة الصحفية التي تعلّمناها منذ عشر سنوات تقريباً في معهد صحافة الحرب و السلام الألماني و التي تقوم على فكرةٍ واضحة تُفيدُ بأنه: إذا وقَعَ حادثٌ عرَضيّ في شارعٍ ما، فإنَّكَ كصحفي قادر على بناء خمس قصص إخبارية من خلال خمسة أشخاص مختلفين شاهدوا الحادث حيث يقوم كل واحد منهم بتقديم قصة مغايرة للآخر، و ضمن هذه اللعبة استطاع الإعلام الأجنبي بناء رؤيته الخاصة للمشهد في سوريا،

فبدا متخبَطاً لا يقارب الواقع في كثير من الأحيان خلا بعض القصص الإخبارية التي يتولّاها ناشطون يُتقِنون التحدُّث بلغات أجنبية.أخلاق الصحافة فيما يتعلّق بقضايا الشرق الأوسط هي أمر نسبي يخضع لجملة من التعقيدات المبنية على مواقف مسبقة تعتمد في جوهرها على الخوف من التغيير أو السؤال الجدلي: ما هو البديل؟، طبعاً ليسَ من مهمة وسائل الإعلام بالمطلق الإجابة عن التساؤلات بل طرح تلك الأسئلة و ترك الباب مفتوحاً على الإجابات المتعددة، و بالتالي كان التعاطي اليومي مع الأخبار المليئة بالدم أو بالقتل أو بالتهجير أمر غير قابل للاستمرار في الإعلام الغربي أو الأمريكي فهو خاضع بدورِهِ أيضاً لبعض الظروف المتعلّقة بالحالة الدولية،

و من المناسب هنا تذكُّر الفترة التي أعقَبَت استخدام الأسلحة الكيميائية في الغوطة الشامية.أيضاً هناك أمر حساس جداً في قضية التغطية الغربية للحدث في الشرق- سوريا نموذجاً- يتعلق ذلك بقضية المنافسة في السوق الإعلامي الغربي على الخبر الخاص بالثورة السورية، هذه المنافسة – في نقيض مع حالة وسائل الإعلام العربية- غائبة كليّاً عن المشهد و هذا ما يمكن اكتشافه من خلال متابعة الصحف الأوربيةأو الفضائيات الإخبارية غير الناطقة بالعربية.الأمر الأخير الذي يمكن تسليط الضوء عليه في هذه المسألة يتعلق بكون وسائل الإعلام الغربية بالرغم من ترديدها الدائم لمبدأ الاستقلالية فإنَّها لا تخرج من دائرة تبعيّتِها للمصالح الوطنية في الدول التي تستضيفها، و بالتالي تقديم وجهة نظر هذه الدولفي القضايا الشائكة الخاصة بالجغرافيات المختلفة،

فمثلاً قبل و خلال حرب العراق 2003، اشتغلت وسائل الإعلام بتركيز كبير على ضرورة التغييرفي بغداد، و هذا التغيير لا تتعلق ضرورته القصوى في حرية الشعب العراقي بقدر ما يتعلق ذلك بالأمن الوطني الأوربي أو الأمريكي، هذه الحالة مفقودة اليوم، فملفات الإرهاب و اللاجئين تتقدّم على الحالة الإنسانية في كثير من الحالات.

الفصل الأول

الإعلام العربي والإعلام الغربي فروقات سوسيولوجية

لا أحد ينكر أهمية ما قدمه الإعلام الفضائي العربي للساحة العربية, إعلامياً, وسياسياً, وثقافياً. في العقد الأخير أصبح هذا الإعلام البقعة شبه الوحيدة التي فيها حيوية سياسية وفاعلية مقابل جمود شبه كامل في جوانب الحياة السياسة والاجتماعية العربية. لكن ذلك لم يعن ولا يعني خلو هذا الإعلام من اختلالات ونقاط ضعف عديدة, ليس هذا مجال التعرض إليها. هذه السطور تتأمل في منهجية منتشرة عند تناول تلك الاختلالات ونقاط الضعف بل وأيضاً مجمل البث والأداء الإعلامي وبجوانبه الإيجابية. هذه المنهجية هي المقارنة بالإعلام الغربي, فمثلاً يتم التبرير والقول بأن الفضائيات العربية تعمل كذا أو تبث كذا لأن شبكات التلفزة الغربية تعملأو تبث نفس الشيء. والأمر يتجاوز التسويغ والتبرير لما قد يقع في دائرة النقد, بل في الشكل العام والمادة التلفزيونية المقدمة. فالسرعة في الإيقاع, والسطحية في تناول الموضوعات, وتفادي الغوص في الجوانب العميقة للقضايا أو الموضوعات المناقشة, هي كلها مقتبسة من الإعلام التلفزيوني الغربي من دون التأمل فيما إن كان ذلك الشكل والطريقة هي المناسبة للإعلام العربي الذي يشتغل في بيئة مختلفة تماماً عن البيئة الغربية. التقليد العربي شبه المطبق للشكل والصورة والأداء الذي يقدمه الإعلام الغربي هو أمر يتم على خلفية بحثية وتنظيرية هشة للإعلام العربي

بحيث لا تكون الخيارات منتقاة وفق رؤية وثيقة الصلة بالبيئة العامة. الإعلام عملية تعريفية, سياسية, ثقافية, اجتماعية معقدة وتؤثر في خلق وتكوين الصور العامة المسيطرة في مجتمع ما, كما في نوع وطبيعة التوافقات الاجتماعية والثقافية والتنميط العام للقضايا. وبكونه كذلك فإن دوره وتأثيره يختلف من مجتمع لآخر, بحيث إن تم قبول فكرة معينة أو نوع أداء يقوم به ذلك الإعلام في بيئة ما فإنه ليس من التلقائي والآلي أن نفس الفكرة أو ذات الأداء يمكن القبول به في بيئة أخرى من دون تحفظ أو تروٍ. ابتداءَ لنسجل بعضا من الفروقات الجوهرية على مستوى البنية السوسيولوجيةوالتنموية والسياسية بين الإعلام العربي والغربي ثم بعدها نتأمل في بعض التطبيقات.

الفرق الأول ثقافي تعليمي ويتعلق بطبيعة وثقافة ومستوى تعلم المشاهدين. الإعلام الغربي يشتغل في بيئة ليس فيها مستويات أمية عالية, بل يمكن القول إن نسبة الأمية صفر في تلك المجتمعات. وإضافة إلى عدم وجود أمية القراءة والكتابة تمتاز بيئة الإعلام الغربي بأنها بيئة مشاهدين ناقدة وهي خلاصة ثلاثة قرون من الحداثة السياسية والثقافية التي أعادت صوغ العقليات والمفاهيم وطرائق التحليل والنظر للأشياء بشكل يختلف عن السمات التي تميز الوسط العام للمشاهدين العرب.

فهنا نرى نسبة أمية القراءة والكتابة مرتفعة جداً تصل في بعض المجتمعات العربية إلى نصف المجتمع. يُضاف إلى الأمية المباشرة أميات ثقافية مركبة. هذا يعني أن تأثير الإعلام الغربي في المجتمع الذي يتوجه إليه يختلف كثيراً عن التأثير الذي ينتج عن الإعلام العربي في المجتمعات التي يتوجه إليها. الإعلام الغربي يصنع الرأي العام ويؤثر فيه, وأحياناً يضلل الغالبية العظمى رغم كل ما ذكر, مع أن التضليل في أبشع صوره يحدث في مسائل الشؤون الخارجية أكثر بكثير من المسائل الداخلية.

الفرق الثاني متعلق بطبيعة الملكية والتمويل الذي يقف خلف كل من الإعلاميين, وتأثير ذلك على نوع المادة التلفزيونية التي يتم بثها. الإعلام الغربي قائم على قواعد تجارية بحتة بحيث يمول نفسه بنفسه عن طريق الإعلانات الترويجية وبيع الصور والبرامج وغيرها. الإعلام العربي في المقابل وفي عمومه, مع وجود بعض الاستثناءات, يعتمد على التمويل الحكومي أو شبه الحكومي وليس هناك سوق إعلانية قوية يمكنها أن تسند الكم الكبير من الفضائيات الموجود حالياً. معنى ذلك أن ركض ولهاث الإعلام الغربي خلف نمط معين من الأداء, حيث سرعة الإيقاع, والإثارة, والجلبة, والبرامج السريعة يمكن أن يكون مفهوماً لأنه يبحث عن توسيع دائرة المشاهدين الذين يعتقد أن الطريقة الأفضل لجذبهم إليه هو اعتماد ذلك النوع من الأداء. في المقابل ليس هناك ضغوطات "سوق" على الفضائيات العربية لتتبنى نفس النمط من الأداء لأنها سواء اعتمدته أم لم تعتمده.

وهذا يرتبط مباشرة بالفرق الثالث, وهو مستوى النمو الاجتماعي الذي يشتغل فيه الإعلام, وله علاقة أيضاً بالمستوى الثقافي والتعليمي. ففي الحالة العربية نحن إزاء مجتمعات نامية ما تزال في منتصف إن لم نقل في بداية طريق التنمية المستدامة, اجتماعياً واقتصادياً. ونظراً للتأثر الشديد الذي تظهره هذه المجتمعات بأية صيرورات سياسية وعلى أي مستوى من المستويات, مثل الإعلام هنا, فإن عمق تأثير الإعلام في المجتمعات النامية, خاصة عندما يقلد إعلام المجتمعات المتقدمة, يكون كبيراً إن لم نقل خطيراً.

لنأخذ مثلاً البرامج الحوارية ذات الصبغة التهجمية والتي هي مستوردة بالكامل من أداء الإعلام الغربي. تلك البرامج لا تعمل على تعميق الاستقطاب السياسي والأيديولوجي في المجتمعات المتقدمة بسبب وجود حياة حزبية وآليات نشاط سياسي غير الإعلام. في المقابل فإن نسخ نفس تلك البرامج وتبنيها في الإعلام العربي يترك آثاراً سيئة عندما يستقبله مشاهدون في بيئة نصف أمية ويغيب عنها الانفتاح السياسي المعقول. هل هذا معناه شطب البرامج الحوارية الساخنة واستبدالها ببرامج مملة طيلة فترة البث التلفزيوني؟ طبعاً لا, لكن المطلوب إعادة صوغها بحيث تبتعد عن طبيعتها الاستقطابية والتفتيتية الراهنة.

مثال آخر يكثر الاستشهاد به في سياق المقارنة بين أداء الإعلام العربي والإعلام الغربي وهو استسهال بث ما يمكن أن يؤثر في خلق أجواء تطرف وتحريض في المجتمعات العربية. هنا أيضاً يتم الاعتماد على منهجية المقارنة حيث يُقال إن الإعلام الغربي يبث مواد شبيهة أو مقاربة في مضمونها. لكن التأمل في تأثير تلك المواد التلفزيونية وبثها المستمر على المجتمعات ا العربية لا بد أن يُرينا أن ما تفعله هو إزاحة الرأي العام العربي نحو التطرف وقبول صيغ ثقافية واجتماعية ليست وسطية.

ختاماً, الإعلام الغربي يعرف بنفسه, على العموم, بأنه عملية إعلامية تعريفية تنقل المعلومات للمشاهدين. إذا كان ذلك الإعلام يملك ترف تبني تعريف كهذا, فإن الإعلام العربي لا يملك نفس الترف وهو من ناحية عملية لا ينطبق تماماً. الإعلام العربي الفضائي يلعب دوراً أكثر بكثير من أن يُحصر بالعملية الإعلامية ونقل المعلومات, حتى لو ادعى عكس ذلك. تأثيراته المختلفة تستلزم بحثاً معمقاً في اجتراح نظريات ومناهج ومدرسة إعلامية خاصة تقطع مع الأساليب الراهنة حيث النسخ والتقليد, وتهتم أكثر بدورها في تنمية وتنوير مجتمعاتها, وليس تثويرها من دونما بوصلة.

سوسيولوجيا المثقّفين العرب في الغرب :

مرّت زهاء خمسة عقود على صدور النسخة الإنجليزية من مؤلف هشام شرابي "المثقفون العرب والغرب"، ولعله بات من المشروع، في الوقت الحالي، الحديث عن المثقفين العرب في الغرب، بعد أن شهدت الساحة تطورات مهمة في هذا السياق. إذ يشغل المنتوج الثقافي العربي القادم من الغرب، إبداعاً وتأليفاً وترجمةً، حيزا معتبرا ضمن خارطة الثقافة العربية الحديثة، عبر ما يسهم به بشكل فعّال في اجتراح مسارات مستجدة. وإن نال هذا المنتوج شيئا من الاهتمام، فإن المنتِج لم يحظ بالقدر الكافي من المتابعة. ومن هذا الباب نقدّر أن النخبة الفكرية العربية في الغرب تحتاج إلى معالجة رصينة ومتأنية، تُتابَع من خلالها أدوارها وتُتفحّص على ضوئها هويتها، بعيدا عن أية وعود مبالغة أو أحكام مسقَطة. ومع أن الخاصية المشتركة بين عناصر تلك الشريحة الانتماء، في ما مضى، إلى بنية حضارية موحّدة، فإن مقامها الدائم في مجتمعات غربية، قد عزّزها بعناصر مستجدة طفحت من خلال رؤاها ومواقفها.

المثقف كائن عابر للثقافات :

ذلك أن نعت المثقفين العرب في الغرب يشمل في مطلقه عموم العاملين في الحقل الثقافي، والمنشغلين بالقضايا المعرفية والرمزية العائدة إلى الثقافة العربية. أي تلك الفئة التي يزعم عناصرها التأثير في الواقع بالأقوال والمعاني والأفكار، بناء إلى ما يأتونه من دور وظيفي اجتماعي، على ارتباط مباشر بالمجتمعات الغربية الحاضنة، أو غير مباشر يعود إلى مجتمعات المأتى؛ كون التمييز الوحيد بين لفيف المثقفين وغير المثقفين ما يؤدونه من وظائف اجتماعية، تبعا للتعريف الذي صاغه أنطونيو غرامشي في مؤلفه "المثقفون وتنظيم الثقافة".

وضمن مسار تكوّن هذه الفئة، ثمة شريحة من بينها دفعتها ظروف عدة، اجتماعية أو سياسية أو دراسية أو ما شابهها، للتواجد في الغرب. ولم تكن إقامتها طوعية بمحض إرادتها بل هي على أهبة دائمة للرحيل. وعادة ما يلقى أفرادها رهقا وضيقا في مقامهم الثاني، ولا أقول موطنهم الثاني، فالعودة هاجس دائم بينهم. والمثقف الذي يتعامل مع الغرب تعاملا خاطفا وظرفيا، ينتزع منه شهادة، يكتسب منه خبرة، يستقي منه ثقافة، ليعود عقب ذلك إلى بلد المأتى، هو مثقف عابر؛ وبالمقابل هناك شريحة لا تجد ذلك الحرج وقد اختارت مقامها عن طيب خاطر، وهي العيّنة المعنيّة بالمتابعة في هذه المقالة.

فهي تلك النخبة التي تخوض جدلا مع الغرب، مع إحساس بالانتماء للمكان وانغماس في الجو الثقافي العام، دون أن تتنكر للسالفأو تقع في إغواء السائد. وهي وإن تشغلها العناصر الثقافية والدلالات الرمزية الواردة من الحضارة الأولى، فإنها تستدعي ما تتيحه لها ثقافة المقام الجديد من رؤى ومناهج، وتوظف ما تزخر به من أدوات، لتفسير الوقائع والإحاطة بفحوى المسائل وكنه ما خفي منها. لا يلغي ذلك، الإقرار بأن خيار الاستيطان والمكوث في الغرب ليس أمرا يسيرا. ففضلا عن عسر الاندماج، ومصاعب العيش، والأوضاع الطاردة أحيانا، يصطدم المرء بمواقف منغلقة، ترى في النازل بالغرب غازيا ومدعاة للانحراف بالمسار التقليدي للشخصية الجماعية.

ومع أن المثقف العربي في الغرب متحدّر من فضاء عربي، ويشتغل على قضايا عربية، أو يتعامل مع رؤى غربية على صلة وثيقة بالواقع العربي، فإن العامل الرئيس في بلورة وعيه يبقى حضورَه في بيئة حضارية مغايرة لما هو معتاد. وما تثيره هذه البيئة من هواجس ومشاعر، غالبا ما تخلّف رجّة، أو ما يشبه الصدمة، تنحرف بانسياب الفكر نحو مساره المعهود. وعلى ضوء هذا التطور الحاصل، تستدعي هوية المثقف العربي في الغرب تمعّنا وتحليلا. هل هو ذلك المثقف الهجين، الجائل بين ضفتين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، أم هو ذلك الكائن الثقافي المتدثر بخصوصيات أنثروبولوجية تتجاوز الحصر المعتاد؟

في الحقيقة كل مثقف عضوي بالمفهوم الغرامشوي هو ابن بيئته الحضارية وشروطه الاجتماعية. والمثقف العربي في الغرب هو ذلك المثقف الواعي بأصوله والمدرك لواقعه ومصيره، ومن هذا الباب فهو كائن عابر للثقافات واللغات. ولا يعني تبني ألسنة جديدة، في صياغة رؤاه، فقدانا للهوية الأصلية أو تنصلا منها، كما تخلص بعض الدراسات المتسرعة والسطحية عن ذوبان المهاجر، لأن هناك نواة صلبة في ما وراء اللغة تأبى الاندثار والتواري، وهو ما يمكن أن نطلق عليه بالهوية المتعالية. فاللغة ليست محدّد هوية، كما هو معتاد في التعريف داخل المجال التاريخي العربي، بل تغدو الإطار الحاوي لما هو أوغل وأعمق.

التموقع والرهانات:

يجرّنا ذلك إلى معالجة مسألة تموقع المثقف العربي في الغرب. إذ يعلّق البعض على ذلك المثقف وعودا جمة، على غرار دوره في الدفاع عن قضايا العرب، أو الترويج لثقافة يُفتَرض أنها تتضمن قيما ومفاهيم، أو أحيانا تحميله ما لا يحتمل، بصفته يشكل اختراقا سلسا لعالم مهيمِن، طالما أرهق الثقافات الواهنة وأضناها. والحال أن المثقفين العرب في الغرب ليسوا بالقدر نفسه من حيث استيعاب المخزون الثقافي العربي، ولا يحملون العمق نفسه من حيث الإحاطة بماضيهم، أو الانشغال بحاضرهم، أو القلق على مستقبلهم،

وإن جمعتهم خلفية حضارية واحدة. وهو ما يجعل استيعاب المثقف العربي للثقافة الأمّ، ووعيه بتاريخ تلك الثقافة، من العوامل الحاسمة في عملية المثاقفة، وفي بناء علاقة تفاعلية مع الثقافة الثانية، التي تغدو طاغية عليه من حيث الاستهلاك والتأثير. وبالتالي توجَهُ هذه العوامل مسارات المثقف وتؤثر على أنشطته في الواقع الغربي.

وبالمقابل من الجهة الأخرى، يريد البعض حصر نشاط المثقف العربي في الغرب في دور الوسيط، ليصدِّر رؤى الحضارة المهيمِنة إلى العرب، وليكون مطية تُمرَّر عبره أفكار وسياسات ومشاريع. وفي واقع الأمر، المثقف العربي في الغرب لا هذا ولا ذاك، فهو كائنٌ وعيهُ مترنّحٌ بين ثقافتين، ومسلكه نابعٌ من هذا المرَج الحاصل بين إرثين. حيث يغدو نظرُه مشرّعاً على هموم كونية، وتتحول قضايا العرب معه إلى قضايا إنسانية متخلصة من بعدها القومي ومضامينها الوجدانية. إذ نلحظ أحيانا تبسيطا لدور ذلك المثقف إلى درجة ساذجة، بتحويله إلى مجرد جسر رابط بين ضفتين -إن صح التعبير-، وأحيانا بمثابة العتال المتنقل جيئة وذهابا بين مخزنين، مهمّتُه نقل البضاعة دون أي تدخل في تصنيعها أو إنتاجها. والحال أن المثقف العربي في الغرب ليس موفَدا حضاريا تقتصر مهمته على نقل ما يجول في الحضارة الغالبة إلى بلد المأتى، أو جلب روائع الثقافة الأم إلى أرض المقام الجديد، بل هو كادح في الحقل الثقافي بكل ما يشمله ذلك الدور من تفكيك وتركيب ونقد وتأويل.

يلتقي بشكل عام مع ذلك الدور المسؤول الذي رسمه بيار باولو بازوليني للمثقف منذ سبعينيات القرن الماضي في قوله: "أعرف لماذا أنا مثقف، لأن الكاتب يحاول أن يلاحق كل ما يجري، أن يلِمّ بكلّ ما يُكتب، أن يتخيل كل ما خفي عنه وكل ما لا يدور حديث بشأنه؛ يربط أحداثا متباعدة، يجمّع أجزاء متشظية وغير منتظمة ضمن إطار سياسي شامل، ابتغاء إرساء منطق حين يسود اللامنطق ويدبّ الخلط وتشيع الغرابة".

فالمثقف العربي في الغرب، تبعاً لوظيفته الثقافية المتشعبة والمركَّبة، فهو يشتغل داخلا وخارجا، وكما يتوجه إلى الواقع الغربي يتطلّع بروحه إلى العالم العربي أيضا، ما يجوز أن نطلق عليه بالدور المزدوج؛ مع أن شقا من هؤلاء المثقفين يكدحون على جبهة واحدة، عربية خالصة أو غربية خالصة. ومع ما يساهم به المثقف العربي في الغرب من نصيب معتبر، في الحراك الثقافي داخل البلاد العربية، فإن مساهمته تلك لا ترتقي إلى مستوى فعله ودوره ضمن الخارطة الفكرية الغربية، التي بات يرتبط بها معاشه ومآله.

وبالتتبع لعوامل تموقع المثقف العربي في الغرب، نرصد، من حين إلى آخر، حدوث حالات نكوص في أوساطهم. فهم ليسوا في حصن منيع ومنزّهين، كما قد نتوهم، حيث يصاب البعض بنزغ من التنصل من الميراث السالف ومن الولاء السالف،

وقد تبلغ الحالة مستوى متطورا يمسّ ما هو روحي، ربما حالة المغربي جون محمّد عبد الجليل (1979-1903) في ما مضى، والمصري مجدي كريستيانو علاّم في إيطاليا، في الوقت الحالي، تغني في هذا السياق. وقد تتحول تلك الشخصية الناكصة ضمن ذلك الحدث الانقلابي إلى شخصية مستنفرة، ومتملصة من كل ما يرتبط بالإرث الأول، إمعانا في التماهي والذوبان في الجديد.

الغرب والمكوّن الثقافي العربي :

صحيح أن المثقف العربي في الغرب، بفعل عيشه في واقع يراه ويلامسه، يجد نفسه أكثر قدرة على الإحاطة والتمييز بين عناصر الواقع الغربي. في وقت يتعامل فيه المثقف في البلاد العربية مع الغرب عن بُعْدٍ، وما ينجرّ عن ذلك من انزياح زمني وواقعي، يحول أحيانا دون الإلمام بالوقائع. لذلك تتولد لديه طورا رومانسية وتارة عدائية تحجب عنه الرؤية الموضوعية المتزنة.

ولكن الالتحام بالواقع والقرب المفرط منه أيضا قد يورث أحيانا غشاوة، وبالتالي لزم المثقف أن يكون على مقدرة عالية من النقد والتحليل، حتى يدرك مكمن الخطأ والصواب، لأن هناك منزلقات عدة تتربص بهذا المثقف. حيث غالبا ما يُنصِّب المثقف العربي في الغرب نفسه معلّما لحضارة المأتى، بدعوى هيمنة الطابع التقليدي عليها وافتقادها للروح الحداثية،

متوهّما أن المسار التاريخي للحضارة المهيمِنة هو المسار الأوحد للنهوض. وبفعل السطوة الجارفة للغرب يحاول المثقف أن يتمثل تلك الهيمنة ويعيد إنتاجها مع ثقافته الأولى، وهو ما قد يجرّ للانخراط في نوع من الوصاية المجانية. نجا من ذلك الدور الراحل إدوارد سعيد، رغم ما حازه من تقدير في الأوساط الأكاديمية والثقافية الغربية يفوق ما أتيح لغيره، فقد عصمته نباهته النقدية الفائقة من لعب ذلك الدور. كما ينبغي التنبه إلى أن بعض المثقفين العرب في الغرب تُسلَّط عليهم مرئية عالية غير بريئة، لتمرير توجهات سياسية أو لتصدير حمولات فكرية فينخرطون في أدوار مغشوشة. كما أن هناك أصنافا أخرى من المثقفين تتولد ضمن هذا السياق المتطور، على غرار المثقفين الغائبين في الغرب واللامعين في الشرق، يبيعون المشورة السياسية وفق القياس والمقام، ويتلوّن خطابهم من محطة إعلامية إلى أخرى حسب الطلب. يستعرضون أحيانا وظائفهم السابقة بتبجح لافت (باحث سابق، خبير سابق...) لكسب مصداقية في أوساط الرأي العام العربي ونيل حظوة. ولسان كل منهم يردد جئتكم من الغرب بنبأ يقين. ويغفلون عن أن المثقف في البلاد العربية ليس غِرّاً حتى يغويه كل من نادى اتبعوني أهدكم صراطا سويا.

وبالنهاية وضمن إطار حديثنا عن سوسيولوجيا المثقّفين العرب في الغرب، يستدعي المقام طرح سؤال عن مدى مشروعية الحديث عن المثقف العربي الغربي؟ أي التحول بالحديث من المثقف العربي في الغرب إلى المثقف العربي الغربي، ذلك المثقف ذو الجذور العربية والمتماهي مع واقعه "الجديد"، ضمن مستوى متطور من الانسجام، لا ينغصه الانفصام ولا تحركه الأوهام، وذلك بعد أن بتنا نلمس حقيقة المكوّن الثقافي العربي في الغرب.

سوسيولوجيا الإلحاد في العالم العربي:

باعتباره نفيا لوجود الله (أو ردة)، يشكل الإلحاد في العالم العربي موضوعا شديد الحساسية لأنه يعني بالنسبة للمجتمع العربي الانسلاخ عن الأخلاق العامة ويعني في نظر الحاكم الخروج عن الطاعة الواجبة له. وبالتالي يصبح الإلحاد موضوعا لا تسهل دراسته لأن المجاهرة به مخاطرة في مجتمعات عربية لا تؤمن بحرية الضمير.

هدف هذه الدراسة الجواب على الأسئلة التالية:

1) ما مدى انتشار الإلحاد في العالم العربي؟

2) كيف يشكل فضاء الإنترنيت مجالا يسمح للملحد بالتعبير عن ذاته ويضمن له في نفس الوقت حماية من أي اعتداء بالنسبة للذين لا يجرؤون على المجاهرة بإلحادهم؟

3) ما هي الفئات الاجتماعية التي يرتبط بها أكثر من غيرها تبني الاختيار الإلحادي؟ ما هي العوامل التي تؤدي بالبعض إلى تبني الإلحاد كموقف وجودي؟

وتقدم الدراسة بعض الأجوبة عن هذه التساؤلات الكبيرة بحيث أنها تبدأ بالبرهنة على أن الضعف الإحصائي للإلحاد لا يدل على ضعف انتشاره في الواقع العالم العربي، وذلك نظرا لأن النظام العام في العالم العربيلا يزال نظاما دينيا، وإسلاميا بالخصوص. ونظرا للقمع المتعدد المسلط على كل أشكال اللاتدين، فإن الملحد العربي يعثر على منبر حر يمكنه من التعبير عن إلحاده في الإنترنيت إما بفضل الكتابة أو التصوير، إما بشكل جاد نقدي أو بصيغة تهكمية هزلية. في هذا الإطار، تستعرض الدراسة بعض أسماء المواقع الاجتماعية للملحدين العرب وتقوم بتحليل مضامينها. وهنا تثبت الدراسة أن الإلحاد يعبر عن نفسه من خلال إنكار وجود الله

ومن خلال نقد الإسلام كدين خرافي يستغل سذاجة الشعوب. ثم تبين الدراسة أن نسبة الإلحاد ترتفع كلما انخفض السن وتنخفض كلما ترتفع نسب الأمية والفقر.

ومن العوامل التي تم تشخيص ترابطها مع الإلحاد عوامل الإرهاب والنسائية والمثلية الجنسية وغياب الحرية الدينية. فالإرهاب الإسلامي ينفر الكثيرين من الإسلام، كما أن رفض المساواة بين الجنسين في (الحقوق) من جهة والمثلية الجنسية من جهة ثانية يبعد البعض عن الإيمان بالله وعن التدين. وخلصت الدراسة إلى أن الإسلام المفروض على الفرد من خلال التنئشة الاجتماعية والاستبداد السياسي يؤدي تدريجيا عند البعض إلى رفض عقلاني للإسلام وإلى رفض كل عقائده وشرائعه وإلى تبني أخلاق مدنية. وتنتهي الدراسة بتوصية مفادها ضرورة إحلال مبدأ الحرية الدينية الكفيل لوحده لضمان إيمان حقيقي وصادق.

الفصل الثاني

الإعلام العربي والغربي ودوره في تشكيل ثقافة المجتمع

الثقافة نور يضيء أمام الإنسان سبل الحياة، ويجعله يرى على مصباح العقل وبوعي أقرب إلى التمام، ما له وما عليه من حقوق وواجبات, ولأن الثقافة نورٌ فأن الرؤية تصح في مناخها وتدق، ويثبت الوعي حق الآخر ووجوده في مقابل الأنا والتزاماتها، كذلك يضاء في صبحه درب التعامل مع السلطة والتعرف على حدود مالها وعليها، وما تمثله وما ينبغي أن تمتثل له من واجبات، بوصفها ممثلة للجماعة وخادمة لها.

ولما كانت الثقافة دعوة متجددة للمعرفة، والمعرفة تقيم أسس الوعي، وبالوعي يتجدد أفق الحرية، فالثقافة على هذا فعل يقوم بالتنوير, متعلق بالحرية ومبنيَ عليها, وهكذا تغدو الحرية شرطاً من شروط الفعل الثقافي وفاعلية الثقافة، وتكاد تكوّن روح مناخ التواصل الخلاق الذي لا بد من توافره ليقوم تفاعل بناء بين أطراف الفعل الثقافي، ولتكتمل دائرة الثقافة ودورتها في تسوياتها المختلفة، بدءاً بالفرد وانتهاء بالشعب مروراً بالبيئة التي يرد إليها فضلاً كبيراً.

تطورت وسائل الاتصال، وتعددت في السنوات الأخيرة تطوراً هائلا بفضل التقدم العلمي والثورة التكنولوجية التي شهدها القرن العشرون , فأصبحت وسائل الإعلام تمارس دوراً جوهرياً في إثارة اهتمام الجمهور بالقضايا والمشكلات المطروحة ،

حيث تعد وسائل الإعلام مصدراً رئيسًا يلجأ إليه الجمهور في الحصول علي معلوماته عن كافة القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية بسبب فاعليته الاجتماعية وانتشاره الواسع وقدرته على الوصول ومخاطبة القسم الأعظم من التكوين المجتمعي ،الذي يمتلك الإمكانية على التأثير الذي لا يأخذ صورة مباشرة وإنما يقوم بتشكيل الوعي الاجتماعي بصورة غير مباشرة، وبصورة متسرعة غير ملحوظة دون مقدمات.

كما يمثل الإعلام عنصراَ مؤثراَ في حياة المجتمعات باعتباره الناشر، والمروج الأساسي للفكر والثقافة، ويسهم بفاعلية في عملية تشكيل الوعي الاجتماعي للأفراد إلى جانب الأسرة والمؤسسات التعليمية والمؤسسات المدنية , بل إنه في كثير من دول العالم أحد منتجي الثقافة عن طريقه التفاعل والتأثير الإنساني المتبادل، وفى السنوات الأخيرة اكتسبت وسائل الإعلام باختلافها أبعاداً جديدة زادت من قوة تأثيرها على الأفراد والجماعات, بالإضافة إلى ذلك أن الإعلام باعتباره مؤسسة اجتماعية هامة في المجتمعات البشرية يحمل معاني اقتصادية وسياسية،وحظي موضوع وسائل الإعلام باهتمام العديد من المفكرين والأكاديميين والباحثين لما له من دور في إثارة اهتمام الجمهور بالقضايا والمشكلات المطروحة , لذا انطلقت هذه الدراسة للتعرف على دور وسائل الإعلام في تشكيل الوعي الاجتماعي لدي الشباب,

وتنبع أهمية الدراسة في أنها قد تسهم في فهم طبيعة دور وسائل الإعلام على الوعي الاجتماعي , ولا بد من الاعتراف بأن الشباب العربي هو أكثر فئات المجتمع تأثراَ بعمليات الغزو الثقافي نتيجة للانفجار المعرفي الهائل، وتطور وسائل الإعلام الجماهيرية، وبالذات الفضائيات التي توصف وسائل الإعلام بوصفها الراهن إذا تمثل متغيراَ اجتماعيا، وثقافياَ مهامًا في حياة الشباب، فهو المصدر الرئيسي للمعلومات والتعلم وهو أحد مصادر عمليات تشكيل الوعي الاجتماعي في عصر العولمة الإعلامي.

أولاً: الإطار النظري

المبحث الأول، مشكلة البحث:

يتطور عالمنا اليوم بلا شك تطورا سريعا، حتى أصبحت الدراسات الأكاديمية لا تستطيع مواكبة كل هذه التغييرات الناتجة من هذا التطور الهائل في جميع مجالات الحياة والتي تحتاج بين فترة وأخرى إلى إعادة الدراسة والتقييم على ضوء المتغيرات المنظورة وغير المنظورة، وما يهمنا هنا هو التطور التكنولوجي في مجال الاتصال والمعلومات والبث الفضائي المباشر، والاستخدام الواسع لهذه التكنولوجيا الحديثة، والانتشار الكبير للفضائيات العربية وما تقدمه من برامج خصوصاً الثقافية منها، وهل تلبي الحاجة وترضي الهدف والغاية منها،

وعلى الرغم من هذا الاستخدام الواسع فلا زالت القنوات الفضائية العربية تواجه تحديات كبيرة سواء من حيث الإنتاج أو طبيعة هذا الإنتاج ومضمونه، والأهم علاقة هذا المنتج من برامج ثقافية مع المتلقين أي الجمهور، وهناك من يتحدث بصوت عال عن الاختراق الثقافي وما شابه ذلك من الأطروحات التي أصبحت اليوم موضوعاً ثانوياً نتيجة هذا التطور السريع والذي يصيب جميع الأمم والدول كبيرها وصغيرها والذي لا مفر منه, أن الغلبة بالتأكيد لمن يمسك بالسلطة الإعلامية مادياً وسياسياً، بل ومن يمتلك هذه التكنولوجيا المتطورة.

ورغم أن بحثنا مهتم بالشأن الثقافي لكن العلاقة تبدو أنها وطيدة مع الجوانب الأخرى، فأن الشركات العالمية التي تحتكر السوق العالمية من إنتاج وتصدير التكنولوجيا والمنتج الثقافي الإعلامي، وهي برامج معدة بعناية، لها أهدافها المعروفة سواء السياسية أو الثقافية والاجتماعية وتسعي دول العالم الخارجي لتحقيق أهداف سياستها الخارجية من خلال التعامل مع شعوب الدول الأخرى بدلاً من التعامل مع حكوماتها من خلال استخدام أدوات وتقنيات الاتصال الحديثة، حيث يمكن اليوم أن تصل إلى قطاعات كبيرةأو مؤثرة من السكان في هذه البلاد، وأن تقوم بإعلامهم والتأثير في اتجاهاتهم، ويمكن أحياناً أن تحرضهم على سلوك طريق معين.

هذا الكلام يجعلنا مهتمين بالشأن الإعلامي عموماً والجانب الثقافي خصوصاً، وعلى القائمين في الاتصال في كافة ميادين وسائل الإعلام معرفة هذه الحقيقة والعمل على ضوئها.

يرصد البحث واقع البرامج الثقافية في القنوات الفضائية العربية ودورها في تشكيل الوعي الثقافي لدى المشاهد العربي ويتم متابعة ذلك عبر الأسئلة الآتية:

لعب التلفزيون منذ اختراعه دوراً خطيراً على كافة المستويات الاجتماعية والسياسية والثقافية، وحتى قبل أن يتحول إلى العصر الفضائي، أما اليوم فهذا الدور قد كبر وتعاظم وتعددت منذياته إلى آفاق لا يمكن حصرها في أطروحة واحدة وإذا أردنا اليوم أن نتناول جانباً واحداً من ذلك ونعني به البرامج الثقافية في القنوات الفضائية العربية فهو الدور الأهم.

حيث أصبحنا سكان قرية عالمية واحدة، وساد هذا العالم الذي نعيش فيه التزام كامل أصبح كل إنسان فيه موضع عناية الآخرين، وذلك بفضل وسائل الاتصال بالجماهير الحديثة وفي مقدمتها التلفزيون ، هذا ما قاله عالم الاجتماع والإعلامي البارز مارشال ماك لوهان في ستينيات القرن الماضي، أي قبل انتشار القنوات الفضائية، تحققت تلك الرؤية اليوم وفي رأيه أن عصور البشرية

قد قسمت تبعاً لوسائل الاتصال التي عمت كلاً منها، فالعصر القبلي هو العصر الذي كان فيه الاتصال من الفم إلى الأذن، أنه عصر الكلام المنطوق والاتصال المباشر أو شبه المباشر, والعصر الإلكتروني عصرنا الذي نعيش فيه، هو عالم الفواصل الذي ألغى الخطبة المؤدية إلى التحجر والجمود, فالعصر الإلكتروني في رأي مارشال ماك لوهان قد وضع حداً لسيطرة العين على سائر الحواس ليعيش الفرد من الآن فصاعداً بكلِ حواسه .

المبحث الثاني، الحاجة ودوافع البحث:

يأتي بفعل الأهمية التي ينطوي عليها التلفزيون بوصفه أبرز الوسائل الاتصالية والإعلامية والثقافية اليوم، ومع التحولات التي طرأت على المشهد السمعي و البصري عالميا وعربيا والتي لا تنحصر في البعد التقني فحسب، بل أصبح العامل الأساس في بناء رؤية فكرية شاملة للحياة المعاصرة عبر إشاعة الوعي وإغناء الفكر وتجدد المفاهيم وتحقيق الأثر إذ أن التعامل مع ما هو مسموع ومرئي تتولد عنه علاقات جديدة بمصادر الثقافة والإعلام، وهي علاقة متفاوتة التأثير والتفاعل سلبا وإيجابا لاسيما مع تعميم الملكية الفردية لأجهزة البث والاستقبال وتعدد القنوات الفضائية وانفتاح نوافذ المشاهدة

وتنوع ما توفره تقنيات الاتصال الحديثة من معلومات ومضامين ثقافية.

لقد شهد العالم والمنطقة العربية ظهور عدد كبير من القنوات الفضائية وأحدثت هذه الفضائيات العديد من التحولات الملموسة،

كما حدثت تحولات في العديد من المفاهيم والقيم, وأن هذه التحولات بمختلف أبعادها أصبحت اليوم تعكس حالة العلاقات القائمة بين الاقتصاد والاتصال من أجهزة وخدمات.

وبفعل هذا كله تجاوز الإنتاج السمعي والبصري والتمويل الثقافي ومسالك التوزيع حدود الفضاء الجغرافي التقليدي لتصبح أوسع اتصالا واستهدافا لأوسع الفئات في ظل عولمة امتدت إلى تركيبة الأنماط الثقافية والقيم والممارسات السلوكية فأحدثت تغييرات جوهرية شملت الوظائف الاجتماعية للثقافة من ناحية والاستراتيجيات التربوية ومواقع النفوذ والتأثير من ناحية أخرى.

إن البرامج الثقافية التي تستهدف فئات مختلفة من المشاهدين بمختلف أصنافها وفي جميع مراحل إنتاجها وعبر أشكال إبلاغها ليست بمعزل عن هذه التحولات وأبعادها، فهي تدخل في صلب الصراع الإعلامي الثقافي وأنها وثيقة الصلة بالمقومات الأساسية لهوية المشاهد العربي وبناء شخصيته ووعيه وأفق مستقبله،

كما أنها إحدى مصادر التنشئة الاجتماعية نظرا لطول الوقت الذي بات يقضيه المشاهد أمام شاشة التلفزيون، هذا المارد الضوئي الذي يتميز باعتماده على حاسة البصر إذ يمكننا القول أننا نعيش عصر الثقافة البصرية والتي من خلالها يكتسب الإنسان ثمانية أعشار معلوماته

كما تؤكد ذلك البحوث والدراسات العلمية، وتصبح 35% عند استخدام الصورة والصوت في وقت واحد كما تصل مدة الاحتفاظ بهذه المعلومات إلى نسبة 55%، وفق هذه المعطيات يعد التلفزيون من بين وسائل الاتصال الأخرى الأهم والأخطر من ناحية التربية والتوجيه والتنمية والتأثير الواسع.

المبحث الثالث، أهداف البحث:

يهدف البحث إلى معرفة مدى التأثير الذي تفعله أو ممكن أن تحدثه المواد والبرامج الثقافية التي تقدمها القنوات الفضائية المصرية والعربية والعالمية وهل تسهم في التذوق الفني والجمالي.

ثانياً: الإطار المفاهيمي

المبحث الأول، ماهيّة التلفزيون اليوم:

أن للتلفزيون مكانة خاصة في حياتنا المعاصرة، فقد دخل كل بيت وأصبحنا مدمنين على مشاهدة البرامج التي تعرضها القنوات الفضائية و التلفزيون اليوم وسيلة إعلامية له مميزات وخصائص كثيرة منها انتشاره الواسع إضافة لما يقوم به من تقديم المتعة والترفيه وإمكانيته على التأثير على الجميع حيث من يشاهده كافة فئات المجتمع من فقير وغني، من متعلم وأمي، من كبير وصغير، وتزداد مشاهدة التلفزيون في الدول النامية عنه في الدول المتقدمة وخاصة بين الشباب بسبب زيادة نسبة الأمية والظروف الاقتصادية الصعبة والبطالة ووقت الفراغ الكثير وعدم توفر وسائل اللهو الأخرى مما يدفع بهم إلى الجلوس طويلاً أمامه، وهو قد أصبح وسيلة مهمة للتوجيه وتزويد المواطنين بالخبرات والمهارات والقيم الإنسانية والروحية ولنقل الثقافة إلى المجتمع ككل، وهو وسيلة للإنتاج الثقافي، وأن كل ما يبثه له تأثير ثقافي معين سواء كان هذا التأثير سلبياً أم إيجابياً.

فلم يعد التلفزيون وسيلة للترفيه واللهو وقضاء الوقت فقط، فاليوم التلفزيون وسيلة لا غنى عنها تستخدم لإيصال ما نريد إيصاله للجماهير ذات الثقافة المحدودة أو المنعدمة من قيم ثقافية وجمالية جديدة سواء من خلال الترفيه

أو من خلال برامج جادة بأسلوب يسهل عليهم متابعته, فالتلفزيون من أكثر أدوات التثقيف فعالية.

لقد أرتبط مضمون التلفزيون بثقافة الصورة، حيث تعمل المواد المصورة على نقل وتكوين قيم ثقافية للمشاهدين.

لقد عرف مصطفى حجازي ثقافة الصورة بأنها"الثقافة التي تتوسل لغة جديدة هما لغة الصورة، وأبجدية الحواس، مما يكاد يشكل قطعية فعلية مع الثقافة المكتوبة وعقلانيتها, و ثقافة الصورة التي تقدمها محطات كبريات الشركات الإعلامية الخاصة تحولت الثقافة إلى مشروع ربحي أساسا.

بينما يعرف محمد الجابري ثقافة الصورة بأنها (ثقافة إشهارية إعلامية سمعية وبصرية تصنع الذوق الاستهلاكي-الإشهار التجاري-، والرأي السياسي- الدعاية الانتخابية-، وتشيد رؤية خاصة للإنسان، والمجتمع، والتاريخ، إنها ثقافة الاختراق، التي تقدمها العولمة بديلاً من الصراع الأيديولوجي...إنها تسعى إلى تسطيح الوعي بهدف تكريس نوع معين من الاستهلاك، لنوع معين من المعارف والسلع والبضائع).

أن ثقافة الصورة اليوم من خلال القنوات الفضائية والتي تبثها بمضامين وأشكال متنوعة ذات تأثير عميق في كافة الاتجاهات على الجمهور المتلقي، فهي تستفد من التطور الهائل الذي حدث بسبب استمرار استخدام وسائل التقنية ولكن للأسف هذا التأثير ليس دائماً إيجابياً.

أن عصرنا بلا شك جعل الإنسان متعباً من قسوة الحياة وشدة الصراع والركض لتأمين لقمة العيش، فنحن مرهقون عصبياً متوترون من نمط الحياة الجديدة، وهذا ما يجعلنا نلجأ إلى التلفزيون لساعاتٍ طويلة ونقلل من المطالعة التي كانت أساس ثقافتنا لقرونٍ عديدة.

المبحث الثاني، مفاهيم ومصطلحات البحث الأساسية:

الثقافة:

يقول زكي محمود (أن الثقافة لم تعد تسوية العود الذي يركب عليه سنان الرمح ليصلح للقتال بل أصبحت في تسوية الفكر ليصبح بفطنته وذكائه قادراً على حل مشكلات الحياة، وتثقيف العقل بما يتفق مع الحضارة الجديدة, وكانت اللغة هي أول الوسائل التي عنتها الثقافة).

أن مفهوم الثقافة اليوم هو مفهوم متعدد المعاني وهذه المسألة يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار عند كل تساؤل عن علاقات الثقافة أو الثقافات وتأثيراتها، وهنا لابد من تداخلات تأثير الثقافة من خلال العلاقة العضوية بين الفرد والجماعة وبين الداخل والخارج أي بين جماعة وأخرى وبين الماضي والحاضر.

وقد عرفت المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) الثقافة بأنها(جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية، التي تميز مجتمعاً بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات).

مفهوم وسائل الإعلام:

جميع الوسائل والأدوات التي تنقل إلي الجماهير Mass media يقصد بوسائل الإعلام المتلقية و ما يجري من حولها عن طريقة السمع والبصر) .

وهناك من يري أن وسائل الإعلام هي: " التي تتجسد في الراديو، والتلفزيون، والصحف والمجلات، والكتب، والسينما، والإعلان. وهي من أهم المؤسسات المرجعية التي تؤثر في شخصية، وقيم، وأفكار، وممارسات الشباب على مستوى الأمد البعيد

الوعي الاجتماعي-:

مجموعة من المفاهيم والتصورات والآراء والمعتقدات الشائعة لدى الأفراد في بيئة اجتماعية معينه والتي تظهر في البداية بصورة واضحة لدى مجموعة منهم تم تبنيها الآخرون؛ لإقناعهم بأنها تعبر عن موقفهم"

الإعلام الثقافي:

الإعلام الثقافي، مصطلح جديد يقوم على أساس فهم طبيعتي الإعلام والثقافة، وهو فهم ينبع من جوهر مشترك لهما وهو "الاتصال"، فالإعلام الثقافي هو عملية يتم من خلالها إرسال مادة أو رسالة ثقافية معينة إلى المتلقي، مع النتائج المترتبة على ذلك، وهذا بالضرورة يتضمن التفاعل، وإذا كانت مهمة الاتصال بأنه يقوم بنقل المعاني عن طريق الرموز من المرسل إلى المرسل إليه، فأن الإعلام الثقافي هو نقل المضمون الثقافي عن طريق الرموز في وسائل الإعلام،

فالفكرة الرئيسية في الإعلام الثقافي هي الاشتراك في الإطار الثقافي الذي يتضمن جوانب الثقافة وما يعيه منها أفراد المجتمع.

د. سهير سيد أحمد جاد- رسالة الدكتوراه - جامعة القاهرة -كلية الإعلام - أشراف د. سمير محمد حسين، عميد كلية الإعلام جامعة القاهرة- د. سلوى أمام، المدرس بقسم الإذاعة بكلية الإعلام- سبتمبر 1984م.

هدف الدراسة:

الوصول إلى مدى نسبة البرامج الثقافية بالتلفزيون المصري إلى نسبة البرامج الترفيهية والسياسية، وأيضاً معرفة أسهام البرامج الثقافية في التذوق الفني والجمالي والتعامل مع وسائل الفنون والثقافة الأخرى وكيفية الترويج لها، وهل تتجه مستويات التعبير اللغوي في البرامج الثقافية في التلفزيون المصري نحو اللغة العربية الفصحى أكثر من اتجاهها نحو اللغة الدارجة أو العامية؟،

كما استهدفت الباحثة من دراستها معرفة مدى حرص البرامج الثقافية بالتلفزيون على إرضاء الأذواق والميول والتخصصات المختلفة عن طريق تنوع البرامج واستخدام الأشكال التلفزيونية المختلفة.

منهج الدراسة، تعد هذه الدراسة من البحوث الوصفية والمنهج المستخدم فيها ينقسم إلى منهج تاريخي، حيث تتعرض الدراسة لنشأة وتطور البرامج الثقافية بالتلفزيون

وكان من نتائج الدراسة ما يلي:

-تدور نسبة 50,16% من موضوعات البرامج الثقافية في تلفزيون جمهورية مصر العربية حول الثقافة الفنية، سواء كان ذلك في مجال الثقافة المسرحية أو السينمائية أو الموسيقية أو فنون الباليه والفنون التشكيلية.

- أن البرامج الثقافية التي تدور موضوعاتها حول المعارف العامة بلغت نسبتها 24,12% من مجموع الموضوعات التي أجريت عليها الدراسة، أما نسبة موضوعات الثقافة العلمية فجاءت نسبتها 15,97%، والتي تعني بالأدب وقضاياه بنسبة 9,75% من موضوعات البرامج الثقافية التي أدريت عليها الدراسة.

- ووجدت الباحثة تقارباً بين فترتي التحليل عامي 1981و 1984م، من حيث ترتيب الموضوعات دلت نتائج الدراسة التحليلية على أن نسبة كبيرة من البرامج الثقافية تعمل على تحقيق القيم الجمالية والفنية في العروض المقدمة بها والمنقولة إليها من مجالات الفنون الأخرى بهدف رفع مستوى الإحساس بالجمال والتذوق للفن في المجتمع.

-وتوصلت الدراسة إلى وجود علاقة بين طبيعة الموضوعات التي تدور حولها البرامج الثقافية وبين نوعية القائمين بالاتصال.

-وهنالك نسبة كبيرة من البرامج الثقافية تحرص على تحقيق الذاتية الثقافية لمصر.

ثالثاً: دور كلا من الإعلام المصري والعربي والغربي في تشكيل ثقافة المجتمع

المبحث الأول :- الإعلام المصري

إن الإعلام بصوره المختلفة يلعب دوراً كبيرا في حياتنا بل وفى تشكيل الرأي العاموخاصة عندما تكون الصورة غير واضحة بقدر الذي يتيح لنا أخد قرارا تحديد رؤيته , الإعلام أداة خطيرة، وأثرها لا يكاد يخفى ولا ينكر، ولذا لم تكن وليدة عصر من العصور، بل استخدمت تقريبا منذ كان الإنسان, وإذا تساءلنا عن دور الإعلام في المجتمع، وما يستطيع أن يسهم به الإعلام في بناء المجتمع وتطويره، فإن الإجابة أكبر وأوسع من أن تحتويها عبارة محددة, ذلك لأن المجتمع – كل مجتمع إنساني – يقوم أساسًا على الاتصال بين أفراده وجماعاته، وكل اتصال بين البشر يحمل في ثناياه ضربًا أو ضروباً من الإعلام ولا شك أن الإعلام إذا استكمل مقوماته ووسائله الصحيحة وأحسن استخدامه وتوجيهه في مجتمع ما، كان قوة دافعة كبرى للبناء والتطور والنهوض بالمجتمع حيث الثورة الإعلامية أو تكنولوجيا الإعلام التي يشهدها العالم قد قلبت كل الموازين وأضحى الإعلام ركيزة أساسية في بناء الدولة بل بات يعتبر من مقومات ورموز السيادة الوطنية ، والتقنيات الحديثة ,ولان "الإعلام أداة فاعلة ومنظومة متكاملة " ، فلا بد من تفعيل أدائه لترسيخ بناء الدولة وترسيخ الثوابت الوطنية لديها ولدى مواطنيها.

تعدّ وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة مصدرًا مهمًا من مصادر التوجيه والتثقيف في أي مجتمع، وهي ذات تأثير كبير في جماهير المتلقين المختلفين، المتباينين في اهتماماتهم وتوجهاتهم ومستوياتهم الفكرية والأكاديمية والاجتماعية.

وهذا ما يكسبها أهميتها في عملية بناء المجتمعات، ويمكن الزعم بأنها احد العناصر الأساسية في المساهمة في تشكيل ملامح المجتمعات. وإذا كان دور وسائل الإعلام في أي بيئة مجتمعية يتحدد بالأثر الذي تستطيع أن تحدثه فيها، فمن الممكن أن نقسّم وسائل الإعلام باعتبار تأثيرها في المجتمعات قسمين: قسم مؤثر وفاعل، وقسم غير مؤثر وغير فاعل قد يكون سلبي أو ايجابي.

الأول :الإعلام المتحير: وهو الإعلام الذي لا يعتمد على الحقائق المجردة ويجنح إلى الدعاية لمذهب سياسي أو خط معين عن طريق التلفيق والتزوير، ومثل هذا الإعلام سرعان ما يفقد ثقة الجماهير، وحتى إذا تضمن بعض الحقائق فإن الجماهير تنظر إليها بعين الريبة والشك والحذر.

الثاني :الإعلام القاصر: وهو إعلام يعتمد على الحقائق المجردة، ولكنه يفشل في تحقيق التأثير المطلوب بتلك الحقائق لدى الجمهور, وغالبَا ما يرجع ذلك إلى خطأ الأسلوب الإعلامي المستخدم.

وليس من شك في أن الخطورة الكبرى للإعلام لا تكون بقدر ما تكون الأثر السيئ والبالغ السوء, حين يتخذ الإعلام وجهة غير بناءة، أو وجهة متجردة من المثل والقيم العليا, وهو ما نشهده في بعض المجتمعات الرأسمالية الغربية من تقويض البنيان الاجتماعي وتفشي الميل العدواني إلى الجريمة، وقد كان ذلك نتيجة مباشرة للإعلام المتحرر من القيم الخلقية وتعاليم الأديان السماوية، والذي لا يحده قيد في اندفاعه نحو تحقيق الكسب المادي في سباق الرأسمالية الطاحن المسعور,الإعلام كمصدر للمعلومات فقد أكدت البحوث الميدانية أن الإعلام هو المصدر الأساسي للقادة السياسيين والدبلوماسيين وكل من لهم صلة بالعملية السياسية في المجتمع، ويلعب الإعلام دوراً مهما في عملية التفاوض يوفر رؤية أولية للأطراف المشاركة في عملية التفاوض.

الإعلام كأداة : يعد الإعلام أداة من أدوات خلق رأي مساندأو معارض للقضية محل التفاوض أو لطرف من أطراف التفاوض، حيث يلعب دوراً مهما في مجال خلق رأي عام مساند أو معارض لقضية يدور حولها التفاوض وخلق اتجاهات معارضه أو مؤيدة للقضية محل التفاوضأو لأحد أطراف التفاوض.

الإعلام أداة للتفاوض: يمكن استخدام الإعلام كأداة من أدوات التفاوض بأحد الصور التالية:

الصورة الأولى: استخدامه كأداة من أدوات الضغط:

ويتم ذلك من خلال تسريب بعض الأخبار والمعلومات التي يود أحد الأطراف أو لا يرغب في نشرها قبل التوصل إلى الاتفاق النهائي.

من خلال تقديم إخبار كاذبة تمثل إحراجاً لأحد الأطراف المعنية في عملية التفاوض.

تسريب أخبار عن التوصل إلى نتائج قبل نهاية التفاوض.

الصورة الثانية:استخدام الإعلام كأداة لفرض موقف معين على أحد الأطراف وذلك من خلال دفعه إلى تبني موقف سياسي معين.

الصورة الثالثة:استخدام الإعلام كأداة من أدوات التلاعب بالمواقف وذلك من خلال تجاهل هذه الحقائق وطرح آراء ومعلومات وأفكار جديدة.

كما هناك إستراتيجية يعتمد عليها التفاوض الدولي عند التعامل مع الإعلام أثناء الأحداث، ونكتفي هنا بذكرها كمفاهيم دون التعرض لتفاصيلها، وهي:

إستراتيجية تجاهل الإعلام.

إستراتيجية الاهتمام بالإعلام , إستراتيجية التعتيم الإعلامي والضغط على الإعلاميين.

الإعلام والسياسة الخارجية:

تحاول الدول من خلال وسائل الإعلام الدولية وكافة وسائل الإعلام المتاحة والملائمة التأثير على الرأي العام الأجنبي لكسب تأييده لقضاياها وتبحث الدبلوماسية النشطة عن التأييد غالباً خارج الحدود القومية وبهذا يرتبط الإعلام بالدبلوماسية جيداً.

ولعل التطور المستمر للمكاتب الإعلامية للدول المختلفة في الخارج يظهر بشكل جلي أهمية الإعلام والدعاية السياسية والتسويق السياسي على حد سواء في خدمة سياسات الدول الخارجية وخدمة أهدافها الدبلوماسية وعّبر الوزير الأمريكي "دين رسك" عن أهمية الدور الإعلامي في خدمة أهداف السياسة الخارجية الأمريكية بقوله " لا غنى عن الإعلام للسياسة الخارجية للولايات المتحدة.

دور الأعلام في تدعيم الأمن وإدارة الحكم:

يتضح الدور الكبير والخطير الذي يستطيع الإعلام أن يسهم به في تطوير المجتمع بشتى فئاته وقطاعاته، وحل مشكلاته، ومن ذلك ما يلي:

وصل المواطن بكل ما يعنيه في المجالات التي تتصل باهتماماته المختلفة.

نقل الخبرات وتنمية المهارات في مختلف مجالات النشاط الإنساني معاونة قطاعات الخدمات المختلفة في تأدية رسالتها (مثل قطاع الصحة، وقطاع التعليم، والإنتاج).

الإسهام في حل مشكلات المجتمع بإلقاء الضوء عليها، والتوعية بها، واقتراح أفضل الحلول لمعالجتها.

رفع مستوى الثقافة وتطوير الفكر العام للمجتمع.

تكوين الرأي العام المستنير إزاء قضايا المجتمع الداخلية والخارجية من خلال توفير المعلومات الصحيحة والكافية وعرض مختلف الآراء الواعية الصادقة.

وهكذا نرى أنه لا يمكن فصل الإعلام عن أي من جوانب الحياة اليومية في المجتمع، ذلك أن الإعلام يحمل على عاتقه مهمة نقل وتطوير "الإرث الحضاري" والإرث الاجتماعي من جيل إلى جيل، وهي مهمة دائبة يومية، بل إنها تكاد تكون مهمة "الخطبة."

ففي كل لحظة تتسابق وكالات الأنباء إلى الحصول على كل خبر جديد من أقصى الأرض إلى أقصاها، وينكبّ عليه الخبراء المختصون بالدرس والتحليل ثم تطيره وسائل الإعلام إلى جماهير الناس كتابة وإذاعةً وصورة, وبهذا يكون الإعلام أشبه ما يكون بجامعة كبرى مفتوحة لها مناهجها اليومية المتجددة والمتغيرة مع الظروف والأحداث، والمتطورة بتطور الحاجات والاهتمامات، والمتسعة باتساع الوعي العام والنشاط العام للمجتمع فأصبح دوره في كل مجالات الحياة من صحة لسياحة لسياسة لاجتماع حتى ترويج السلع والمأكولات تعتمد على الإعلام والتأثير بالرؤى العام ولذا علينا أن نجند هذا السلاح الخطير هذه الحدين من أجل الأصلح للمجتمع والظروف التي تنهض ببلدنا وتحقق لها الاستقرار والسكينة ورفع الإنتاج والتطور والرفاهية التي نصبوا إليها. وغاية القول أن الإعلام سلاح ذو حدين:

فإذا أُحسن استخدامه وتوجيهه كان ركيزة تطور يجد فيه أفراد المجتمع ينبوع المعارف ومصدر التوجيه والإرشاد والتوعية فيما يعني لهم من مشكلات، يجدون فيه العون على تربية أبنائهم وإسعاد أسرهم وتحقيق انتمائهم إلى مجتمعهم.

أما إذا اتخذ الإعلام تلك الوجهة التي تعتمد على الإثارة المجردة التي نشهدها في بعض المجتمعات الغربية فلا شك أنه يمثل أداة تخريب وانحلال، بالرغم من تطوره وتقدمه وفعاليته.

المبحث الثاني :-الإعلام العربي :

دور الإعلام العربي في تشكيل ثقافة التغيير.

بداية لابد من التمييز بين مفهومي التغير والتغيير ، فالأول يذهب إلى التحول والتبدل التلقائي غير المخطط له والذي لا تعرف نتائجه إلا عند وقوعها ، وبالتالي فالتحولات في الوظائف والأدوار والقيم وغيرها سواء أكانت سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية قد تكون سلبية أو ايجابية ، ما يحمل الأفراد والمجتمعات الفاعلة والحيوية على القيام بمحاولات تعزيز للتحولات الايجابية ، والتخطيط لعمليات تغيير في الحالات التي يكون فيه الواقع سلبيا ، وعلى هذا يكون التغيير عبارة عن نسق منظم من الجهود البشرية للتصدي للواقع غير المرغوب فيه بأشكاله المختلفة ،

ما يعني أن التغيير هو رد فعل على جانب من ظاهرة طبيعية في حياة المجتمعات تؤدي إلى معطيات سلبية هي حصيلة تفاعلات عشوائية لمكونات الحياة البشرية، وبالتالي فانه يسعى إلى تحقيق مصالح المجتمع من خلال إرساء نظم جديدة وأشكال جديدة من العلاقات ، بما يتوافق مع تطلعات المجتمع ورغباته في مواكبة التطورات التي تشهدها البيئة الإقليمية والدولية ، وذلك لن يتمإلا عبر مكافحة القيود والمحددات القائمة وإزالتها والتأثير فيها . وتتخذ تلك المحددات والقيود أشكالا مختلفة فقد تكون أنظمة سياسية استبدادية بكل ما تنطوي عليه النظم الاستبدادية من تغييب للمفاهيم السياسية المعاصرة لحقوق الإنسان.

منظومات ثقافية غير مستنيرة.

لا تتوافر على قدرات تمكنها من تفعيل عناصر ثقافية ايجابية في مرجعياتها التاريخية ،أو انغلاقها على ذاتها بشكل لا يكون بمقدورها التفاعل مع ثقافات فاعلة راهنا.

أوضاع اقتصادية راكدة لم تتح للأفراد حياة كريمة ،

أو مستوى معين من الرفاهية، فضلا عن سوء الخدمات وغيرها .

حياة اجتماعية تتحكم بها ثقافة سائدة تنطوي على تقاليد وأعراف بالية ،

تحد من قدرات الإنسان على الإبداع ، وتحرمه من الاستمتاع بحريته ، فارضة عليه أنواعا مختلفة من الوصاية التي تتبرقع بأشكال دينية وسياسية. أن هذه المعوقات والمحددات تشكل تحديات مصيرية تقف حائلا أمام ممارسة المجتمع لإنسانيته وتحد من أدواره الفاعلة في تمكين المجتمع من التطور ، ما يجعل الجمود والتخلف ابرز سمات هذه المجتمعات ، بشكل تغتال فيه جميع صور الإبداع الفردية التي تظهر بين آونة وأخرى على قلتها ، فضلا عن أجبار الفرد على الاختباء خلف جماعات أو منظومات أو مؤسسات معينة لضمان استقرار معيشته أو لحماية نفسه من التهديدات التي يتعرض لها ، بما يحوله إلى حامي ومحمي في الوقت نفسه،الأمر الذي يقود إلى تقوية هذه الحصون ويجعلها عصية على التغيير إلى جانب ما تتوافر عليه هذه الجماعات والمؤسسات من قدرات دفاعية ذاتية بحكم فاعلية تأثير هذه القدرات في المنظومة الاجتماعية . ولذلك فان التغيير ليس أمرا هينا إذا لم تتوافر شروطه الموضوعية ، متمثلة بثقافة التغيير

والوعي بالتغيير ، إذا ما أريد لهذا التغيير أن يكون ايجابيا يختصر فيه الزمن وتقل فيه الكلف والجهود.

ذلك أن حدوث أي تغيير من دون تحلي المجتمع بثقافة التغيير وتبلور الوعي به ، فأنه غالبا ما يفضي إلى الفوضى وان كان القائمين على التغيير قد استندوا إلى رؤية وأهداف واضحة . فالمجتمع هو وسيلة التغيير وهدفه ، وان آية عملية تغيير لا تستثمر طاقات المجتمع لا يمكنها النجاح على الإطلاق. ويأتي التغيير في أحيان معينة نتيجة هيجان شعبي يأخذ شكل انتفاضات وثورات ، كما هو حاصل في ما يطلق عليه بـ (الربيع العربي)، لكن مثل هذا التغيير الذي يعبر عن اعتراض وتذمر جماهيري إزاء الواقع بجميع مفرداته اختزلت أهدافه بالديمقراطية وآليات الوصول إلى السلطة والتخلص من النظام السياسي القائم ، بوصفه المسئول عن كل ما حصل في هذا الواقع وهو بالفعل كذلك.

وأصبح الحديث عن الواقع الحياتي المتردي على هامش الحديث عن الديمقراطية وآلياتها ، بالرغم من أن أغلبية المجتمع تريد واقعا اقتصاديا وخدميا مناسبا من دون أن تتملكه رغبة في الممارسة الديمقراطية ، انه يبحث عن العدالة الاجتماعية تحديدا ، بصرف النظر عمن توصله الممارسة الديمقراطية إلى سدة الحكم.

أن التغيير الذي حصل في البلاد العربية لا يمكن وصفه ألا برد فعل على الواقع ، و يعكس وعيا اجتماعيا به ،لكنه لا يتم بالضرورة عن وعي بالتغيير ، فضلا عن أن الوعي بهذا الواقع لم يكن شاملا لجميع أبعاده ، بل اقتصر على المحسوس منه فحسب ، ذلك أن المجتمعات التي لم تنل قدرا كافيا من التعليم لن يكون بمقدورها تحسس ما ينطوي عليه الواقع من ترد غير منظور ، وبالتالي لن يتشكل لها الوعي الذي يحملها على العمل الفاعل لتغييره . أن الوعي بالتغيير يفترض إن تكون هناك ثقافة مجتمعية بالتغيير . بدلالة عدم تبلور رؤية مستقبلية واضحة للتغيير في الربيع العربي ، ولم تكن هناك جهات محددة قد خططت لهذا التغيير ، بل أن التغيير برمته جاء انفجاريا غلبت عليه الانفعالات ، من دون أن يكون هناك إدراك مسبق لتداعياته وبخاصة السلبية منها ، إذ انطلق هذا الانفعال من كره راسخ في نفوس وعقول الجماهير للنظام السياسي العربي نتيجة الممارسات القمعية التي قام بها هذا النظام طوال مدة بقائه بالحكم ، وعدم قدرته على توفير الحياة الهانئة التي تصبو إليها الجماهير ، بخاصة وان المجتمع بدأ منذ أواخر التسعينيات يجري عمليات مقارنة بين حياته وتلك التي تحياها المجتمعات المتقدمة.

أن هدف الانتفاضات يتمثل في جوهره بتحسين نمط الحياة ، وليس الرغبة الجماهيرية بممارسة الديمقراطية السياسية ،ومثل هذا الهدف قد يتحقق بإجراءات إصلاحية تدريجية وصولا إلى تغيير النظام السياسي ، لكن أن يقفز التغيير من المطالبة بتحسين نمط الحياة إلى تهديم نظام سياسي بكل ما ينطوي عليه هذا التهديم من مخاطر تطول مختلف المنظومات الأخرى بحكم التأثير المتراكم للمنظومة السياسية في المنظومات الأخرى ، فذلك التغيير من دون شك لن يحقق أهدافه الحقيقية , بل قد يقود إلى أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية أسوء من تلك التي كان عليها ، وفي أحسن أحواله يحقق له بعض المكتسبات في جوانب معينة ، ويحرمه من مكتسبات كان قد حققها في أزمنة سابقة ، كتحقيق الحرية السياسية وغياب الحرية الاجتماعية ، أو التخلص من وصاية الدولة والوقوع تحت وصاية تيارات دينية متشددة ، أو تراجع سيادة القانون والاستعانة بالقبيلة والطوائف لحماية الأفراد ، ومما يثبت أن جوهر الانتفاضات هو تحسين الحياة الاجتماعية وليس تحقق الديمقراطية السياسية هو عدم قيام انتفاضات في الدول العربية الخليجية , باستثناء حالة البحرين التي لها ظروفها ودوافعها التي المجال للتطرق إليها. وإذا كان للتغيير أهميته الكبيرة للمجتمعات المتخلفة وتلك التي في طور النمو للارتقاء بها نحو الأفضل ،

فلابد لهذا التغيير من ثقافة لئلا يعود التغيير بالمجتمعات نحو الخلف بدل التقدم إلى الإمام ، ومن هنا يبدأ عمل المؤسسات المعنية بتشكيل هذه الثقافة التي من المؤكد إنها ستصطدم بالكثير من المعوقات التي تشكل تحديات كبيرة أمام شيوع ثقافة التغيير

ويشكل الإعلام ابرز الوسائل التي يمكن الاستعانة بها في تشكيل ثقافة التغيير العربية ، وقد اتضحت في التغييرات العربية فاعلية الإعلام في تعبئة الجماهير على التغيير الذي أفضى إلى نتائج مهمة ، ما يقتضي من المعنيين دراسة وتأمل الأدوار المؤثرة التي قام بها الإعلام العربي أو ذاك الناطق بالغة العربية في هذه الأحداث , مع الأخذ بالحسبان الأجندات الخارجية العربية والأجنبية التي وقفت وراء هذه التعبئة , فضلا عن التفاعل غير المسبوق للجماهير مع الإعلام ، بالرغم من غياب ثقافة التغيير لدى الأوساط الجماهيرية ، ما جعل الجماهير فريسة لإعلام يتناغم مع رغباتها بالشكل الذي دفعها باتجاهات غير محسوبة وربما تتقاطع مع مصالحها الأساسية . ومع أن هناك أدوارا مفترضة لوسائل الإعلام في تنمية ثقافة التغيير ، ألا أن وسائل الإعلام العربية لم تمارس هذه الأدوار بالشكل الفاعل والمؤثر خلال عقود ما بعد الاستقلال وبخاصة في المجالين السياسي والاقتصادي ، وكانت أدواره خجولة في إطار الثقافة الاجتماعية ومقموعة ذاتيا إزاء المؤسسة الدينية ،

أما أدواره الثقافية فظلت حبيسة الجوانب الأدبية دون أن تمتد إلى الثقافة السائدة التي هي أحوج ما تكون الى التغيير من غيرها , ومن المؤكد أن أسبابا كثيرة تقف وراء ضالة الدور الإعلامي العربي الذي يتحمل مع العامل السياسي تبعة التخلف والجمود الذي عليه عالمنا العربي.

المبحث الثالث :- الإعلام الغربي-:

دور وسائل الإعلام في تشكيل المجتمع

تعدّ وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة مصدراً مهمًا من مصادر التوجيه والتثقيف في أي مجتمع، وهي ذات تأثير كبير في جماهير المتلقين المختلفين، المتباينين في اهتماماتهم وتوجهاتهم ومستوياتهم الفكرية والأكاديمية والاجتماعية.

وهذا ما يكسبها أهميتها في عملية بناء المجتمعات، ويمكن الزعم بأنها احد العناصر الأساسية في المساهمة في تشكيل ملامح المجتمعات , وإذا كان دور وسائل الإعلام في أي بيئة مجتمعية يتحدد بالأثر الذي تستطيع أن تحدثه فيها، فمن الممكن أن نقسّم وسائل الإعلام باعتبار تأثيرها في المجتمعات قسمين: قسم مؤثر وفعال، وقسم غير مؤثر وغير فعال.

كما يمكن تفريع القسم الأول منهما إلى اتجاهين: سلبي وإيجابي، وذلك باعتبار الهدف الذي يسعى إليه القائمون على كل اتجاه، ولأن الإيجابية والسلبية من الأحكام النسبية، ليست ثابتة أو محددة.

فإن الضابط الذي يُستخدم هذين الحكمين على أساسه هنا هو ضابط الانسجام مع متطلبات الهوية العربية الإسلامية في ما يُقدَّم إعلامياَ عبر القنوات المختلفة، من حيث طبيعة المادة المقدمة، وما ترسخه من قيم فكرية وثقافية واجتماعية.

ويختلف القسم الثاني، وهو قسم وسائل الإعلام غير المؤثرة عن الاتجاه السلبي من القسم الأول في الجوهر الأساسي للموضوع، وهو حقيقة الدور الذي يؤديه كل منهما في تشكيل المجتمع وبنائه؛ فوسائل الإعلام غير المؤثرة أو الفاعلة لا تؤدي أي دور في المجتمع، وبالتالي لا تقوده إلى أي اتجاه, وهي غير معنية بما تقدمه للمجتمع وأفراده، ولا تقوم بأكثر من التوصيل لكن دون أسس واضحة، ودون معرفة حقيقية بما يجب أن يقدم، وما يجب أن تكون له الأولوية من بين ما يقدم , والقائمون على مثل هذا النوع من وسائل الإعلام هم الذين دخلوا السلك الإعلامي إما مصادفة، أو دون رغبة أصيلة في الممارسة الإعلامية،

أو دون هدف أو وعي حقيقي بالدور الذي تتحمل المؤسسة الإعلامية عبئه، لتكون ذات فائدة ونفع للمجتمع.

أما الاتجاه السلبي من القسم ذي التأثير في المجتمع فيختلف من حيث وجود الهدف، ووضوح الرؤية والوسيلة أو الأداة التي تساعد على تحقيق الهدف، والقائمون عليه لا يتحركون خبط عشوائي إنما وفق خطط ومنهجيات مدروسة بعناية، وهم يملكون تصوراً واضحًا لما يريدون الوصول إليه، ويسعون جاهدين إلى تحقيقه -أو هكذا يبدو- وكأنهم يريدون أن ينشروا ثقافة أو فكرًا أو نمطًا حياتيًا وسلوكيًا بين أفراد المجتمع.

وإذا كان ضابط الإيجابية والسلبية -كما تحدد في هذا المقال- هو الانسجام مع متطلبات الهوية العربية والإسلامية فإن الكثيرين يمكن أن يتفقوا على أن ما يُقدم إعلاميًا عبر الوسائل المختلفة المتوافرة في الدولة، والمتكاثرة -أو المتوالدة- يومًا بعد يوم يتوزع ما بين قطبي السلب والإيجاب.

لقد كان من الأولى أن يُستغَل الإعلام المسموع لتوعية الأجيال الشابة بقضايا أمتها وبواقعها المعاصر، لتنشأ نشأة مختلفة عما نراه اليوم بين شبابنا، الذين يتعرضون لتسطيح إعلامي يأخذهم نحو الانشغال بالأمور التافهة والشكلية، ويلهيهم عن القضايا المهمة والمصيرية، فنتج لدينا جيل جميل الشكل لكنه مجوّف.

إن حالة الخواء الثقافي والفكري التي نلاحظها في كثير من شبابنا هذه الأيام لم تأتِ من فراغ، ولكنها نتيجة ما يتعرض له هؤلاء الشباب من قِبَل وسائل إعلام إما لا تعرف حقيقة دورها وأثرها في المجتمع، أو أنها تعرف ذلك وتدركه جيدًا وتوظف تلك المعرفة وذلك الإدراك لإنشاء جيل من الشباب الأجوف، اللاهي بملذات الحياة وشكلياتها.

وكأن الدنيا أصبحت محصورة فيها، فأصبحنا نكرسها ونرسخ الاهتمام بها عبر وسائل إعلامنا الموقرة في كل لحظة، وبكل وسيلة،لا نوفر جهدًا ولا وقتًا، غافلين عن القضايا الحقيقية والأمور المصيرية التي يجب أن نوجه إليها شبابنا كي يكونوا عدّة لنا في المستقبل وسط عالم ملئ بالمتغيرات.

إن الإعلام أمانة ومسؤولية، والمؤسسة الإعلامية كالمؤسسة التربوية من حيث أثرها في تشكيل بنية المجتمعات ورسم ملامحها، وقد يتفوق أثر المؤسسة الإعلامية على التربوية نتيجة عوامل مختلفة، منها طبيعة المادة التي تقدمها كل منهما ومدى مناسبتها لأهواء المتلقين.

توصيات الدراسة بما يأتي:

العمل على مشاركة خبراء في مجال الإعلام والتربية وعلم النفس والاجتماع والقانون والتاريخ حيث تتكامل جهودهم ورؤاهم في إعداد مواد إعلامية إيجابية يحقق نشرها وعرضها بالوسائل الإعلامية المختلفة آثارا إيجابية على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع.

تحديد الأهداف الإعلامية المطلوبة بدقة وتقسيمها مرحلياً وزمنياً بحيث يشعر الناس بأن هناك مشكلة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحياتهم وحياة أبنائهم وسلامتهم وسلامة المجتمع وأمنه، وتكامل هذه الأهداف مع أهداف مؤسسات التنمية الاجتماعية، والسعي لتحقيقها على نحو متزامن.

غالباً ما تعالج المضامين الخارجة عن المألوف (التمرد على الآباء، الكذب في إطار الأسرة، السرقة....) معالجة مبهرة، في حين ينبغي أن تعالج القيم الأخرى معالجة أكثر إبهاراً، وهو ما ينبغي أن يكون هدفاً محورياً أمام صناع الإعلام والاتصال, وذلك من خلال رسم خارطة القيم المجتمعية والأسرية والسعي لتحقيها، حيث يمثل التمرد على القيم جزءاً من الثقافة الغربية، في حين في بلادنا يعد العدل القيمة الأولى

الجدولة الجيدة لمضامين النشاط الإعلامي بما يحقق الاستمرارية والاتساق والشمول والتنوع والتركيز،

فلا يكفي عرض المضامين المتنوعة في الوسائل المتنوعة، ولا بد أن تتعدد النشاطات الإعلامية ويكمل بعضها بعضاً، كأن تناقش الصحف والتلفزيون ومواقع شبكة الإنترنت القيم التي تعرضها الدراما، في أثناء عرضها

وبعد الانتهاء منه، وعقد ندوات ومحاضرات في المدارس والجامعات لتوضيح القيم التي عرضتها وما المقصود منها.

عند تداول ما تنشره وسائل الإعلام والاتصال موضوعياً، يمكن استبدال المعلومات الخطأ حول كثير من الأشياء بمفاهيم صحيحة ودقيقة، تصحيح الخطأ قبل شيوعه أجدى من معالجة آثاره.

العمل على تحسين صورة الأسرة والقيم الأسرية في وسائل الإعلام والاتصال المختلفة من خلال برامج متخصصة، مع تأكيدها في البرامج العامة والإنتاج الفيلمي.

مسارات إعادة بناء النظام الإعلامي المصري في ضوء التحول الديمقراطي الثوري المسار الأول: هو المسار التشريعي، وهو يتعلق بتغيير جذري ديمقراطي وجوهري لمجمل القوانين المرتبطة بحرية الصحافة والتعبير عموما، والمرتبطة بالإعلام المرئي والمسموع على وجه الخصوص،مثل تغيير قانون اتحاد الإذاعة والتليفزيون (مع التركيز الواضح على إلغاء حالة الاحتكار لعملية البث الممنوحة من الاتحاد كقيد سياسي وأمني استخدم أسوأ استخدام في العهد البائد)،

وتغيير قوانين الاتصالات، والمناطق الحرة الإعلامية، والأدوار النافذة لأجهزة الأمن والمرفق القومي للاتصالات، واتحاد الإذاعة والتليفزيون... إلخ.

المسار الثاني: هو إعادة بناء النظام الإعلامي القومي أو الحكومي على أساس تحويله من نظام الإعلام الموجه التابع تبعية مطلقة للدولة (أسوأ أنواع الإعلام قاطبة، وتراجع في العالم كله بعد سقوط الاتحاد السوفيتي السابق)

إلى نظام إعلام الخدمة وهو النظام المطبق في العديد من الدول الأوروبية الديمقراطية (بريطانيا ، Public service TV & Radioالعامة كندا، وألمانيا.. إلخ)، وهو نظام إعلامي محصن من الخضوع للاعتبارات التجارية-الاستهلاكية ، ABCوأستراليا ، BBC والإعلانات، وضغوط جماعات المصالح، عن طريق تأمين مصادره المالية من خلال الاشتراكات التي يدفعها المواطنون والتي تؤمّ نها الدولة لجهاز بث الخدمة العامة، ومحصن من التدخل السياسي الحكومي في سياساته التحريرية والبرنامجية، أيا كان نوع الحزب الحاكم أو الحكومة القائمة، بتكوين إداري-تنظيمي، يقوم على الفصل التام بين مجلس الأمناء أو مجلس الإدارة الذي يتحاور مع السلطة السياسية القائمة، وبين الإدارة العامة وإدارات التحرير والبرامج المستقلة تماما في كل قراراتها، وفي طريقة إنفاقها على التغطيات الإعلامية وهي تقدم تقريرا عن الموازنة لمجلس الأمناء والإدارة،

وليس للسلطة السياسية، ولكن لا تقدم تقري را عن إدارتها المختصة، أو قراراتها التحريرية، كما يضمن استقلالها التحريري بميثاق صحفي، تلتزم الحكومة بمقتضاه) وأحيان ا يكون في صورة تشريع برلماني ملزم(بعدم التدخل بأية صورة من الصور في عمل هيئة البث العامة،

كما يلتزم مجلس الأمناء أو الإدارة بالدفاع عن حرية المدير العام ورئيس التحرير والبرامج وكل عناصر العملية الإعلامية في اتخاذ القرارات التحريرية ونوع التغطية، مادامت ملتزمة بالقواعد المهنية المتعارف عليها من الموضوعية والتوازن والدقة... ومادامت ملتزمة بمواثيق الشرف الإعلامية المهنية التي يضعها المهنيون في الهيئة بأنفسهم، أو مواثيق الشرف المتفق عليها في كل المؤسسات الإعلامية والصحفية الدولية مثل عدم الاعتداء على حرمة الحياة الخاصة، وعدم الاعتداء على العقائد والأديان، وعدم خدش الحياء والآداب العامة... إلخ.

إعادة الاعتبار للأخبار والشؤون الجارية، يشمل مهمة إعادة بناء نظام الإعلام المملوك للدولة، وإعادة هيكلته، وإعادة على News and Current Affairs Industry الاعتبار إلى صناعة الأخبار وشؤون الساعة أو الشؤون الجارية الترفيه التافه المسطح للوعي الجمعي المصري، لمبرر إغراق الشباب ببرامج المسابقات والمنوعات، وحصر الأخبار في أخبار مسئولي الدولة، وعملية غسيل المخ والتضليل السياسي. وبدون الاهتمام بالأخبار والشؤون الجارية وتأمين تدفق حر للمعومات للشعب المصري، وتوفير منبر حرّ لكل وجهات النظر السياسية والثقافية ولأطراف الحياة العامة، وهم الحكومة والمعارضة والمجتمع المدني، فإن فقدان المصداقية.

الفصل الثالث

الإعلام العربي وقضايا العولمة

يقدم هذا الكتاب محاولة نقدية لقراءة وتفسير المستجدات التي طرأت على خريطة الواقع العربي والدولي في سياق المرحلة الجديدة للنظام الرأسمالي العالمي، والتي عرفت باسم العولمة؛ حيث تتداخل بطريقة جدلية الشركات والمؤسسات والشبكات الدولية الاقتصادية والاتصالية والمعلوماتية؛ كي تحل محل الدولة القومية في ميادين المال والاقتصاد والثقافة والإعلام، وحيث تواصل القوى الدولية المتحكمة في العولمة محاولاتها الدءوبة من أجل عولمة الثقافة والتعليم والدين، وسائر مكونات المنظومة الحضارية التي كانت تحتفظ باستقلال نسبي خارج دوائر وقيم السوق العالمية. ونظرًا للتداخل القائم بين التحولات التي تجري في العالم، وما تثيره من قضايا وتحديات وأسئلة، وبين ما يواجهه الواقع والمستقبل العربي في عصر العولمة؛ لذلك كان طبيعيًا أن تنال ظاهرة العولمة وتجلياتها الاتصالية والمعلوماتية والثقافية اهتمامًا مركزيًا يجعلها تتصدر سائر القضايا التي يضمها هذا الكتاب، والتي يتميز بعضها بالطابع العالمي (مثل كل من قضايا المرأة والبيئة والهندسة الوراثية)، وينفرد بعضها الآخر بالطابع العربي (مثل إشكالية الوفاق العربي)، ويمثل البعض الثالث جسر التواصل الإعلامي بين الغرب والعالم العربي (مثل صورة الغرب في الصحافة المصرية)،

ولكنها في مجملها تعد محكات شفافة تعكس التناقضات الكامنة، وأشكال التعاون الاقتصادي والاجتماعي المتعددة، والتي يزخر بها الواقع العربي بفعل تراكم الموروثات الثقافية السلبية، وغياب الديموقراطية في مختلف المؤسسات الاجتماعية والسياسية؛ بدءاَ بالأسرة، وانتهاء بنظم الحكم، ومروراً بالأحزاب والتنظيمات الثقافية والعلمية، وإن كان الأمر لا يخلو من تحسس إرهاصات التحدي وآفاق الانفراج المستقبلية. هذا وتبرز التجليات السلبية والإيجابية لهذه القضايا في إطار التفاعل بين الإعلام، والتشابكات الخفية التي تحكم مسار وفاعلية هذه القضايا في سياق ما تطرحه العولمة من إشكاليات وتحديات اجتماعية وثقافية لم تحسم بعد على المستويين العربي والدولي. وبقدر ما يحوي هذا الكتاب من معلومات وآراء ورؤى خلافية حول القضايا التي تناولتها الدراسات؛ إلا أنها تطرح من التساؤلات والإشكاليات ما يعكس ويجسد القلق العالمي المصاحب لعصر العولمة، والمتزامن مع رحيل قرن واستهلاك قرن جديد بكل ما يعني ذلك من تركة الموروثات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تنتمي إلى القرن العشرين ولم تحسم بعد، علاوة على المستجدات والتحديات المتنامية التي يحملها القرن الجديد في ظل تزاوج ثورتي الاتصال والمعلومات الجيولوچية، وتصاعد قضايا البيئة. ولذلك كان أمراَ حتمياّ أن نحرص على إبراز أهمية كل قضية على حدة، سواء في خصوصية مفرداتها وإشكالياتها على المستويين؛ العملي المعاش، والفكري المجرد،

أو في تشابكها وتفاعلها الجدلي مع سائر مفردات الواقع المجتمعي الذي يشكل هويتها ويحدد مسارها في مختلف مراحل تطورها، مع عدم إغفال التأثير الكاسح لآليات العولمة في مجال الاتصال والمعلومات. إن جوهر هذا الكتاب يتمحور في الدراسة الأولى وعنوانها "الإعلام المعاصر وتحديات العولمة"؛ حيث يتم رصد وتشخيص مفهوم العولمة بين علماء الاقتصاد السياسي والاجتماع والثقافة، وتطرح الأسباب السياسية والاقتصادية والتكنولوچية التي أدت إلى ظهور العولمة، والتي تتمثل في اختفاء الاتحاد السوفيتي وتصاعد نفوذ الشركات المتعددة الجنسية والمؤسسات المالية الدولية (صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي) وظهور منظمة التجارة العالمية، وتزاوج ثورتي الاتصال والمعلومات؛ بما أضاف للسوق العالمية قدرات هائلة غير مسبوقة في الانتشار والترويج والدعاية. وقد رصدت الدراسة الآثار العولمية في مجال الاتصال والمعلومات بشقيها الإيجابي والسلبي؛ سعياَ لإبراز وظائف الإعلام العولمي، وأدواره الاجتماعية والثقافية في عصر هيمنة القيم الاستهلاكية وإيديولوچية السوق. ولعل من أبرز قضايا عصر العولمة، والتي تستحوذ على اهتمام شعوب العالم شمالاً وجنوباً؛ قضيتي البيئة والثورة البيولوچية، اللتان تشغلان مساحة بارزة في هذا الكتاب (الدراستان: قضايا البيئة بين الصحافة والرأي العام، الإعلام وقضايا الهندسة الوراثية)؛ حيث تثار قضية انتشار الأمية العلمية في المجتمعات المعاصرة، خصوصًا في الجنوب؛

فرغم أن البشرية تعيش منذ سنوات عديدة الموجة الحضارية الثالثة التي تتمثل في الثورة العلمية والتكنولوچية وتجلياتها في مجالات المعلومات والاتصال الهندسية الوراثية، غير أن الأمية العلمية تبرز كتجسيد واضح للفجوة التي تزداد اتساعًا بين مجتمع العلماء وبين سائر فئات الجمهور، بما فيهم القادة السياسيين والبرلمانين والإعلاميين، وهنا تبرز المسئولية الكبرى التي تقع على وسائل الإعلام، في ضرورة تبسيط المعرفة العلمية وتوصيلها إلى مختلف الشرائح والمستويات الجماهيرية، من خلال الإعلام المقروء والمرئي والمسموع، وتطرح الدراستان الإشكاليات المعرفية والمخاطر البيئية، والتحديات الأخلاقية والاجتماعية الناتجة عن الإنجازات العلمية التي تحققت في مجال الهندسة الوراثية، كما تسلط الضوء على المعوقات التي تحول دون قيام وسائل الإعلام بأدوارها المفترضة، والتي يكمن بعضها في طبيعة العمل الإعلامي ذاته كنشاط إنساني له خصوصيته وله قصوره الذاتي، كما يرجع أغلبها إلى سطوة المصالح التي تجسدها الشركات المتعددة الجنسية، والتي تسيطر على 80% من التجارة العالمية والاستثمارات الدولية، وتتحكم بصورة شبه مطلقة في حركة السوق العالمية، خصوصًا في مجالات الاتصالات والفضائيات والمعلومات، والأدوية والبحث العلمي والإعلانات، والعلاقات العامة. وإذا كانت قضية الوحدة العربية

قد تصدرت قائمة الأولويات لدى الرأي العام العربي منذ الخمسينيات والستينيات، واستمرت مطروحة حتى التسعينيات، وأضيف إليها بعض القضايا الأخرى المحورية (مثل قضايا التنمية الشاملة، وحقوق الإنسان العربي المادية والمعنوية، والاعتماد الجماعي على الذات في مواجهة تحديات العولمة الاقتصادية والثقافية)؛ فإن الدراسة الثانية وعنوانها "الإعلام وإشكالية تحقيق الوفاق العربي" قد كشفت عن الظروف والملابسات التي تحدد صيرورة المد والجزر، وتداعيات الوفاق والانقسام في المشهد العربي الراهن، والتي أبرزتها الصحافة العربية من خلال تسليط الضوء على مكانها من الوفاق العربي حضوراً وغياباً، بعد مجموعة من القضايا والأحداث الفاصلة في التاريخ العربي المعاصر، والتي تمثلت في السوق العربية المشتركة، ومؤتمر الدوحة الاقتصادي (نوفمبر 1997)، والأزمة العراقية مع الأمم المتحدة والقدس، ومحاولات تهويدها.

في ضوء الرصيد الأكاديمي المحدود الذي قدمته الأدبيات العلمية العربية في مجال الإعلام عن صورة الغرب في الإعلام العربي المعاصر، والذي يتناول أغلبه حقبتي الستينيات والسبعينيات، فيما يركز قليل منه على حقبة الثمانينيات؛ جاء اهتمامي بضرورة رصد وتحليل صورة الغرب في الصحافة المصرية في حقبة التسعينيات؛ أي في عصر العولمة، ومما ضاعف حماسي لهذا الموضوع التشجيع الذي لقيته من إحدى رفيقات المهنة الدكتورة نهاوند القادري، التي بادرت إلى نشر الدراسة ضمن محاور العدد الثاني من مجلة "الباحثات" اللبنانية،

ولقد سعت الدراسة إلى رصد وتحليل العوامل والمتغيرات السياسية والثقافية والإعلامية التي أثرت في تشكيل صورة الغرب، كما قدمتها الصحافة المصرية بشقيها القومي والحزبي، وبمختلف تياراتها وتوجهاتها الأيديولوچية والسياسية، وقد تم اختيار فترات زمنية كاشفة وذات دلالة سياسية وثقافية بارزة؛ مما كان له أثره المباشر والملحوظ على الخطاب الإعلامي المصري تجاه أدوار ومواقف الغرب من قضايا العالم العربي في حقبه التسعينيات؛ فكانت أزمة الخليج (2 أغسطس 1990، و28 فبراير 1991) هي القضية السياسية، كما كان الاحتفال بمرور قرنين على العلاقات المصرية الفرنسية هو الحدث الثقافي الذي أثار جدلاً طويلاً في الخطاب الإعلامي المصري؛ مما أحدث كثافة في الإنتاج الصحفي، سمحت برصد دقيق لعناصر صورة الغرب في المجال الثقافي. ولما كانت العولمة تشهد تزايدًا ملحوظًا في أهمية الدور الذي تقوم به قوة العمل النسائية في إحداث التراكم الاقتصادي لصالح الشركات العالمية والمحلية؛ إذ أصبحت المرأة في نظر هذه الشركات منجمًا جديدًا يجب استغلاله إلى آخر قطرة؛ أولاً باعتبارها تمثل قوة العمل الرخيصة غير المنظمة التي تحتاج إلى ضمانات صحية أو تأمينية، فهي تقبل مالا يقبله الرجل، سواء في مجالات القطاع غير الرسمي، أو في الحرف والخدمات والصناعات التكميلية أو في المنازل، وثانيًا باعتبارها ربة البيت التي لا يمكن إغفال دورها الأساسي في الاستهلاك، الذي يعد عماد السوق في عصر العولمة؛

لذلك كان هناك ثمة ضرورة تقتضي رصد التجليات الاجتماعية للعولمة، خصوصًا في مجال "قضايا المرأة والإعلام في عصر العولمة"، وكان هذا موضوع الدراسة الخامسة التي عنيت برصد محددات الخطاب العالمي الخاص بقضايا المرأة، ومقارنته بالواقع الراهن للمرأة العربية، وموقف الإعلام من قضاياها وإنجازاتها ومشكلاتها وانكساراتها، والعوائق الاجتماعية والموروثات الثقافية التي تحول دون إطلاق قدراتها الإبداعية للمشاركة في بناء واستنهاض المجتمعات العربية؛ وذلك في محاولة للإجابة عن سؤال محوري يدور حول الأدوار الجديدة للإعلام في عصر العولمة، بعد أن أصبحت الإمبراطوريات السمعبصرية (الأرضية والفضائية) هي المؤسسة التربوية والتعليمية الجديدة التي حلت مكان الأسرة والمدرسة. وفي ضوء هذه التطورات تبرز الإشكالية الخاصة بموقف الإعلام من قضايا المرأة العربية في حقبة العولمة؛ حيث يصبح السؤال المطروح: "هل يقوم الإعلام العربي بدور إيجابي في دفع قضية المرأة إلى الأمام، أم يكتفي برصد واقعها الراهن بسلبياته وإيجابياته، أم يسعى متعمدًا إلى تكريس أدوارها التقليدية متجاهلاً إنجازاتها في مجالات التعليم والعمل والإبداع الفكري والثقافي، أم يحاول استثمارها من خلال الإعلانات لترويج القيم الاستهلاكية لصالح السوق العالمية والأسواق المحلية؟. وفي النهاية هناك كلمة أخيرة أعرب بها عن امتناني لرفاق المهنة الأعزاء،

وعلى الأخص فريق العمل الجماعي بقسم الصحافة، الذين قدموا لي على امتداد مشواري العلمي صوراً شتى من المساندة والبهجة والتشجيع، وأخص منهم في جيل الشباب بالنسبة لهذا الكتاب بالتحديد؛ كل من هشام عطية، ومحمد حسام، وشيرين سلامة، وماجدة عبد المرضي، ومحرز غالي، ومحمد الباز. وإذا كنت قد أهديت هذا الكتاب إلى حفيداي أحمد هشام وعمر هشام باعتبارهما يمثلان الجيل القادم من شباب مصر الذي سيواجه سطوة العولمة وتجلياتها المضيئة والمعتمة، مسلحين بالوعي والعلم والانتماء للوطن

(وعلى الأخص فقرائه وكادحيه)؛ فإنني وكما دأبت في كل مؤلفاتي السابقة أهدي هذا الجهد أيضًا إلى طلابي من الأجيال الجديدة الواعدة بقسم الصحافة؛ اعتزازًا بهم وبهذا القسم العريق الذي قدم للوطن ذخيرة من المعرفة والقيم والبشر، تتجدد دومًا بتجدد مياه النهر العظيم (نيل مصر).

تأثير القنوات الفضائية على الثقافة العربية:

أسفرت تكنولوجيا الاتصال وثورة المعلومات عن واقع جديد أصبح يفرض نفسه على عالمنا المعاصر.. ولعل أهم علامات هذا الواقع ومؤشراته: احتكار الدول الغربية لتكنولوجيا الاتصال، وتحكمها في مصادر المعلومات

وحرمان دول العالم النامي منها في ظل تدفق غير متوازن بين دول العالم المختلفة.ولقد ساعدت تكنولوجيا الاتصال والمعلومات على تمهيد الطريق أمام وسائل الإعلام والثقافة الغربية لاختراق المجتمعات النامية وتهديد هويتها وثقافتها.. لقد أفرزت تكنولوجيا الاتصال الحديثة واقعاً إعلامياً جديداً أدى إلى توفير وإتاحة بدائل ووسائل إعلامية عديدة ومتنوعة... ولا شك أن هذه الوسائل الجديدة تعكس بيئات ثقافية وحضارية متباينة الأفكار والرؤى. وهي بلا شك تؤثر تأثيراً مباشراً في الذاتية الثقافية للشعوب. ومن هنا يكون البحث عن حماية الهوية العربية أمراً ذا أهمية وضرورة.

وتزداد المخاوف يوماً بعد يوم من آثار العولمة الثقافية على الهوية العربية وذلك في ضوء ما يقدم من مضامين مختلفة في الفضائيات العربية والأجنبية، وعلى الشبكة الدولية للمعلومات "الانترنت"، وما تقدمه الصحافة والسينما، وكذلك ما تعكسه وسائل الإعلام الغربية من صور مشوهة وسلبية عن واقع الإنسان العربي ومجتمعه.. للأسف فإن بعض الفضائيات العربية سارت على منهج بعض القنوات الفضائية الغربية شكلاً ومضموناً، وجعلت الجماهير العربية تحاكي الأسلوب الغربي، وتروج لأنماط ثقافية يخشى من تأثيراتها السلبية على الهوية العربية.

وتجدر الإشارة إلى المضامين الترفيهية السطحية التي لاقت رواجاً واضحاً واهتماماً متزايداً من المشاهدين العرب، وبصفة خاصة الشباب والمراهقين وخصوصاً ما تعكسه بعض الأغاني المصورة والبرامج من صور مبتذلة وخليعة تقوم على الإثارة. وهذه الأشكال تستهدف شباب أمتنا وتحاول طمس هويتهم والعبث بقيم وعادات وتقاليد وثقافة المجتمعات العربية والإسلامية.

إن الأمر جد خطير إذا لم تنتبه وسائل الإعلام ومؤسسات التنشئة الاجتماعية العربية إلى حقيقة ما يدور حولنا من سعي لفرض ثقافة العولمة والتغريب لدى المواطن العربي.

إن المحافظة على الهوية والثقافة العربية لا تعني الانطواء على الذات وإنما تعني التفاعل مع الثقافات الأخرى وأخذ ما يفيد هويتنا وثقافتنا ويدعمها في إطار التفاعل بين الثقافات والحضارات المختلفة.

إن الاعتراف بالآخر والتحاور معه ضرورة تفرضها التطورات العالمية المتلاحقة فلابد من التكامل والتفاعل بين الشعوب والثقافات ولكنلا بد من التمسك والاحتفاظ بهويتنا وحضاراتنا وتراثنا وقيمنا، خاصة أن الحضارة والثقافة العربية لها مكانتها البارزة في صنع تاريخ الإنسانية. ولقد تعلمت أوربا من حضارتنا وعلومنا ولولاها ما كان لها أن تحقق ما وصلت إليه من تقدم كبير.

انطلاقا من هذا تزايدت الدعوات في الآونة الأخيرة لصياغة إستراتيجية إعلامية عربية تقوم على بلورة رؤية واعية تمكن من التعامل مع النظام العالمي الجديد بكل ما يحفل به من متغيرات وما يطرحه من تحديات... تلك الرؤية التي تمكن الإعلام العربي من دعم رسالته الأساسية في خدمة الجماهير العربية وقضاياها الأساسية. ولاشك أن هذه الرؤية التي نتطلع إليها يجب أن تستند إلى تطوير الخطاب الإعلامي وآلياته ووسائله بما يساعد في الحفاظ على الهوية الثقافية والحضارية للمجتمع العربي، ومن ثم فإن الاهتمام المتواصل بتوفير بدائل إعلامية ثرية ومتنوعة يعد أمرا ضروريا بشرط أن تطرح هذه البدائل ما يتفق وميول واحتياجات وثقافة الإنسان العربي، وأن تعمل على تنمية ثقته واعتزازه بقوميته وهويته.ومع التطورات التي يشهدها العالم المعاصر، والمحاولات المستمرة التي تقوم بها القوى العالمية لعولمة الثقافة والفكر وسائر مكونات المنظومة الحضارية، تبرز الأدوار الجديدة للإعلام والاتصال، فلم تعد تكنولوجيا الاتصال والمعلومات تشغل موقعاً مركزيا فحسب بل بدأت تشغل موقع القلب في إستراتيجية إعادة تنظيم العلاقة بين الدولة والمواطنين، وبين القوى المحلية والعالمية.

لقد أصبح الإعلام يشغل موقعاً أساسياً في الاستراتيجيات والسياسات التي تستهدف تحديث المجتمعات وإعادة بنائها لمواكبة عصر المعلومات والتطورات العالمية في كافة المجالات.. فالإعلام أصبح محركا رئيسيا في تشكيل منظومة العلاقات الدولية

سواء على المستوى الرسمي بين الحكومات والأنظمة، أو المستوى الحضاري بين الثقافات المختلفة.

ولا شك أن تقدم نظم الاتصال في أي مجتمع يعتمد على مدى التقدم الذي أحرزه المجتمع في مختلف النواحي الأخرى، ووسائل الإعلام هي انعكاس للنظم السائدة في أي دولة سواء كانت اقتصادية أو اجتماعيةأو سياسية، كما أن النظام السياسي للدولة هو الذي يحدد العلاقة بين الأيديولوجية السياسية وفلسفة نظام الإعلام القائم في المجتمع .

إن عملية بناء المجتمع العصري الذي يعتمد على التنمية الحضارية لابد أن تشمل تعلم مهارات جديدة وقبول أفكار جديدة عن طبيعة العالم والعلاقات الإنسانية، وكذلك قبول القيم الجديدة والأفكار المستحدثة وتغيير الاتجاهات التي تستلزمها عملية التحديث.

إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن عملية بناء المجتمعات الحديثة لا تعني بالنسبة للعالم العربي تبنّي الثقافة الغربية ولا تعني استيراد التكنولوجيا من الغرب ذلك أن التنمية الذاتية للشعوب العربية يجب أن تأخذ في اعتبارها القيم الثقافية الأصيلة والمعاني الخاصة لهذه الشعوب.. ومن ثم فإن تحديث المجتمعات العربية سوف يتحقق في ظل الاحترام المتبادل بين الشعوب على الصعيد الدولي،

ويجب ألا تضيع الذاتية الثقافية للأمم بأي حال من الأحوال على حساب خضوعها للمصالح الأجنبية، بل يجب على الدول النامية أن تسعى من جانبها لإحياء ثقافاتها وتأكيد عزمها على أن يكون لها حق الإسهام الكامل في الحوار بين الثقافات.

ومن الطبيعي أن نؤكد على ضرورة أن تمارس وسائل الإعلام دورها في خدمة البناء الثقافي والاجتماعي للمواطن العربي، ذلك أن الواقع الحالي الذي أفرزته تكنولوجيا الاتصال أتاح وجود المئات من القنوات التليفزيونية والصحف والمواقع على شبكة الانترنت التي ساعدت على تجزئة الجماهير على هذه الوسائل كما أن الكثير منها ساهم بشكل كبير في تسطيح الفكر والثقافة والبناء الاجتماعي للإنسان العربي. بل إنها بما تقدمه من مضامين هشة قد تسهم في ضياع الهوية والقيم العربية على المدى البعيد.

من هنا تبرز أهمية الدور الذي يمكن أن تقوم به وسائل الإعلام في عملية البناء الثقافي والاجتماعي، باعتبارها الوسائل القادرة على تحقيق الدور الهام في التطوير في هذا المجال، وذلك من خلال تطوير النماذج الاجتماعية الواقعية، وفقاً لسياسة اجتماعية متكاملة تتخذ أساليب ووسائل هادفة وتساندها تبريرات جماعية ونظريات فلسفية.

لقد ثبت مدى فاعلية وسائل الإعلام في التأثير الواضح على أفكار واتجاهات وسلوك الجماهير، إذا استخدمت استخداما رشيداً.. ولا يقتصر دور هذه الوسائل على مجرد عرض الآراء والأفكار بل تعداه إلى التأثير في الاتجاهات بتدعيمها أو تبديلها.

وهذا بطبيعة الحال أمر يخص طبيعة المضمون من ناحية صياغته وأسلوب إعداده وتقديمه. وفي هذا الصدد فإن وسائل الإعلام يمكنها أن تقوم بالمساهمة في إعادة بناء الأفراد بما يمكنهم من التصدي لمسئوليات عصرهم، وبلوغ مستوى الحياة المحققة لطموحهم المستمر، وآمالهم المتجددة ومطالبهم وأهدافهم.

كما يمكن لوسائل الإعلام أن تساهم في تشكيل الملامح الحضارية للمجتعات العربية من خلال ملاحقة العلم الحديث ونقله في حدود ما يناسب الجماهير وبالشكل والأسلوب الذي يمكن من استيعابها، والوصول بمن يتلقاها إلى مستوى واقع العصر الذي يعيشه فكراً وطموحاً.

إن أخطر ما يرتبط ببناء الإنسان العربي هو التغير في أسلوب الحياة الاجتماعية والقيم الحضارية والثقافية من الاتجاه التقليدي والإيقاع البطيء إلى روح أكثر تقبلاً للتغيير وبإيقاع سريع. وهنا يمكن لأجهزة الإعلام أن تساهم في تطوير أنماط السلوك بما يتلاءم مع ظروف الحياة الجديدة، وكذلك تعليم الجماهير أساليب مختلفة في السلوك الفردي والاجتماعي، وتقديم المعلومات التي تساهم في عملية التكيف والتطوير الاجتماعي.. ويتطلب الأمر هنا ضرورة الاستفادة من قدرات وسائل الإعلام في التصدي لمشكلات الإنسان العربي، والمشاركة في تناول التنمية من خلال بناء فكر وقيم الإنسان الذي يشارك في صنع التطور في المجتمعات العربية.

الفضائيات والواقع العربي:

ماذا فعلت القنوات الفضائية للثقافة العربية ؟ إن هذا الموضوع يكتسب أهمية كبيرة لكل فئات وقطاعات المجتمع مركبة .

العربي لأن الفضائيات لها تأثيرات كبيرة على كل مناحي الحياة.. ومنذ ظهرت تكنولوجيا الاتصال أتاحت تعددية كبيرة ومتنوعة في مجال القنوات الفضائية فهناك قنوات في مجالات عديدة تشمل الفضائيات الإخبارية والدرامية والرياضية والغنائية والتسويقية والسياحية والدينية وغيرها، ولقد أصبح المشاهد العربي مشتتا بين هذا الكم الهائل من القنوات الفضائية. ولكن على أية حال فإن هذه القنوات استطاعت أن تجتذب الجماهير إليها، خاصة أن هذا الجمهور العربي عاش منذ وجدت وسائل الإعلام في بلاده وهو يتعامل مع خطاب إعلامي أحادي يعبر عن وجهة نظر الحكومات العربية، ولا يفتح المجال لتعددية الآراء.

لقد أوجد هذا الواقع الجديد للقنوات الفضائية قنوات كثيرة يتعامل معها المواطن العربي مما أدى إلى تقليل اعتماده على القنوات الحكومية، وذلك بسبب تمتع القنوات الخاصة الجديدة بدرجة حرية أكبر في التعبير، مما اضطر القنوات الحكومية أن تعطي مساحات أكبر لحرية التعبير لمواجهة المنافسة مع القنوات الأجنبية والخاصة العربية.

مع ازدياد أعداد القنوات الفضائية زادت حدة المنافسة على اجتذاب الجماهير العربية.

وفي هذا الإطار نجد بعض القنوات التي تحترم جمهور المشاهدين وتقدم له المضمون المناسب والجاد، وعلى الجانب الآخر نجد القنوات الأخرى التي تقدم الشكل والمضمون المبتذل من أجل اجتذاب الجماهير لمضامين لم يتعود عليها من قبل.

أدت كثرة القنوات الفضائية التي يتعرض لها المواطن العربي إلى تجزئة وتفتيت الجمهور ولم يعد هناك قناة تستحوذ على الجمهور كما كان في الماضي.

في ظل المنافسة بين القنوات الفضائية على اجتذاب الجماهير اندفعت قنوات عربية عديدة إلى تقليد ومحاكاة النموذج الغربي في الإخراج والمضمون اعتقاداً منها أن ذلك هو الطريق الوحيد للنجاح والحصول على إعجاب الجماهير. لقد سعت فضائيات عربية عديدة لترويج أساليب الحياة وأنماط السلوك الغربية التي لا تنسجم مع قيمنا وتقاليدنا.. وللأسف فإن الكثيرين يتصورون أن تقليد الغرب ومحاكاة نمط وأسلوب حياته هو السبيل الوحيد للتطور الإعلامي، وهو الذي سيحافظ على ارتباط الجمهور بهذه القنوات. ومن هنا بدأت تظهر موجة الإثارة والعري في الغناء العربي، وكذلك موجة الإثارة في الإعلانات التليفزيونية، ويضاف إلى ذلك تقديم نموذج تغريبي للأسرة في الدراما العربية. وأصبحت النماذج الغربية في الإعلام العربي تدخل كل البيوت وتؤثر على الشباب والمراهقين تأثيراً سلبياً في أغلب الأحيان.

تأثرت أساليب تقديم البرامج في الفضائيات العربية من قبل المذيعين فظهرت اللغة المبتذلة واصطناع خفة الدم والتبسط الزائد من أجل اجتذاب الجماهير لتلك البرامج، بل إن المذيع خرج في كثير من الأحيان على دوره الأساسي في تقديم البرنامج.

في إطار ديمقراطية الاتصال بدأت الفضائيات العربية تقدم حوارات ومناقشات في مجالات عديدة. لكن معظم البرامج قدمت نماذج رديئة وبعيدة عن الالتزام بأدب الحوار التليفزيوني. وظهر في هذه البرامج حدة الخلاف والصراخ بدلاً من لغة التحاور والتفاهم وتقبل الرأي الآخر.

أثر الإعلام الفضائي بشكل واسع على الصحف المطبوعة بل أثر أيضا على عادة القراءة، وأصبح الإعلام الترفيهي هو سيد الموقف..

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف نحافظ على بناء العقل العربيفي هذا الانفجار الفضائي بما يحمي ثقافتنا وهويتنا؟

ورغم كل هذه الظواهر السلبية إلا أنه يمكن القول أن الفضائيات وحدها ليست المسئولة عن حالة الرداءة في الثقافة العربية.. صحيح أن الفضائيات أثرت بشكل كبير على عادات وثقافة الناس ولكن هناك متغيرات أخرى مسئولة عن ذلك مثل برامج التعليم والأسرة ومؤسسات التنشئة الاجتماعية والثقافية وسياسات الحكومات.

لقد ساعدت هذه التشوهات في الثقافة العربية على بروز قيم جديدة تُعلي الأنانية والفردية وهذا لم يكن موجودا في السلوك العربي من قبل فحتى قيمة الشهامة التي عُرفت عند العربي بدأت تتراجع، وبدأت تسود قيم تقوم على التسلق والنفاق بدلاً من الكفاءة والجدية.

كيفية حماية الثقافة العربية :

مطالبة الإعلام الفضائي العربي بالاهتمام بالبناء الثقافي للمواطن العربي حيث أصبح ذلك أمراً ضرورياً لمستقبل المجتمع العربي كله.

ضرورة المحافظة على التقاليد والعادات العربية من خلال ما تقدمه القنوات الفضائية مع الانفتاح على الثقافات الأخرى في إطار ما يُعزِز ويُدعِم الثقافة العربية.

ضرورة إيجاد صناعة إعلامية عربية مشتركة تستند إلى الإمكانات البشرية والمادية والتقنية في العالم العربي، والتقليل من الاعتماد على النموذج الغربي في المضامين المقدمة للجماهير العربية.

أن تقوم السياسات العامة العربية على تنشئة المواطن العربي على الاعتزاز بحضارته وتراثه وتاريخه والانتماء لثقافته بما يعزز مكانته على المستوى العالمي.

يجب على الدول العربية أن تؤكد على قيم الإنسان العربي في برامج التعليم والخطط الثقافية مع دعم ثقافة الحوار في تنشئة المواطن العربي بدءاً من الأسرة على أن يمتد ذلك إلى كافة مؤسسات المجتمع.

أهمية تدعيم المؤسسات الإعلامية العربية لتصبح كيانات كبيرة وغير مجزأة مع ضرورة توفير بدائل إعلامية تقدم العرب وثقافتهم للمجتمعات الأخرى.

ضرورة دعم ثقافة الحوار في العالم العربي في إطار دعم الممارسة الديمقراطية والمشاركة في صنع المستقبل العربي.

أن تقوم أجهزة الفضائيات العربية بالتعبير عن قضايا ومشكلات الإنسان العربي، مع زيادة مشاركة المواطن العربي في أجهزة إعلامه للتعبير عن رأيه والمشاركة في تطوير المجتمعات العربية من خلال دعم ما يسمى بديمقراطية الاتصال.

وضع مواثيق شرف تنظم عمل الإعلام العربي وخاصة في مجال القنوات الفضائية، على أن تؤكد هذه المواثيق على دعم اللغة العربية والقيم والسمات الوطنية العربية في المنتج الإعلامي العربي.

ضرورة التطوير المستمر لمنظومة القيم العربية بما يحافظ على الشخصية العربية ووضعها في مكانتها التي تليق بها على الساحة العالمية.

الفصل الرابع

صورة الإسلام في الإعلام الغربي

يستعرض هذا الفصل أهم الميزات التي تطبع صورة الإسلام في وسائل الإعلام الأوربية، ويقدم مثالاً عنها في الإعلام الألماني ويتناول تعامل الإعلام الأوربي مع قضايا خاصة بالإسلام، كالأصولية الإسلامية الموصوفة بحركات الإسلام السياسي، وقضية التعامل الإعلامي مع رواية آيات شيطانية لسمان رشدي، وقضايا حجاب المسلمات الفرنسيات، وملف المرأة المسلمة، وملف الجهاد، ويلخص صورة الإسلام في الإعلام الفرنسي ويعرض أهم ملامح صورة الإسلام في بريطانية بعد أحداث 11 أيلول، التي تعرضت لها الولايات المتحدة الأمريكية، ويتابع بعض الباحثين بشأن قطاع إعلامي معين، كالذي كان مع الكاتب الصحافي في إسبانية، وينصف تصريحات الأمير تشارلز ويوضح صورة الإسلام في الأفلام وشبكة الانترنت الأوربية والأمريكية، ويرصد ويلخص الخطوط العريضة لصورة الإسلام في الغرب، وأسباب الخوف من الإسلام ويستعرض العديد من التوصيات والآليات التي يمكن أن تساهم جداً، في تصحيح صورة الإسلام في الغرب،

وتؤكد التوصية الأم التي تدعو إلى ضرورة تطبيق وترجمة حدود أدني من التوصيات التي تنتهي إليها الندوات والمحاضرات العربية والإسلامية ، التي تتعرض وتناقش موضوع صورة الإسلام في الغرب في القنوات الإعلامية الغربية، من خلال عمل مؤسسي ، وتفعيل عالمي للإعلام الإسلامي، وللدور المنوط بالأقليات المسلمة

قراءة في كتاب "صورة الإسلام في الإعلام الغربي" لمحمد بشاري :

المسلمون في الحاجة إلى خطاب إعلامي يتجاوز العاطفة ومؤسس على الانفتاح النقدي مبدئيا، من السهل خندقة أسباب نزول كتاب "صورة الإسلام في الإعلام الغربي" ضمن استحقاقات حقبة ما بعد أحداث الثلاثاء الأمريكي الأسود، وخاصة وأننا نعيش في فترة تتميز بتصاعد الحملات الإعلامية العدائية ضد الإسلام والمسلمين عبر تمرير صور نمطية عن الإسلام تختزله في ديانة تتبنى العنف وتحرض على التطرف وتعارض الحداثة، لولا أن صاحب الكتاب، محمد بشاري، الذي يشغل منصب رئيس الفيدرالية العامة لمسلمي فرنسا وأمين عام المؤتمر الإسلامي الأوروبي، يشير في تمهيد الكتاب إلى أنه اشتغل على تحريره قبل تاريخ صدمة أحداث 11 أيلول (سبتمبر) 2001 خصص الفصل الأول من المبحث لاستعراض أهم المميزات التي تطبع صورة الإسلام في وسائل الإعلام الأوروبية، مع الاستشهاد ببعض النماذج منها الإعلام الألماني مثلا،

وكذلك من خلال استعراض بعض معالم تعامل وسائل الإعلام الأوروبية مع بعض القضايا التي تهم الإسلام كما يضم الكتاب فصلا مخصصا لبعض النماذج النمطية التي تميز صورة الإسلام في الإعلام الأوروبي، اعتمادا على بعض نماذج من وسائل الإعلام الألمانية، قبل أن يتطرق لأهم معالم صورة الإسلامفي وسائل إعلام بعض الدول الأوروبية، وخاصة في فرنسا وبريطانيا.

ـ صورة الإسلام في وسائل الإعلام الفرنسية :

اعتمد الكاتب في هذا الفصل على العديد من المراجع، منها استطلاعات رأي لمؤسسة "الإيفوب"، ومتابعة لبعض النماذج الإعلامية في التعامل مع صورة الإسلام، بالإضافة إلى دراسة للباحث المختص في مجال الإعلام والاتصال، الدكتور الصادق رابح، وكتابه الذي يحمل عنوان "صورة الإسلام في الخطاب الإعلامي الفرنسي"، والذي اشتغل على مجلتي (الإكسبرس) و(لونوفيل أوبسرفاتور)، وذلك عبر تحليل طبيعة تعاملها مع بعض القضايا التي تتعلق بواقع الأقلية المسلمة في فرنسا، وهي: قضية التعامل الإعلامي مع رواية "آيات شيطانية" لسلمان رشدي، قضية الحجاب، ملف المرأة، ثم موضوع الجهاد."هناك حوالي ثلاثة ملايين مسلم في فرنسا، والمسلمون في فرنسا يفتتحون في كل يوم مساجد جديدة، ولكن، علينا أن نتساءل: من هو إلههم؟ ! هل هو إله الخميني أم إله القذافي هل هو الذي يتبنى قطع يد السارق أم رجم النساء الزانيات؟"

بهكذا وصف تحدثت مجلة لونوفيل أوبسرفاتور في عدد 7 فبراير 1985 في ملف يحمل عنوان: "الإسلام في فرنسا". بهكذا نموذج إعلامي في التعامل مع القضايا التي تمس الأقلية المسلمة في فرنسا، يختصر المؤلف العديد من العقليات السائدة في الوسط الإعلامي الفرنسي عموما.

تتميز فرنسا بأنها تضم أكبر جالية إسلامية في أوروبا، وبالتالي من المتوقع أن تشكل مشاكل المسلمين هناك أكبر مقارنة مع المشاكل التي تعترض الأقلية المسلمة في باقي الدول الأوروبية. وتتضح طبيعة التعامل الإعلامي مع القضايا الإسلامية، من خلال أربعة قضايا نموذجية، وهي: قضية سلمان رشدي، وقضية الفتيات المحجبات، وقراءة الإعلام الفرنسي لمكانة المرأة في الإسلام، ثم القراءات الخاصة بمفهوم الجهاد. (جدير بالذكر أن القراءات الإعلامية المعنية في هذا الفصل صدرت قبل منعطف أحداث الثلاثاء الأمريكي الأسود)، وسوف نقتصر في هذا المقام على استعراض أهم ما جاء في موضوع الحجاب.

ـ قضية الفتيات المحجبات في فرنسا :

لعل تمرير عناوين المقاربات في وسائل الإعلام الفرنسية، يوجز فداحة الانزلاقات التي ميزت هذه المقاربات، وقد امتد الأمر إلى درجة الحديث عن "الحجاب الشبح الذي قد يهدد باندلاع حرب أهلية" في المجتمع الفرنسي، تقف من ورائها مجموعة من التنظيمات، بحسب ما يروق للمسئولين عن المجلتين (الإكسبرس ولونوفيل أوبسرفاتور) أن يستشهدوا به،

كأن نقرأ عن "الجماعات الموالية للسعودية" أو "التنظيمات الموالية لإيران"، "الحركات الشيعية"، "الزمر الأفغانية"، الشبكات الإيرانية"، "الجماعات المتطرفة"، "التجمعات الأصولية"، "المحرضون الموالون للسعودية أو الموالون لإيران"، "التأثير السعودي"، وغيرها من المسميات التي يتعمد من ورائها المحررون توريط بعض الدول الإسلامية.

برأي الكاتب، لم تقتصر مسألة التشويه والتحريض على الكتابات الصحافية، وإنما اتسمت بتدخل بعض المثقفين الفرنسيين البارزين في خطوة تبنتها لونوفيل أوبسرفاتور من خلال نشر أسماء خمسة من أبرز المثقفين الفرنسيين على الصفحة الأولى من أحد أعدادها، يطالبون في نداء بالذي وصف "بعدم الاستسلام" وذلك في رسالة مفتوحة موجهة إلى وزير التربية الوطنية ولم يخرج محتوى ما جاء في هذه الرسالة المفتوحة عما جاء في الخطوط العريضة للمتابعات الصحافية التي تعرضت لهذا الموضوع، كأن نقرأ في رسالة محسوبة على نخبة مثقفة كان من المفروض ألا تنزلق في مسلسل التحريض العبارات والمفردات التالية: "المتطرفين"، التفرقة"، "الحرية"، "حقوق الإنسان"، "المساواة بين الجنسين"، "المدرسة العلمانية"، "المتزمتين". دون نسيان المبرر الرئيسي وهو أن "الحجاب الإسلامي يمثل شعارا عند مؤسسة متزمتة تهدف إلى تدمير المدرسة الفرنسية، بكل ما تمثله هذه الأخيرة، فهي فضاء للعقل الذي أنجب سلمان رشدي، سبينوزا، رامبو، فولتير، بودلير".

"إن النضال ضد وجود الحجاب الإسلامي في المدارس يمثل مساهمة في المعركة العالمية ضد التزمت ومن أجل الرقي بمستوى المرأة"، كما تشير إحدى افتتاحيات جان دانيال رئيس تحرير مجلة (لونوفيل أوبسرفاتور). كما أن "ارتداء الحجاب هو التعبير التفاخري بهذا الوضع الرجعي الذي يمس المرأة، إنه رمز تقهقر وضعية المرأة (في الإسلام) ورمز التفرقة الجنسية ضد المرأة".

"هل أنتم مستعدون لملاقاة ومواجهة المتزمتين بذلك الحجاب؟" نموذج بسيط على الاستفسارات التحريضية التي نقرأها في المتابعتين، "وبما أنكم قرأتم القرآن ـ يضيف أحدهم ـ أبلغونا أين توجد الآيات التي لا تحرض على التفرقة ضد المرأة، في إشارة واضحة إلا أن القرآن الكريم لا يضم من أصل أي آية تنصف المرأة".إن الخطاب القرآني الذي جاء فيه مثلا "ولقد كرمنا بني آدم" لا يمكن إلا أن يكون منصفا للجنسين معا، الرجل والمرأة، كما أن التكريم الذي سوف تحظى به المرأة بعد قدوم الإسلام، سواء إذا قمنا بمقارنة أوضاع المرأة في الجزيرة العربية، قبل وبعد مجيء الإسلام، لهو أكبر دليل على التشريف الذي نالته المرأة وبالجملة، يرى المؤلف أن السائد في أغلب هذه المتابعات الإعلامية كان طغيان "رؤية اختزالية الآخر"

كما أشار إلى ذلك الصادق رابح، رؤية درامية تجعل من الإسلام يشكل عالما آخر قلما يشترك معنا أي مع الغرب، في قيم أو مميزات معينة والمشكل مع قضية الاختزال هذه أنها لا تمس الإسلام الفرنسي وحسب،

بل تمس مباشرة الإسلام، كدين وكحضارة، وذلك من خلال توظيف مجموعة من "المفردات الموجهة" تؤسس لهذا الاختزال، ونورد بعضا: الخميني، التطرف، التشدد، الجهاد، الحرب المقدسة، تعدد النساء، الإرهاب، النفط، إيران، الجزائر، الهجرة، إعادة الأسلمة، الضواحي.. ويتم استخدام هذه المفردات لإبعاد القارئ الغربي، أي الفرنسي، في هذا النموذج، عن أي احتكام للعقل، وهذا يسهم في تضييق المعنى وفي تسهيل إيصال تلك التصورات والأحكام ثم هناك إشارة ثانية في مسألة الاختزال، حيث تصبح بمثابة القاعدة، ومنبعا بين أيدي القارئ، الذي يعفي نفسه من التفكير وتأسيس رؤاه الخاصة به انطلاقا من قواعد معرفية موضوعية إن تحليل الخطاب الإعلامي المروج في هذه الفترة يوضح بلا أدنى شك، أننا أمام إستراتيجية مخطط لها تروج للهلع والخوف، من أجل تفعيل العديد من الصور النمطية اتجاه الإسلام.

هذه هي صورة الإسلام في وسائل الإعلام الفرنسية، صورة قاتمة وسوداوية، تقوم على اختزاله في مسلمين يتبنون التطرف والعنف والجهاد وتعدد الزوجات ونبذ العلمانية ورفض الاندماج ومن الشواهد الدالة على هذا الأمر أن المعهد الفرنسي للرأي العمومي قام، لأول مرة، في عام 1989، بمحاورة مجموعة من المسلمين ومن غير المسلمين، في المجتمع الفرنسي. وفيما أفاد الأوائل أن الإسلام عندهم رديف للسلم، والتقدم والتسامح، قرنه الثواني، على عكس ذلك، بالعنف، والعودة إلى الوراء، والتعصب. ثم أعيد تحيين ذلك الاستطلاع في عام 1994، فتبين أن هذا التفاوت الصارخ بين تينك الصورتين المتعارضتين، بدلا من أن يتضاءل، إذا هو يزداد فحشا. إن تينك الصورتين تندرجان في مجموعات من التمثلات، لا تزال على حدتها في علاقة الغرب بالآخر المسلم، وهي تمثلات تشكلت على المدى الطويل.

ـ صورة الإسلام بعد أحداث نيويورك :

كانت تفجيرات 11 أيلول (سبتمبر) 2001، مناسبة جديدة لأن تعبر العديد من وسائل الإعلام الغربية، سمعية بصرية أو مقروءة عن صورتها المبطنة اتجاه الإسلام والمسلمين، وذلك من خلال قراءة الصفحات الأولى من المجلات والجرائد الغربية أو من خلال قراءة محتوى الافتتاحيات والمقالات والمتابعات، سواء أكانت صحافية أو أكاديمية، حيث كانت صورة الإسلام والمسلمين في العديد من هذه المتابعات تخضع للتشويه والتحريف،

وكان الأمر الشاذ فيها هو أن نجد متابعات منصفة، قليلة جدا ونادرة مقارنة مع ما كان سائدا في هذه المتابعات، ونذكر من هذه المتابعات المنصفة ما كان ولا يزال ينشره الصحفي البريطاني روبرت فيسك في جريدة الأندبندت أو الباحث الفرنسي فرانسو بورغا، أو المفكر الإيطالي إمبرتو إيكو على سبيل المثال، وهناك أيضا بعض الباحثين الآخرين، لم يحظوا بنفس الاهتمام الذي حظي به العديد من المستشرقين والكتاب الغربيين، معروف عنهم إصدار تصريحات وتحاليل غير منصفة، في القضايا والملفات التي تهم العالم الإسلامي أو الوطن العربي.تفرعت أصناف تشويه صورة الإسلام والمسلمين، بين التصريحات الأكاديمية والسياسية والإعلامية، وإذا كانت الصور التي ترسخها وسائل الإعلام مشوهة بسبب سيطرة اللوبيات الإعلامية اليهودية عليها، أو بسبب تواجد عقليات عنصرية متطرفة استغلت أحداث نيويورك وواشنطن لكي تفرغ ذلك المكبوت من أجل تفعيل تشويه صورة الإسلام، فقد كانت هذه الأحداث فرصة لبعض السياسيين الغربيين، والدينين لكي تمرر خطاب العنصرية والاستعلاء، وهذا ما جاء في تصريحات الرئيس الأمريكي جورج بوش الإبن، والتي أثارت جدلا شديدا عندما استخدم عبارات مثل "الحروب الصليبية" التي أعادت للذاكرة ذكريات المواجهة بين الإسلام والمسيحية،

وقد أحسن صنعا الرئيس الأمريكي عندما تراجع عن تصريحاته، وكذلك حينما قام بزيارة مسجد واشنطن والاجتماع مع ممثلي المسلمين الأمريكيين، كما قررت الولايات المتحدة تغيير اسم حملتها للقضاء إلى بن لادن والتي أطلقت عليها "العدل اللانهائي" حتى لا تحرج مشاعر المسلمين.

صحيح أنه صدرت بعض المبررات في الصحف العربية تشير إلى أنه في الغرب، يبقى المعنى الحرفي لكلمة "Crusade" هو حملة صليبية عن العرب والمسلمين، لكن استخدامها اليوم في الدول الغربية الناطقة بالانجليزية لا علاقة له بأصل الكلمة، فهي تستخدم في وصف أي حملة شديدة مثل حملة مكافحة المخدرات أو تنظيف الشوارع أو حتى حملة لتحسين الوضع الشخصي ... إلخ، ولكن، يضيف المؤلف، ذلك لا يعفينا من التنبيه إلى خطورة صدور هذا التصريحات على لسان مسؤولين سياسيين كبار من أمثال الرئيس الأمريكي، أي أن هذه التصريحات قد تستغل في حال عدم التراجع عنها من أجل تمرير خطابات إعلامية وأكاديمية مليئة بالحقد والعنصرية، والإرهاب الفكري.

وقد وصلت أصوات الحقد إلى حد دعوة كاتب يهودي إلى قصف رموز الإسلام في السعودية، حيث جاء على لسان أحد الحاقدين قوله: "في مكة يوجد برجان طويلان، في شكل منارتين شامختين تحيطان بعلبة سوداء عريضة، يعبدها المؤمنون، ويتجهون إليها في حجهم المقدس.

وإلى هذا الشيء الرمزي يتجه كل المسلمين في صلواتهم: لا بد أن يعلم الجهاديون بشكل لا لبس فيه، سواء بالإعلان الصريح أو من خلال القنوات الخاصة، أن أي اعتداء قادم على هدف غربي سيكون الرد عليه ضربة عسكرية مباشرة ومدمرة ضد واحد من رموز الإسلام الأساسية، لا بد من إقناع المسلمين بشكل لا لبس فيه أن المسلمين لن يجدوا أي قبلة يتجهون إليها حينما يحنون ظهورهم لعبادة إله الخراب الذي يعبدونه".

ـ خلاصات صورة الإسلام في الإعلام الغربي :

من خلال تحليل نتائج أهم الدراسات التي أجريت حول تحليل المضمون لموقف وسائل الإعلام في أوروبا من قضايا الإسلام والمسلمين وكيفية تناول ومعالجة هذه القضايا الهامة والحساسة، يتوصل محمد بشاري إلى مجموعة من الخلاصات الهامة، لا بد من أن نأخذها بعين الاعتبار عندما نعالج سبل مواجهة هذا الواقع التضليلي البعيد عن الصورة الحقيقية التي يمثلها الدين الإسلامي السمح، وهذا على الرغم من ثقل ذلك العائق الذاتي الذي تجسده ممارسات بعض المسلمين قديما وحديثا والتي تمثل ذريعة عند اللوبيات الغربية، وفي مقدمتها اللوبيات الإعلامية اليهودية، من أجل ترسيخ هذه الصور المغلوطة، ويكفي صدور بعض الممارسات المخلة بالتعاليم الإسلامية عن هذا المسلم في الدول الأوروبية أو في العالم الإسلامي، حتى تستغل الآلة الإعلامية الغربية وتنخرط في مسلسل تكرار عرض هذه الصور.

وإجمالا، يمكن حصر أهم الصور النمطية التي يتم ترويجها عن الإسلام في مختلف وسائل الإعلام الأوروبية:

جاءت صورة الإسلام بصفة عامة في وسائل الإعلام الأوربية المختلفة، سواء الصحف أو المجلات والإذاعات والتلفزيون صورة سلبية وسيئة ومشوهة في الغالب، فالصورة كانت منفرة، ولقد وصف المسلمون بأوصاف بدائية وهمجية، إلا في القليل جدا من المعالجات الإعلامية، والتي تبقى غير ذات تأثير مقارنة مع السائد، إضافة إلى كونها مرتبطة بصاحب التغطية الذي يكون موضوعيا في كل ما يقدمه وليس بالنسبة للقضايا الإسلامية فقط.

كان هناك نزوع نحو ما يطلق عليه في لغة الإعلام "بشيطنة العدو"، والعدو هنا في العديد من الحالات يتمثل في الإسلام والمسلمين، ويقوم هذا المبدأ على التحويل المعنوي لهذا "العدو" إلى شيطان، أي شر مستطير ومتجسد، أو نزع الصفة الإنسانية عن العدو بحيث يستحق عقابا صارما يسمح للمضطهِد أن يمارس اضطهاده على المضطهَد، دون أن يكون مطالبا بتطبيق الشرائع ومواثيق حقوق الإنسان المعروفة في التعامل مع البشر.

ربط الإعلام الأوروبي بشكل كبير بين الإسلام كدين وبين ممارسات بعض الحركات الإسلامية المتشددة، وفي كثير من الأحيان لم يفرق هذا الإعلام بين المسلم المعتدل في ممارسته الدينية، وبين المسلمين المنتمين لجماعات إسلامية تختلف في أطروحاتها وفي حركيتها، ويتأرجح هذا الاختلاف ما بين الاعتدال والتشدد، وقد تم استغلال أحداث تورط فيها بعض الإسلاميين المتشددين من أجل إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام والمسلمين، ولقد اعترف العديد من الإعلاميين بوجود صورة خاطئة عن الإسلام والمسلمين في مختلف وسائل الإعلام الأوروبية.

استخدمت وسائل الإعلام الأوروبية عدة وسائل لإبراز الصورة السيئة للإسلام والمسلمين، من قبيل العناوين المثيرة والتي تبعث الخوف والقلق لدى الرأي العام الأوروبي، والتكرار والاجترار المستمر خاصة في أحداث العنف والربط بين الإسلام والإرهاب، والضرب على وتر المشاعر والأحاسيس الإنسانية باستخدام صور وعبارات مؤثرة نفسيا وموحية بالمعنى الذي تسعى هذه الوسائل إيصاله وباتخاذ الموقف الذي تطمح إليه، ثم التأثير على المتتبع مستغلة جهله بالإسلام واعتماده على ما تقدمه له من معلومات وأحكام جاهزة، ومستغلة كذلك المصلحة الشخصية والقومية بتصوير المسلمين والإسلام على أنهم يشكلون الخطر والعدو.

ركزت وسائل الإعلام الأوروبية على بعض الأفكار الحديثة في الجوانب الخاصة بالإسلام والمسلمين، مثل فكرة "صدام الحضارات" التي قدمها المفكر الأمريكي صامويل هنتنغتون، والترويج الإعلامي على أن الإسلام هو العدو البديل للشيوعية، إلى جانب قضية الأصولية والجماعات الإسلامية وإيديولوجياتها باعتبارها موضوعات مرتبطة بالإسلام والمسلمين.

لم تستطع احتجاجات قادة وزعماء الأقليات المسلمة في أوروبا على الخصوص، ردا على المعالجات الإعلامية الخاطئة للإسلام والمسلمين (والتي نتج عنها أحيانا تقديم اعتذارات رسمية من كبار المسئولينفي أجهزة الدول ببعض الدول الأوروبية) من إيقاف هذه الحملات الإعلامية المسمومة ضد الإسلام والمسلمين، لأنه لا يمكن التحكم في وسائل الإعلام، والتدخل في عملها، وفق القوانين المعمول بها هناك. إلا أن بعض التحسن قد طرأ على قليل من المعالجات الإعلامية في هذه القضية، كما بدأت بعض الوسائل تتجه نحو الموضوعية في عرض القضايا الإسلامية، نظرا للتدخل النوعي القادم من لدن الأقليات الإسلامية في بعض الدول الأوروبية.

وعموما، يمكن تلخيص أهم عناوين الصور المغلوطة عن الإسلام في النقاط التالية:

الإسلام دين العنف والإرهاب.

الإسلام يضطهد المرأة (وهنا يم التركيز كثيرا على قضية الولاية والزواج والعصمة والقوامة...).

المسلمين يعبدون إلها مختلفا.

الإسلام انتشر بالسيف.

المسلمين هم العرب.

الأمة الإسلامية هي جماعة المسلمين.

المسلمين يتزوجون بأربع نساء.

المسلمين أناس مختلفون بربريون.

محمدا (ه){والعياذ بالله} هو مخترع الإسلام وأن المسلمين يعبدونه.

الإسلام دين ضد السامية (من خلال تحريف الآيات القرآنية التي تتحدث عن قضية اليهود.

المسلمين لا يؤمنون بعيسى ؛.

الإسلام ضد حرية الاعتقاد.

لم تكن الفتوحات الإسلامية سوى توسعات استعمارية ذات طابع اقتصادي للحصول على الغنائم وفرض الجزية.

الإسلام يظلم المرأة في الميراث.

الإسلام دين وحشي في تطبيقه للحدود والعقوبات.

الإسلام ضد الديمقراطية وحقوق الإنسان.

الإسلام يحرم الفنون (الموسيقى ـ الرسم ـ النحت..)

ليس القرآن سوى تأليف بشري وليس وحيا ربانيا.

الإسلام يعادي الحضارات الأخرى.

الإسلام دين رجعي.

كان محمدا (ه) { والعياذ بالله } رجلا شهوانيا.

الإسلام ضد العمل، فهو بالتالي دين تواكلي.

الصيام يقلل حركة الإنتاج.

الزكاة تقلل من الأموال.

ـ سبل تصحيح صورة الإسلام :

في ضوء تأمل هذه الصورة القائمة حول الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية، أدرج محمد بشاري مجموعة من المقترحات والآليات الكفيلة بمجابهتها، من قبيل التأكيد على تأسيس معهد يقوم برصد صورة الإسلام في القنوات الإعلامية الغربية، أو التنسيق مع الهيئات والمنظمات الإسلامية المعنية ومنها مؤتمر وزراء الإعلام في الدول الإسلامية ورابطة العالم الإسلامي والمنظمة المؤتمر الإسلامي، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية وأيضا مع الأقليات الإسلامية في الدول الغربية (يمكن للأقليات المسلمة في العالم الغربي أن تؤدي دورا فاعلا في تصحيح صورة المسلمين في وسائل الإعلام

وذلك إذا تم التنسيق بينها ليس فقط فيما يتعلق بمواجهة التغطية السلبية للإسلام وإنما في تنفيذ الاستراتيجيات الإعلامية اللازمة باعتبار المسلمين في الدول الغربية هم الأكثر فهما لطبيعة الجمهور المستهدف وأساليب مخاطبته).

تركيز المؤلف على دور العمل المؤسساتي، لا يعفيه من توجيه بعض الانتقادات إلى تقاعس الأجهزة الدبلوماسية والمراكز الثقافية والبعثات التعليمية الإسلامية بخصوص اضطلاعا بالدور المنوط بها في هذا الصدد، والحال أن أخطر نتائج هذا التقاعس يبقى ترك الساحة خالية لتنفرد بها جماعات الضغط الصهيوني تقدم لها ما تشاء من رؤى وأفكار، كما يتم مثلا من خلال أعمال المؤسسة الهوليودية وغيرها كما يدعو المؤلف إلى تنشيط العلاقة بين المؤسسات البحثية الأكاديمية في العالم الإسلامي وبين الدوائر المناظرة في الغرب من خلال تبادل البحوث والأساتذة وطلاب الدراسات العليا والقيام ببحوث مشتركة تشتغل أساسا على مثل هذه الملفات، تكثيف الاتصال بوسائل الإعلام الغربية ومراكز البحوث والجامعات في الدول غير الإسلامية لتصويب ما يصدر عنها بشأن الإسلام والمسلمين، الاجتهاد في فتح أبواب الحوار مع مراكز التأثير في صناعة القرار والرأي العام في الدول الغربية وكذلك مراكز البحوث والدوائر الأكاديمية ووسائل الإعلام العالمية ويختتم ومحمد بشاري مؤلفه بالتأكيد على تأمل ما يصفه ب"التوصية الأم".

والتي تعلو من وجهة نظره على جميع ما سبق، وتقوم تحديدا على الاجتهاد في ترجمة هذه التوصيات إلى الواقع، وذلك من خلال تبني رؤى منهجية وإجرائية تقوم على إعطاء الأولوية لتوصيات معينة على باقي التوصيات في ما يتعلق بالتطبيق فلا يعقل أن تظل الفعاليات الإسلامية، ومعها تمثيليات الأقلية المسلمة في الدول الغربية تجتمع لدراسة أوضاع القضايا الإسلامية، ومنها، قضية صورة الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام الغربية، ثم تنتهي هذه الاجتماعات بإصدار التوصيات، والتي قد تتكرر في ملتقى آخر مع نفس المدعوين من أجل مناقشة نفس الموضوع، دون تحقيق أي تقدم في مجال تطبيق التوصيات السابقة.

من الانتقادات الهامة الواردة في خاتمة الكتاب إشارة المؤلف مثلا إلى ضرورة عدم مغالطة الذات عندما نأمل أو نطمح إلى أن تغيير هذه الصورة سوف يتم بمجرد الالتزام العربي والإسلامي بما جاء في هذه التوصيات، أو أن الغرب سوف يغير من تعامله مع هذه الصورة بين ليلة وضحاها، فالمسألة ليست بسيطة كما يأمل أي مسلم، لأنها مرتبطة في الأصل بخلفيات تاريخية قد تكون مرتبطة بتاريخ الحروب الصليبية، وقد تكون مرتبطة بأسباب عرقية أو دينية، أو سياسية، وهي التي يصطلح عليها بشيطنة العرب والمسلمين كما حصل في تاريخ المواجهات التي تمت بين خلال السنين الأخيرة،

ومنها على سبيل المثال حرب الخليج في عام 1991، وفي الفترة التي جاءت بعد الاعتداءات التي تعرضت لها الولايات المتحدة الأمريكية، وخاصة في فترة شن الحرب على أفغانستان والعراق، وغيرها من المواجهات والصراعات.

يحتاج المسلمون اليوم إلى بلورة خطاب إعلامي عصري نقدي وموضوعي، يغزو الأسواق الغربية، ويبتعد عن رتابة الخطاب الإعلامي العربي والإسلامي الموجود اليوم، ونحتاج خطابا يتجاوز الإطلاقات المتناقضة ويعلو على النزعة العاطفية ويؤسس رؤية معرفية إسلامية مستقلة وشاملة، ويرتكز على الانفتاح النقدي، وللأسف ما زلنا نفتقد كثيرا اليوم مثل هذا الخطاب. كما يحتاج المسلمون أيضا إلى خطاب إعلامي إسلامي يعلي من شأن الأمة كبديل عن الاهتمام بالدولة المركزية خاصة وأننا نعيش في فترة تتميز بحضور متصاعد لمفهوم "أمة المواطنة"، وهذا يتطلب أساسا من المسئولين والمشرفين على الخطاب الإسلامي أن يتبنون رؤية شاملة اتجاه العالم، ويؤمنون بسنة التدافع الحضاري، على أن يكونوا مدركين للبعد الحضاري للظواهر والأشياء المستحدثة، حتى يساهموا في التفعيل من أسلمة المعرفة الإنسانية.

الفصل الخامس

دور صورة الإسلام في تعزيز السلام الاجتماعي عند الإعلام الغربي

انتشر مفهوم الصورة الذهنية في الخمسينات وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية ليعبر عن منزلة أو هالة Aura الفرد أو البلد في الحياة العامة وقد برزت تأثيراتها وضروررياتها بشكل واضح للباحثين والدارسين، فقد أوضح أدورنو T.E.Adorno وغيره من باحثي مدرسة فرانكفورت النقدية عملية تكوين الشعوب لصور نمطية ، تلك العملية التي تبدأ بالانقسام الثنائي الإدراكي والتمييز بين "الذات" و "الآخر" إلا أن هذه الصور تتجلي خطورتها في إنها وسيلة إدراكية تساعد في تكوين موقف ويعتبر والتر ليبمان أول من استخدام مصطلح الصورة الذهنية النمطية Stereotype[1] وأوضح في كتابه "الرأي العام" أن الإنسان يري بذهنه القسم الأعظم من العالم الذي لا يستطيع أن يراه أبداً ذلك عبر الصورة التي يخططها لهذا العالم، وهو بالتدريج يصنع لنفسه وداخل ذهنه صورة يمكن الاعتماد عليها عن العالم الذي لا يستطيع الوصول اليه،

---

1 خضور، اديب– صورة العرب في الإعلام الغربي – دمشق 2002م – ص 10

لذلك أصبحت الصورة الذهنية إحدى أهم آليات صناعة الحقيقة والوهم في آن واحد وان هذه التنميطية حسب ليبمان تتضمن وسائل تنظيم الصور وإنطباعاتها الثابتة والمبسطة والمنتقاة، مما يستوجب إن تكون صياغات الصورة مستنده لوقائع غير ملتبسة حتى لا تفضي أحياناً لكوارث.

يفترض البحث إن بناء الصورة الذهنية الصحيحة تخلق التوازن المطلوب وتساعد علي تعزيز استحقاقات السلام الاجتماعي وبناء مفاصله، وتعمل الصور السالبة علي اعتمال أسباب الصراع، والصور المتعددةفي أبسط أشكالها الاستعلاء الحضاري وفي ذروتها الحرب والمواجهة.

الصورة الذهنية :

السلام الاجتماعي .

التمثيل الثقافي.

الاستعلاء الحضاري.

ثقافة السلام.

الصــورة الذهنــية الإطـــار المفاهيم.

يتطلب تعريف الصورة الذهنية الأخذ بالاعتبار الجوانب المتعددة من تفاعلاتها مع مجمل المعطيات الاجتماعية والسياسة والاقتصادية وانطلاق التعريف من هده الزاوية يساعد في رصد تأثيراتها الكبيرة والخطيرة وبالتالي دراسة عناصرها بشيء من الدقة وقد عرفتالصورة الذهنية علي أنها مجموعة من الأحكام والتصورات والانطباعات القديمة المتوارثة والجديدة المستحدثة والايجابية منها والسلبية التي يأخذها شخص أو مجتمع عن آخر ويستخدمها أساسا ومنطلقا لتقيمه لهذا الشخص ولتحديد موقفه وسلوكه إزاءه الصورة الذهنية شديدة الصلة بالموقف2 ، تتكون الصورة بفعل عوامل متعددة وتحمل في طياتها نزعة إلى التجرد تبعدها عن الواقع الملموس، وتحولها إلي قالب نمط يصادر الواقع ويشل التفكير وهي في أغلب الظروف عوالم افتراضية،

2 خضور – سابق– ص 10

وتقوم علي أساس التجربة المحدودة والأفكار البسيطة والعامة والثابتة والمشوهة والمتحيزة والمستخلصة من مصادر معرفية تاريخية وراهنة تتضمن وسائل الاتصال والتعليم المختلفة للتنشئة الاجتماعية كما تتكون هذه الصورة لدى الفرد والمجتمع من خلال عملية تراكمية تشبه عملية تشكل الشعب المرجانية

ونتاج اعتبارات وعوامل متعددة تاريخية واجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية قديمة وجديدة، كما قد تكون نتيجة لعمليات متعمدة ومقصودة بغرض إحداث التأثير في الآخر.

ويرى الباحث أن الإطار المفاهيمي للصورة يؤكد على أنها تراكمية وتنشأ في قصديه وتقوم على فلسفة الإحلال والإبدال .

خصـــائص الصــورة :

تُعرف الصورة بخصائص متعددة وكما أن للإنسان انطباعاته وصوره التي يُكونها عن الأشياء، فإن للمجتمعات والشعوب انطباعاتها وخلفياتها وذاكرتها، التي تكوِّن من خلالها صوراً عن الشعوب الأخرى وهذا العقل الجمعي بتصوراته المختلفة تربة لاستزراع الصورة الذهنية التي يكونها مجتمع ما عن مجتمع آخر هي نتاج أحداث وخلفيات وتراكمات عبر السنين،

وإن صور الأمم أي الصور التي تكونها أمة عن أخري لست حاصل توحيد أو تجميع لصورة الأمم التي يمثلها كل فرد من أفراد هذه الأمم عن امة أخري بل يتحول إلي سلوك هذه نحو تلك الأمم ولكن هذه الصور التي تتشطي في تفاعلاتها المختلفة وتتداعي مقولاتها وإحالاتها هنا وهناك يجب أن لا يُنظر إليها كأشياء تتسبب بنفسها، بل كأعراض لأسباب خارجية أخري بالرغم من أن الإنسان عموماً يسعي إلي التصنيف النمطي للأشخاص والأشياء من حوله ومقاربتها، ويمكن إجمالاً أن نشير إلي أن أهم خصائص الصورة الذهنية تتمثل في الآتي :

تحملُ الصورةُ الذهنية حكماً قيمياً وتعكس خياراً وتعبر عن إدراك لذا فدراسة مضمونها وعناصرها وخصائصها تُظهِر طبيعة الإرث الثقافي والبَعد الأيديولوجي.

الصورة الذهنية تجسيد لواقع فكري معين ولها القدرة علي تقنين الفكرة، وعندما تتشكل الصورة تصبح بحد ذاتها منطلقاً لعمليات فكرية جديدة تُضاف إلي الصورة وتبلورها وفق تفاعلاتها المختلفة والمتآلفة من سياقها.

توقظ الصورة عند تشكلها أو حين استدعائها مشاعر وأحاسيس معينة، وتدفع باتجاه سلوكيات معينة وتلعب دوراً حاسماً في التأثير علي التفاعل الاجتماعي للشعب.

عليه فان تكوين عناصر الصورة لدي الإنسان تجاه شخص أو شعب معين تنطلق من ثلاثة عناصر هي :

مجموعة الصفات المعرفية التي يستطيع أن يدرك بها ذلك الشخص أو الشعب بطريقة عقلانية.

العنصر العاطفي المتعلق بالميل لذلك الشخص أو الشعب أو النفور منه.

السلوك المتمثل يساعد في ترسيخ أو مقاومة الصورة السالبة كنموذج الصراع الفلسطيني/الإسرائيلي مثلاً.

أن الصورة بهذه الخصائص المؤثرة سلاح لا يمكن الوقوف معه أو ضدهإلا بتحرير العقل من كافة المؤثرات السالبة وإعلاء قيم المصداقية والشفافية في المجتمع والآخر.

تجــربة إنتاج الصــورة:

أن الأمم والشعوب إثناء الحراك والتفاعل والصراع بأشكاله المتعددة لاسيما الحرب عملت علي إنتاج صور ذهنية عن الآخر ولعل السياسيينفي أغلب الظن يقفون وراء إنتاج هذه الصور التي يعجزوا _ عند الفراغ من ضرورياتها وأهميتها واستنفاذ أغراضها_ عن معالجة شروخها ومرارات رسوخها بشكل من الأشكال أما الصور الذهنية الإيجابية فهي تعمل علي تعزيز الهوية والباحث في تجربة إنتاج الصور يشير إلي تجربتين هي سقوط الأندلس وما ترتب عليه من بناء صور ذهنية عن المسلمين

وكذلك الثورة المهدية وما لحق بها من بناء صور أخذت قالب نمطي وآجالي إلي شكل أيدلوجي في الصراع بين أطراف النزاع آنذاك.

النموذج الأول: لعبت الصورة الذهنية ثنائية الفقد/الاستعادة في ضم وسقوط الأندلس هو الاسم الذي أطلقه المسلمون على شبه جزيرة أيبيريا عام 711م بعد أن دخلها المسلمون بقيادة طارق بن زياد وضمّوها للخلافة الأموية بعد الانتصار في معركة جواداليتي في 19 يوليو711م واستمر وجود المسلمين فيها حتى سقوط مملكة غرناطة عام 1492م ، وتعتبر المحطة المهمة في التعاطي مع مفهوم الصورة الذهنية، ونجد المؤرخون الغربيون اعتبروا الأندلس ثنائية النصر والهزيمة بوصفهما مرحلتين متباينتين، توالتا في أزمنة متلاحقة، وهي رؤية تقرأ التاريخ قراءة خطية، تدعم فكرة التقدم المقرونة بالغرب، والتأخر الذي لحق بالشرق

وتترتب علي هذه القراءة "الكولونيالية" للتاريخ ظهور "كولونيالية" معكوسة في الشرق صنعت من تاريخ الأندلس أسطورة تتجلي لنا فيها الأسطورة بوصفها شفرة مزدوجة الدلالة فمواقع النصر تنطوي علي هزائم مستترة، فأسطورة الأندلس تنطوي علي ثنائية الفقد/الاستعادة فهي تجمع الدال ونقيضه، فالشرقيون يرثونها والغربيون يبتهلون لاستعادتها3،

وهنا لعبت الصورة الذهنية دورها الخطير في تحويل الصراعلصوره استدعاءها الرئيس بوش _ قبل التراجع من ذلك_ في أحداث 11 سبتمبر"الحرب الصليبية" بما فيها من دلالة حسية ومعنوية وهذا الاستدعاء كفيل بتدابير متعددة.

النموذج الثاني: أما في النموذج الثاني فنجد أن الصورة الذهنية لعبت دوراً كبيراً في التعاطي معه هو الثورة المهدية التي انطلقت لمعطيات تتعلق بمظالم اجتماعية واجتزاز لهوية شعب إلا أن صورة "الدراويش" التي عمل الاستعمار البريطاني علي ترسيخها قبل وبعد سقوطها كان واضحاً، يصف ونستونتشرشل الثورة المهدية في كتابه "حرب النهر"

---

3 تريز - ماري – التمثيل الثقافي – القاهرة 2002م – ص 47

"كانت فضيلة إمبراطورية الدراويش هي الشجاعة، وهى صفة تنال الإعجاب وإن لم تكن نادرة، جاءت الثورة بالحرب، عاشت بالحرب وانتهت بالحرب" وهي الصورة التي احتشد لها الاستعمار آنذاك لخلق صورة ذهنية شاءه عن الثورة ،

واتخذت عدة أشكال وأنماط وقوالب بل وقد تلاحظ دخول وسائل ذات تأثير خطير كالسينما، أن الاحتشاد الكثيف للاستعمار تجاه الثورة المهدية يؤكده اهتزاز سياساتها وعجز الخديوية في مقاومتها بالرغم ان في حوالي اثني عشر عام تعاقب أربعة حكمدارية في السودان4 وتضاربت المواقف وعمل المستعمر على أن تكون الصورة الذهنية هي الحالة التي يحيط بها الثورة المهدية متخذا أقصى درجات التزييف في الحقائق وقولبتها .

إن اتجاه قراءة المشكل السوداني من زاوية الصورة الذهنية يشكل خطر كبير لابد من تداركه باعتبار أن جل القضايا التي لعبت الصورة السالبة فيها دورا كرس علي المدى البعيد لقطيعة وثقوب في بناءها الاجتماعي لقدرتها علي التغلغل الذي اشرنا إليه في الإطار المفاهيمي،

---

4 مالك - محمد محجوب – المقاومة الداخلية لحركة المهدية – بيروت 1987م – ص 24

إن الصورة السالبة للسودان/الأنا والغرب/الآخر وصورة السودان/الآنا والآنا بمعني صورة المجتمعات السودانية لبعضها البعض بحاجة إلي إخضاعها إلي معايير منظومة السلام الاجتماعي وفلسفة ثقافة السلام التي تقوم علي مكنزمات تحققه وفاعليته ، أن العمل علي إعادة إنتاج صورة ذهنية وفقاً لمعطيات متجذره وليست متوهمه، حيثيات واقعية وليست مبتكره، وعناصر حقيقة وليست وهمية لهو الحل الذي ننشده.

وسـائل تشكـيل الصــورة الذهنــية:

إن الصورة الفنية المكتملة العناصر يمكن أن تكون صورة أحالية إلي الصورة الذهنية وهذا هو حقل للمقاربات بين الصورتين، إذا كانت الصورة الفنية هي تركيب دائماً أي فكرة _ مادة_ فعل بوصفها شكلاً وبنية وعي فان العلاقة حتمية وقطعية أحياناً، وأن كنا نعني بكلمة الصورة ذلك الكل الفني المتكمل، سوء ان تكون استعارة أو ملحمة كـ "الحرب والسلام" مثلا. فالعلاقة بين مختلف جوانب الصورة أي بين الحسي والعقلي بين المعرفي والإبداعي إنما تعكس علي نحو دقيق ومباشر نمط العلاقات بين الفرد والمجتمع في كل عصر إذ تقوم الصورة علي اساس وجود صلة وتشابه

فاللون الأحمر يذكر الإنسان القديم بالدم وينبئه بفتن وحروب في المجتمع البشري، لذلك فالأثر الفني هو إعادة خلق لحظة في الإدراك لدي المتلقي5 Capture of the moment وعليه يبدو أكثر صواباً أن نرد جمال الشكل إلي التعبير كما يقول جورج سانتيانا، فجمال المادة الشكل يتضمن تحويل لذات معينة إلي موضوعات خارجية، لذات تتعلق بعملية الإدراك الحسي المباشر6 لذلك يري الباحث أن الصورة الفنية يمكنها أن تكون أهم أدوات بناء الصورة الذهنية لاعتبار اللحمة التي تحدث المقاربة التي اشرنا إليها.

هذا التقارب يجعل من وسائل الإعلام الجماهيري احدي مكنزمات صناعة الصورة الذهنية، وتشمل وسائل الاتصال الجماهيرية المسرح والسينما والتلفزيون والراديو وتعد لغة الصورة المتحركة التي تلاقي في الآونة الأخيرة اهتماماً متزايداً في الأوساط العلمية والبحثية لتأثيرها الخاص علي نتائج وبحوث تمس ميادين وعلوماً إنسانية كالاجتماع والتاريخ والاتصال والنفس والانثروبولوجيا والأدب مما يجعل الصورة أداة الفكر وأداة التعبير الواقع المادي المحسوس وتعتبر لغة الصورة الفيلمية كسياق معرفي واجتماعي وتكنولوجي يرتبط بنية اجتماعية وفكرية .

---

5 غاتشف، غيورغي– الوعي والفن – عالم المعرفة الكويت 1900م – ص 11
6 سانتيانا - جورج – الاحساس بالجمال – القاهرة 2002م – ص 131

بنية الصـــورة والســلام الاجتماعي :

إن مفهوم السلام الاجتماعي Social Peace يشمل في جوانبه المتعددة تعزيز السلام الذي لا يعني غياب الخلافات أو النزاعات فحسب، بل هو مفهوم يتصل بنشاط إيجابي ويرتبط بأوجه الحياة المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والسياسة بما يحقق العدالة في التعاطي مع الآخر، وبما يكفل احترام الاختلافات وتشجيع الحوار وتحويل النزاعات بصفة مستمرة بفضل وسائل السلم إلى سبل جديدة للتعامل تتشكل وفق آليات السلام الاجتماعي الذي هو مظهر حضاري وسلوك متقدم يحتاج إلي جهد كبير لتحقيقه ، ويري الباحث إن معالجة مشكل الاستعلاء الحضاري وتحقيق التمثيل الثقافي الجديد لمكنونات التاريخ وإشاعة مفاهيم ثقافة السلام وتجذرها هي صياغات الحل التي تحقق التوازن والسلام الاجتماعي .

الاستعلاء الحضاري

أدخل وليم جراهام سمنر، عالم الاجتماع الأمريكي مصطلح الاستعلاء الحضاري عام 1906م، عرّفه على أنه النظر إلى جماعة ما على أنها مركز كل شيء، و يوصف الاستعلاء العرقي بأنه اعتقاد إنسان بأن أمته أو الجنس الذي ينتمي إليه الأحسن ويشير إلى الاعتقاد بأن جماعة الفرد هي الأفضل بين كل الجماعات،

ولا شك أن هذا الاستعلاء يعد عاملاً هاماً في نشأة الصراعات العرقية والتعصبية والتي قد تصل في أحيان كثيرة إلى حد المذابح والإبادة والتمرد والثورة والإرهاب والحروب وتستتر تحت عباءته مكنزمات أهمها الصورة الذهنية السالبة عن الآخر التي تؤدي إلي الاحتدام.

إن تجسيد وهم مركزية الذات المتعالية في عملية إعادة كتابة التاريخ الغربي باعتباره نتاج مميزات الرجل الأبيض وأعادت كتابة تاريخ اليونان بوصفها الأصل المعرفي والثقافي والحضاري لهذا الرجل، بالإضافة لنزعة الاستعلاء العرقي لدى الكتّاب الأميركيين أثر عميقاً على رؤيتهم للشعوب المسلمة التي احتكوا بها وهذا الاستعلاء يتجلي في خلق صورة للآخر باعتبارها من المكنزمات المستحدثة ، وتبرز أوجه الاستعلاء وتجلياته في أشكال مختلفة من بينها الاتجاه الديني "شعب الله المختار" والاتجاه العرقي"النازية والآرية" ، أحياناً تسعي بعض الأمم في استقطابها في الجوانب الاقتصادية مثلا لتكريس صورة الشمال المنتج والجنوب المستهلك وتتوسا لإنتاج صهذه الصور بشتي السبل.

إلا انه تاريخيا يعد الاستعمار احد اكبر منتجي هذه الصور بدون الاطلاع على تركيبة المجتمع ومرجعياتها التاريخية والمؤسساتية (التقاليد. العادات الاجتماعية. المنظومات السيميائية. القيم الفلكورية) وبالتالي التعامل العادل مع هذه المعطيات دونما تشويه.

التمثـــيل الثقـــافي

يقول المفكر مالك بن نبي: نستطيع أن نقرر أن شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده ويبدو ذلكويتجذر بالتمثيل الثقافي لتاريخ هذه الأمم حتى يحقق الديمومة، أن الصورة الدهنية الايجابية كصفة الكرم مثلا عند المجتمع الشرقي تحتاج إلي تمثيلها ثقافياً في واقع اليوم المعيش حتى تتجلي كسياق تعزيزي لمكنونات التاريخ، باعتبار أن التمثيل الثقافي يتيح للمبدع والمتلقي تجاوز التاريخ بمعناه الضيق _ أي التاريخ الذي تفرضه المسلمات والمطلقات _ وتفكيكها وذلك لإعادة تشكيل عناصر الحياة وفق منظور إيجابي يتسق مع مطلوبات العصر وروحه ، ففي الوقت الراهن تصاعد الاهتمام بالتمثيل الثقافي لاحتدام الجدل حول الهوية والاختلاف في الدراسات الإنسانية بل أن هنالك حاجة إلي منهج يقارب التشكيلات الثقافية المتنوعة فالتمثيل الثقافي يعني مجموعة علاقات تبادلية، كما ينضوي علي مفهوم "إعادة الحضرنة" وتغدو قراءة التمثيل محاولة لإيجاد دوراً في نص الحياة وهو يتسق مع دور الفنون والنظريات النقدية إذ هو استكشاف الفجوة بين التمثيل والمسئولية لتوظيفها[7] إن التمثيل الثقافي احد أهم مكنزمات البقاء وخطوة في تحريك ساكن التاريخ لراهن يبدع علي خلفيته.

---

7 تريز - سابق – ص 41

ثقـــافة السـلام

أدركت الأمم المتحدة في دورتها الثانية والخمسون عام 1997م أهمية ثقافة السلام حيث أكدت انه يتطلب عملاً تربويّاً وتثقيفيّا واجتماعيّا ومدنياً شاملاً، كما أنه إستراتيجية عالمية متفتحة الذهن ويتوخى هدفًا محددًا، وان ثقافة السلام لا تنفصم عن الثقافة بذاتها إذ أن لكل ثقافة قيمة تشكل جزءاً من تراث الإنسانية المشترك ، وعليه فان تعزيز مفهوم ثقافة السلام هو الضمانة لتعافي المجتمع من إدراك إعطاب وشروخ التصدع الاجتماعي، وشيوع ثقافة السلام في المجتمع يحتاج تضافر جهود متعددة تساعد تعزيز السلوك الداعي للسلام وتشذيب السلوكيات العدائية والتي تثير قدر من الجفوة داخل المجتمع الواحد لتتناغم مفاصله .

اتجاهات إنـتاج الصـــورة وحقل التجـــريب:

عمد الاستعمار – كما اشرنا - علي تشكيل صورة مسببة لحاجته لمبررات للفعل الغير أخلاقي وتفاعل السؤال الإنساني العصي وحضوره ، أن دول الاستعمار عمدت علي إنتاج صور سالبة عن الشعوب التي خضعت لحكمها وتمرير المشروع الاستعماري في جوانبه المتعددة من استنزاف الموارد ونهب الخيرات والتصدع الاجتماعي لسياسة فرق تسد

وأصبح هذا الواقع المؤلم قناعات ومسوغات لمشروعه وليس ينجو شعب من الاستعمار وأجناده، إلا إذا نجت نفسه من أن تتسع لدل مستعمر، وتخلصت من تلك الروح التي تؤهله للاستعمار ما يسمي بالقابلية للاستعمار8 كما يقول المفكر مالك بن نبي، ويري كذلك أن الاستعمار من الوجهة التاريخية نكسه في التاريخ الإنساني لذلك زور الكتاب الغربيون التاريخ بتسويق فكرة نقل الحضارة ومساعدة الشعوب في تحقيق أمالها وطموحاتها وغيرها من مبررات ، واعتمدت على إنتاج وخلق صورة سالبة عن الشعوب بمعطيات الكذب والتلفيق وهي وسائل لا أخلاقية ونجد ألان اتجاهين لإنتاج الصورة الذهنية :

أحادية تدفق المعلومات والذي أدى بدوره إلى توفر القسط الأكبر المساعد لتشكيل هذه الصورة التي يريدها الآخر عنا وهذا الاتجاه عملت على تغذيته وسائل الإعلام الجماهيرية بتأثير رسالتها

---

8 بن نبي - مالك – شروط النهضة – لبنان 1979م – ص 59

واستتار المعاني السالبة وتضمينها في داخل المادة المبثوثة مستعينة بالدور الكبير الذي لعبته التكنولوجيا في تقريب المسافات بين أطراف العالم .

الاتجاه الآخر عمل على استدعاء الصور الذهنية التي تم إنتاجها في فترات تاريخية سابقة

وعمل مقاربات بينها وبين مواقف راهنة كما رأينا في استدعاء الرئيس بوش لصورة (الحرب الصليبية).

الإشكالات الفكــرية وبناء القـيم في صــورة الـيوم

تحدثنا الأوطر المفاهيمية التي اشرنا إليها عن تغلل الصورة في بنية الوعي ومخاطبته بل تكوين اتجاهاته الفكرية الاجتماعية والثقافية ، ولكن تبقي الصورة في حالة السكون حتى يتم استدعاءها وهو استدعاء للحظة التاريخية والحالة المنتجة للصورة نفسها ، لذلك فان ضعف المعطيات ساعد في إنتاج صور سالبة عن المجتمعات وإطلاق أوصاف ودلالات تعمل علي تنميط صور عن هذه الشعوب فبين الفقر والجهل والتخلف الحضاري والإرهاب تتحرك الصور عن الآخر وظلت الوسائل المتعددة لبناء هذه الصور تساعد علي تمرير مشروعات كبري سياسة واقتصادية علي نحو يسير

وتدفق متعدد غير متكافئ من الناحية الأخرى للمعلومات المعصوبة جوانبها ومغطاءة من نصفها المشرق ، كذلك فان جملة من الإشكالات تؤثر في بناء قيم للصورة كالاعتراف والمصداقية والشفافية وعليه يرى الباحث مما سبق أن الصورة الذهنية شديد التأثير وبالتالي تساهم بشكل ايجابي وتساعد في خلق سلام اجتماعي إذا ما روعيت الجوانب الفكرية والأخلاقية في صياغتها .

المصداقية : أن ممارسة التزييف يلحق الضرر الكبير بالحقائق ويضيع الوقت في عملية النفي والإثبات اللتان يستقران الجهد ويحدثان شروخاً كثيفة لدي الأطراف المتضررة، عليه أن تواضع الناس علي الاعتراف بالآخر .

الشفافية : وهي من المبادئ التي تتسق مع استحقاقات السلام الاجتماعي وتعمل علي تعزيزه.

الفصل السادس

دور الإعلام العربي في مواجهة الإعلام الغربي

يعد الإعلام اليوم علماً له قواعده وأصوله ، والممارسة العملية لم تعد كافية للتقدم في المسيرة الإعلامية من صحافة مكتوبة ومرئية ومسموعة وسينما وإعلان ودعاية ...أن معظم دول العالم قد إنشاءات معاهداً ومراكز جامعية للتخصص في دراسة علوم الإعلام وفنونه.

وإذا قرءنا في تاريخ الإعلام وتطور وسائله وأساليبه سنفهم لما وصف هذا العصر بعصر المعلومات والمعلوماتية ويمكننا القول أن الأقوياء هم الذين يمتلكون الإعلام ويسيطرون على قنوات الاتصال التي ينتقل الإعلام من خلالها إلى الجماهير الواسعة وتتأثر به ويؤثر بها.

ومن أهم العلوم الإعلامية فن التأثير على الرأي العام الذي يقوم على دراسة التأثير المباشر والغير مباشر للدعاية السياسية أو الإعلانيةأو الإعلامية على الفرد وكيف يتفاعل معها ويتأثر ويؤثر عليها .

فالإعلام بجميع فنونه ووسائله الاتصالية فعالية يتأثر بها الجماهير فيعبئ الرأي العام ، وخصوصاً الدعاية السياسية ، أن يقرب البعيد ويبعد الدولة الصديقة ويحدث انقلاب في قارة أخرى.

وقد حرصت الحركة الصهيونية التي وجدت منذ منتصف القرن التاسع عشر السيطرة على الإعلام الدولي الأوروبي والأمريكي لكي تبث دعوتها الصهيونية وتهيئ الرأي العام ليتأقلم مع أهدافها المستقبلية ويتعاطف معها عندما تحتل أرض فلسطين معتبرة أن هذه الأرض هي "أرض الميعاد" المذكورة في التلمود وفي العهد القديم وهي حق مكتسب لها.

وفي هذا المجال لم تتوقف الصهيونية عند احتلال الأراضي العربية بل سعت بكافة وسائلها الإعلامية الداخلية والدولية إلى بث دعوة الكراهية ضد العرب والمسلمين وبدأت الحملة التشويهية لصورة العرب وذلك منذ وجود الانتداب الإنكليزي ، الذي كان لها الحليف المناصر . وبعد الحرب العالمية الثانية وانهيار الحركة النازية المعادية لليهود والحركة الفاشية وظهور الرأسمالية والشيوعية ، عملت الصهيونية على تثبيت أقدامها في الشرق الأوسط باحتلالها فلسطين وبمساعدة المحتل الإنكليزي سنة 1948.

إستراتيجية الإعلام العربي

إن التحديات التي تواجهها المجتمعات العربية راهنا، وهي تخطو خطواتها وبدرجات متفاوتة في مسيرتها التحديثية، تستدعي تفعيل دور الأعلام العربي لينهض بدوره التثقيفي والتنويري ويُسْنِدَ عمليات الإصلاح التي لا معنى لها بدون سند ثقافي وفكري جادّ ورصين .

ولقد اهتمت مراكز الدراسات السياسية والإستراتيجية بوضع عناصر لإستراتيجية عربية لتفعيل دور الأعلام من أجل بناء واقع عربي جديد .

أن وضع مثل هذه الإستراتيجية يتطلب دراسة التغيّرات الكبرى التي حدثت في بنية المجتمع العالمي من ناحية، ودراسة الواقع الراهن للمجتمع العربي من ناحية ثانية .

ومن ابرز التغيّرات التي حدثت في بنية المجتمع العالمي من وجهة النظر الحضارية هي عملية الانتقال من نموذج المجتمع الصناعي إلى نموذج مجتمع المعلومات العالمي، الذي ينتقل ببطء، وان كان بثبات، إلى مجتمع المعرفة والذي في إطاره تتشكل أنْساقٌ فكرية وثقافية وقيمية جديدة لن يكون العربي بمنأى عنها وعن تأثيراتها .

وهنالك جملة عناصر للإستراتيجية الإعلامية العربية المقترحة والمتمثلة أوّلا في رسم خرائط معرفية للاتجاهات الإيديولوجية في الوطن العربي. ولعلّ أهمية هذه الخرائط، إنها ستساعد على معرفة الواقع العربي الذي نريد تغييره، وكذلك من شأن هذه الخرائط أن تقضي على التعميمات الجارفة عن العرب والمسلمين التي تصوغها الدوائر الغربية السياسية والثقافية والإعلامية .

إما العنصر الثاني فيتركز علي الإستراتيجية العربية لتفعيل دور الإعلام من خلال تبنّي موقف رشيد من ثلاثية الماضي والحاضر والمستقبل ثم حصر مشكلات التواصل الثقافي مع الغرب، ومن ضمن هذه المشكلات العلاقة بين الإسلام والغرب، ومشكلة الإرهاب، وقضية الهجرة إلى أوروبا وقضية اندماج المهاجرين في المجتمعات الأوروبية، ثم التمييز بين المقاومة المشروعة للاحتلال الأجنبي والإرهاب وتنامي العنصرية الجديدة في أوروبا .

دور الأعلام العربي في دعم قضية فلسطين:

تحددت وظيفة الأعلام العربي بشأن تطورات القضية الفلسطينية من خلال بيان الأقصي الذي أصدره مجلس وزراء الأعلام العرب في اجتماعه الطارئ في 2000/11/25م في القاهرة والذي تضمن وضع إستراتيجية عربية إعلامية لمواجهة الدعاية الصهيونية خاصة في عدد من الدول الغربية وأمريكا.

وقد تمخض عن الاجتماع توصية بدعم قناة فلسطين الفضائية ودعوة وسائل الأعلام والقنوات الفضائية العربية لإنتاج برامج باللغات الأجنبية لدعم قضية الشعب العربي الفلسطيني.

ومنذ انطلاقة انتفاضة الأقصي كان للأعلام العربي دور مهم وأساسي في تغطية أحداث الانتفاضة وقد ابتعدت التغطية عن الأسلوب التقليدي في تغطية الأحداث حيث تميزت بحرية تامة في نقل الرسائل الإعلامية والأحداث بصورة عامة. وقد قامت وسائل الأعلام العربية المرئية والمسموعة والمقروءة بكشف كل الممارسات العدوانية التي تقوم بها القوات الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني.

إن نقل الأحداث التي تتم بواسطة الفضائيات العربية قد أدي إلى تغير كبير في نقل الواقع الحقيقي للمشاهد العربي فيما يتعلق بفلسطين والعراق .

وقد اجمع المختصين الإعلاميين علي الدور الكبير الذي لعبه الإعلام العربي في قضية فلسطين خاصة الفضائيات العربية التي قامت بتغيطة شاملة للهجمة الإسرائيلية علي الشعب الفلسطيني حيث أوصلت صوت فلسطين وصورتها من خلال المشاهد المتلفزة لجيش الاحتلال وهو يسحق الأطفال والنساء إلى كل فرد من الأمة العربية من المحيط إلى الخليج مما أدي إلى خروج أبناء الأمة بمئات الآلاف في مظاهرات ضد الاحتلال الأسرائيل.

ولأول مرة في تاريخ الأعلام العربي تحولت الفضائيات العربية التي تفوق الخمسين قناة إلى مرجعية للأعلام العالمي بعد ما كان يحدث العكس وذلك بفضل النقل المباشر والمتواصل والدقيق لأحداث الانتفاضة الفلسطينية ولامتلاكها كوادر إعلامية قوية مما زاد من مصداقيتها.

وبصفة خاصة فقد لعبت الفضائيات العربية وشبكات الانترنت دور كبير في التأثير علي الرأي العام العربي عن طريق نقلها وبشكل حي ومتواصل أعمال القمع التي تمارسها إسرائيل ضد الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة وساعدت المشاهدات المبثوثة علي شاشات التلفزيون والانترنت علي تصعيد المظاهرات الضخمة علي امتداد العالم العربي.

الإعلام الصهيوني وتأثيره علي العقل الغربي

لا شك إن تأثير الإعلام الصهيوني كبير علي العقل الغربي وهناك التقاء في المصالح بين الجانبين والمصلحة الكبرى لهم في ما يبدو تتمثل في تركيع العالم العربي والسيطرة علي موارده واستنزافها لصالح دول الغرب خاصة أنها لن تشعر بأن مصالحها مع العالم العربي لم تتأثر في كثيرأو قليل نتيجة مواقفها المنحازة وتأييدها المطلق لإسرائيل وسياستها واعتداءاتها الوحشية علي الشعب الفلسطيني .

ويحاول الأعلام الصهيوني طمس تأثير الإعلام العربي من خلال نقله لحقيقة ما يجري في الأراضي المحتلة بلغة يفهمها المواطن الغربي، لذلك فلا بد إن يتحرك الإعلام العربي سالكا كل السبل المتاحة لتعزيز قدراته في توصيل الرسالة الإعلامية للرأي العالمي والتأثير فيه .

حملة الإعلام الغربي على العرب والمسلمين :

منذ اختراع التلفزيون والسينما وتطور الوسائل البصرية ، بدأ يتبلور نوع من الصراع بين ثقافتين متباينتين : ثقافة الكلمة وثقافة الصورة ، إلا أن وقع الصورة أقوى من وقع الكلمات رغم أن وسائل الإعلام والتواصل الحديثة تحاول الجمع بين الثقافتين أو تطعيم ثقافة الصورة بلقاحات من ثقافة الكلمة . فالصورة هي الغاية والمنتهى ، وهي البديل عن العالم أو قائم قام العالم العيني ، بل أن الصورة توهمنا أنها هي الواقع العيني ذاته .

لقد كانت الكلمات أداة تعبئة وحفز ، ولكن التلفزيون اليوم هو المحرض الأكبر إما على الثورة (مثال رومانيا) أو على الاستهلاك والمتعة ، أو الأداة الكبرى للتخدير السياسي في كل بقاع العالم .

فوسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية تتزاوج فيها الكلمة والصورة إعطاء صورة معينة عن حالة ما تنطبع في ذهن الآخر . فنحن نعيش اليوم ثورة في التكنولوجية المعلوماتية وبوسائل الاتصال والتواصل مما يدفع بالدول المتقدمة الغربية باستغلال هذه الثورة المعلوماتية لشن الحروب المعرفية على دول العالم الثالث الغنية بالثروات الطبيعية وخاصةً الدول العربية والإسلامية وتحاول أن تكون أمام الرأي العام الخارجي صور نمطية عن العرب والمسلمين تكون في معظم أوقاتها مغالطة للواقع .

ومن أهم الأساليب التي اتبعها الإعلام الغربي عامة والأمير كي خاصةً، وذلك لكسب الرأي العام ، كان أسلوب التضليل الإعلامي ومن الأمثلة الكثيرة مثال حجب الأسباب الحقيقية لحرب الخليج عن الرأي العام . ومن الأساليب التضليلية التي أتبعتها الإدارة الأمير كية لتبرير نقل ما يقارب النصف مليون جندي على بعد عشرات آلاف الكيلومترات من دولهم ، قامت الوسائل الإعلامية بتسوية صورة الرئيس صدام حسين وإثارة المخاوف من ازدياد قوته ومن ثم دغدغة عواطف الأمير كيين بالأمور التي يعتز بها ويحافظ عليها ، ويعمل لأجلها كل أمير كيي وهي الحرية والعدالة والنظام العالمي . ولقد نجحت وسائل الإعلام الأمير كية بتعبئة الرأي العام ضد نظام الرئيس العراقي الذي وصفته بهتلر الغرب ، الشيطان الصغير والمخرب الأعظم .

وكان من الواضح أن الإدارة الأمير كية وبواسطة إعلامها المكثف أظهرت أن الأسباب الرئيسية للحرب هي الانتصار للحرية والديمقراطية والتخلص من القيادة النازية أو ما شابه ذلك ، والتي يمكن أن تدمر العالم لو تعاظمت قوتها .

يعتقدون الأمريكيون أن الفرد الأمريكي هو الأقوى على الإطراق وأقدرهم على مواجهة الصعوبات والتغلب عليها . وذلك نتيجة الصورة التي خلفتها الوسائل الإعلامية في ذهن الأميريكي من خلال سيل من البرامج وهي :" الرجل المتفوق" " المرأة لمتفوقة " وغيرهم

... وفي هذه الأفلام يقوم الأمريكي في مواجهة أعنف المعارك ودائماً يخرج منتصراً بأقل قدر ممكن من الخسائر ومن الأساليب التي اتبعها الإعلام الغربي لكسب الرأي العام، وتبعه في ذلك قسم من الإعلام العربي ، إخفاء بعض الحقائق والتركيز على وجه واحد للقضية بدل مناقشة وجهتي النظر المتعلقتان بها.

وهكذا تبدو الصورة الشائعة عن العربي في الصحافة الغربية ضمن دراسة نشرها "مركز دراسات الوحدة العربية" بعنوان :" صورة العرب في الصحافة البريطانية". صورة تصف العربي على أنه مخلوق يتصف "بالأنانية" و "لا يعول عليه" . وصورة العربي في التلفزيون والسينما لا تقل عن صورته في الصحافة بشاعة إذ يبدو متعطشا إلى الانتقام ، قاسياً ، منحطاً ، مهووسا ، يبتز الأمم المتحضرة بواسطة النفط

ونجد سعياً متزايداً ومتصاعداً إلى ترسيخ صورة "العربي البشع" في العقل الجماعي والثقافي الشعبية في البلدان الغربية . وهذه لا تطال المواطنين العرب في الدول التي صادقت الإتحاد السوفيتي السابق ، بل انه تطال الجميع بدون استثناء ، سواء كانوا رعايا دول مناهضة للغرب أو حليفة وصديقة له ولقد ظهرت هذه الحقيقة في أعقاب حادث تفجير مركز التجارة العالمي ، إذ خلقت التعليقات في الإعلام الأمير كي بعبارات وتأويلات تحرض على العرب وعلى المسلمين وتؤجج المخاوف من " الإرهاب العربي " ومن " الخطر الإسلامي ."

وتلقى القضايا المتعلقة بالإسلام والمسلمين اهتماما واسعاً على صفحات المجلات والصحف الأمير كية ، كما تستأثر بالاهتمام في قاعات الكونغرس حيث يثار الجدل حول تلك القضية ويصعب على القادة السياسيين أن يميزوا المصلحة الوطنية على المصلحة الفئوية .

أساليب الإعلام الإسرائيلي في تشويه صورة العرب أمام الرأي العام العالمي أدرك الصهاينة قوة الإعلام وتأثيره على الرأي العام والدعاية السياسية مما دفع بالمنظمات الصهيونية إلى امتلاك أهم وأكبر المؤسسات الإعلامية في العالم ، وحصرت ملكية هذه الوسائل، سواء في داخل إسرائيل أو خارجها بمؤسسات وتنظيمات تلتزم تنفيذ سياستها على تحقيق مآربها . ولكسب المزيد من الرأي العام العالمي لتأييد إسرائيل من جهة وكره العرب من جهة أخرى ، عمد مؤيدو إسرائيل في العالم إلى الاحتفالات الإعلامية العلنية في المناسبات والأعياد الإسرائيلية لتكون فرصة لهم لبث الدعاية السياسية لتحسين صورة إسرائيل والتجريح بالعرب وتشويه صورتهم وتاريخهم وحضارتهم واتهامهم بالهمجية . ويستغل الصهاينة في ذلك فرصة غياب السياسة الإعلامية العربية المركزة التي من شأنها ، إن وجدت . منافسة الإعلام الإسرائيلي في كسب الرأي العام العالمي.

وعملاً بالإستراتيجية المعروفة لكسب الرأي ، وهي إثارة المخاوف لدى المتلقي من أمور مكروه قد يحصل له ، أقر صحفيون إسرائيليون أن الإعلام الصهيوني الموجه إلى داخل إسرائيل كان يعتمد إلى إيهام الذهن اليهودي بعقدة الخوف من العرب والتفوق التقني والكمي عليهم . ويصرح أولئك الصحفيون بأنه :" قد تم تحويل عقدة الخوف من العرب إلى أسطورة عملت وسائل الإعلام على غرسها في ذهن كل يهودي من أجل تنمية الشعور بالحقد والكراهية ضد كل عربي . ويصور الإعلام الإسرائيلي العرب همجاً متعطشين للدماء ، لا يفهموا إلا لغة القوة ، ومع ذلك تتمكن إسرائيل الدولة الصغيرة من هزيمتهم في كل حرب يبدءونها أو تضطر هي إليها للدفاع عن أمنها بفضل تميزها وتفوق جنودها "

وهناك حملات إعلامية منظمة موجهة إلى الرأي العام العربي لكسبه في سبيل تحقيق الأهداف الإسرائيلية ، فضلاً عن الإعلام الإسرائيلي الموجه إلى داخل إسرائيل لكسب الرأي العام . وتعمد هذه الحملات إلى إضعاف الروابط الثقافية والحضارية بين العرب وإلى الاقتناع بأن الحرب مع إسرائيل غير مجدية ، فالعرب هم الخاسرون أولاً وأخيراً والسلام مع إسرائيل لا يكون إلا بالتسليم لها.

وفي هذا الصدد ، يصرح صحفيون إسرائيليون أن الإعلام الموجه إلى العرب يحاول أن يصل بهؤلاء إلى الاقتناع بعدم الجدوى الخيار العسكري مع إسرائيل لتحقيق هدف نهائي يتمثل في المضي بالعرب إلى قمة اليأس من إمكانية التخلص من الأوضاع التي يفرضها عليهم التفوق الإسرائيلي ، ومن ثم تحطيم أي أمل في إمكانية تغير الواقع ، أو حتى التفكير في تحسين الظروف الموضوعية والاجتماعية والاقتصادية والصحية السوء التي يعانون منها .

وسائل الإعلام هي السلاح الأخطر :

لقد برز اهتمام العالم الغربي بالإعلام ووعيها المبكر لدوره الخطر في أواسط الستينيات من خلال فليم (قافلة الأبطال) الذي يتحدث عن الاهتمام بالإعلام، حيث كان بطل الفيلم صحفياً يؤسس صحيفة حرة في مدينة تؤسس حديثاً في الغرب المتشكل حديثاً هو الآخر، ويحاول مدير إدارة المدينة المؤلفة من صاحب المصرف وصاحب شركة النفط ومدير الشرطة (الشريف) وعمدة المدينة، شراء الصحافي وضمه إلى جانبهم ولكنه يرفض فيعرضون عليه مبلغاً كبيراً لقاء شراء الصحيفة، ولكنه يرفض مرة أخرى حتى مات قتيلاً في حرب تحررية في إحدى دول أمريكا الجنوبية، فيتم لهم ما يريدون عبر شراء الصحيفة من زوجته.

كيف يواجه العرب الإعلام الغربي

هل صحيح أن كل ما يقوله الإعلام الغربي عن العرب تطاول وافتراء، وانه من إفرازات «صدام الحضارات» الذي يجاهر به ويدعو إليه ساسة الغرب ومفكروه، وان الحملات الإعلامية المتعاقبة التي لا يكاد ينجو منها بلد عربي ليست إلا وجها من وجوه حرب الإساءة والتشويه التي اعتمدتها إسرائيل سلاحا ماضيا في صراعها معنا منذ خمسين عاما. وهل نحن حقا مظلومون في ما يقال عنا وفينا، وكيف السبيل لدرء هذا الأذى ودفع هذه الشرور

كثيرا ما تتحول هذه التساؤلات لحوارات ساخنة في مجالس النخبة العربية لتختلف حولها الآراء إلى حد الانفعال دون أن ينتهي بها الحوار لقنا عات تبنى عليها مواقف من التصدي العقلاني الجاد للتعامل مع هذه الظواهر المثيرة للغضب.

هناك من يرى أن في الإعلام الغربي، حقا، بعض التحامل علينا، لكنه إعلام لا يختلق الأباطيل. فنحن الذين نغضب لكشف عوراتنا، فنكابر في ما نحن عليه من سوء حين تقتحم الصحافة الغربية ما هو مستور لدينا، بعيدا عن قيود الرقابة والتوجيه، بعيدا عن الملاحقة وقطع الأرزاق التي قد تطال الصحفي العربي عندما يتجاوز الحدود..

ولأن العرب قد اعتادوا على إعلام رسمي يرضي الحاكم وقد لا يرضي المحكوم فإن الصراحة وكشف الحال التي يعالج بها الإعلام الغربي شؤوننا الداخلية تثير في الأوساط الرسمية العربية من ردود الفعل ما قد يضر ولا يفيد ويستهوي في الوقت نفسه أوساط العامة والمثقفين.

وهناك من يرى في الإعلام الغربي طرفا كارها مسكونا بحقده علينا، يغمض عينيه عن كل ما هو ايجابي لدينا يلاحق الصغيرة في حياتنا ليضخمها ويبالغ في تضخيمها ليحيلها لجبل من الأمور الشائنة المعيبة أمعانا في كرهه وتحامله علينا. لا يعنى بالاستقصاء الموضوعي المحايد، يفتقر إلى التحليل، ويكتفي بالنظرة السطحية للأمور لاسيما في ما يتصل بالجانب الاجتماعي من حياتنا فتأتي كتاباته عملا مشوها مبتورا يدفع به إلى معارف قارئيه ليلحق بنا الأذى من حيث يريد أو لا يريد. وان الإعلام الغربيفي مواقفه السياسية هو في الكثير من حالاته ترديد لما يسعى إليه أعداء الإسلام وأعداء العرب من الإساءة إلينا.

لا يمكن الاسترسال في عرض دفوع الجانبين تبريرا لرؤيتهم لهذه القضية الهامة، إلا أن الثابت هو أننا أمام قضية لا يمكن أن ندير رؤوسنا عنها. الإعلام الغربي حقيقة ضخمة، كبيرة في حياتنا السياسية والثقافيةولن تنفع محاولات التقليل من شأنه وقدرته على الإساءة إلينا.. انه قوة هائلة لا قبل لنا بها، عريقة في النشوء، مذهلة في التطور، كاسحة في التأثير تغطي القارات الخمس بلا منازع لتزرع في أذهان الشعوب ما تشاء من الصور،

وتدفع بهم إلى ما تشاء من المواقف، لا تبالي في ما تتناوله من أحداث العالم بالعرض والتحليل إلا ما تراه ـ خطأ أم صوابا ـ معبرا عن قناعتها.

وإذا كان الإعلام الغربي قبل خمسين عاما ضئيل الفاعلية في تأثيره علينا وعلى قضايانا فإن ثورة الاتصالات قد جعلت منه اليوم وسيلة تفوق بقدرتها على الزعزعة والإضرار بقدرة الجيوش.

لم يكن للصحافة قبل عدة عقود تأثير يتجاوز حدود المحيط الذي تصدر فيه. فما كانت تنشره جريدة صادرة في باريس أو نيويورك يظل محصورا في قرائها التقليديين، وجاءت أعجوبة الأقمار الصناعية والطباعة عبر الفضاء وشيوع الانترنت لتزيل ما كان قائما من حواجز وعقبات. وأصبح المقال الذي يحمل الأذى والبهتان جاهزا لمن يسعى إليه خلال ساعات من صدوره..! وإلى جانب هذا الإحساس بالانبهار يأخذني شعور آخر مزيج من العجز والإحباط وأنا استعرض قصور الأعلام العربي في مواجهة هذا الجبروت.. فشعوب العالم، في معظم الأحوال، لا تعرف عنا وعن قضايانا إلا من خلال ما تتلقاه من الإعلام الغربي. والعرب لا يملكون من الصحافة والفضائيات إلا ما كان عربيا يتدافع نحوه المعلقون العرب كأن العالم يرصد أقوالهم ليقف على الحقيقة من قضايانا..!

والحال هو أن وسائل إعلامنا على ضعف حالها، وانغلاقها على نفسها، وعجزها عن الانطلاق عالميا قد أصبح بعضها مجالا للمزايدات وحرب المواقف والتضليل،لا تجرؤ على مكاشفة المواطن العربي بالحقائق وهي التي جعلت منه رهينة لمبالغاتها منذ إبطال صوت العرب قبل أربعين عاما حتى إبطال بعض الفضائيات في يومنا هذا.

ما العمل إذن كي يواجه العرب الإعلام الغربي مواجهة عقلانية تمنح دفوعهم مصداقية القبول، بعيدا عن انفعالات الكبرياء. اعتقد إن سبيلنا إلى ذلك أمران: تحصين الجبهة الداخلية من خلال استكمال النقص والإصلاح، والحوار المتواصل الهادئ مع الإعلام الغربي على اختلاف مشاربه.

ولعل اقرب مثل يتناول الحالة التي نشكو منها ما تتعرض له المملكة العربية السعودية من ضغوط إعلامية غربية منذ أحداث سبتمبر التي جعلت من المملكة الهدف الذي تنهال عليه السهام والرماح. وما تزال الحملة ضارية محمومة لا تريد أن تفهم ولا تريد أن تعي. ولا بد من الاعتراف بأن ما ارتكزت عليه الحملة الإعلامية منذ أحداث سبتمبر أكثر ضررا وأبلغ مدى من أية حملات إعلامية سابقة. ومن الحكمة ألا نستهين بأثر هذه الحملات. فالرأي العام العالمي تحدد مساراته ومواقفه من الدول والشعوب وسائل الإعلام شئنا أم أبينا. وقد رأينا كيف تعمد الدول الكبرى إلى الاستعانة بالإعلام وهي تعد لعمل سياسي ضخم من أجل تهيئة الرأي العام الداخلي والخارجي لقبول ذلك العمل وتأييده

كما حصل في أفغانستان والعراق. ولن يفيدنا في شيء أن ندفع بالقول بأنها حملات مغرضة ـ حتى وان كانت فعلا مغرضة ـ بل علينا أن نرصد باهتمام مواقف وسائل الإعلام ونفتح معها حوارا صبورا طويل النفس هادئا نبدأه بالخصوم قبل الأصدقاء ونتيح لها مداخل الإطلاع على ما تريد حتى لا يدفع بها انغلاقنا على النفس لتصورات واهمة واجتهادات خاطئة أو شائعات يروج لها المرجفون.. ولقد انتهت بي أربعون عاما من العمل الإعلامي والدبلوماسي لقناعة كونتها تجارب السنين بأن الحوار ينفع ولا يضر وان مكاسبه أكثر من احباطاته وان الإنسان لا يولد كارها لإنسان آخر وان مواقف الإنسان، أي إنسان، من الأحداث والناس تحددها مصادر المعرفة التي يتلقاها، لا سيما من إعلام قوي النفوذ، طويل الذراع، دائم التواجد، سريع التأثير، كالإعلام الغربي في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. ولن يحقق الحوار مقاصده إلا إذا احترمنا ذكاء الآخرين واعترفنا بقدرتهم على فهم الحقائقفي عالم زالت فيه إمكانيات التواري..

الأعلام العربي: تقنية حديثة وحرية أقل

قال مشاركون في مؤتمر "الإعلام العربي في عصر المعلومات" أن وسائل الإعلام العربية تشكو ضعفا في الضوابط المهنية وتسقط أحيانا في إشاعة "وهم" الديمقراطية.وارجع مدير عام قناة "الجزيرة" القطرية وضاح خنفر ضعف الضوابط المهنية إلى حداثة الإعلام العربي والتلفزيوني بصورة خاصة، موضحا أن الإعلام العربي "لا يزال غضا في كثير من الأحيان

ونجد أن الإعلام التلفزيوني اقل فقرا من الإعلام المكتوب في الضوابط والمصداقية".وعزا الأمر إلى "السرعة التي يتميز بها الإعلام التلفزيوني في ملاحقة الأحداث وربما يدفعه ذلك في الكثير من الأحيان إلى الطرح السطحي وعدم الموضوعية".غير انه نبه إلى أن توجيه النقد للإعلام العربي "لا يعني أن نترك للحكومات القيام بوضع تقاليد وضوابط لوسائل الإعلام بل يجب أن تنبع هذه الضوابط من داخل التجربة الإعلامية ذاتها".وأكد خنفر انه "لو ترك للإعلامي الحرية لاستطاع أن يضع الضوابط اللازمة ليمارس العمل باحتراف".من جانبه اعتبر عبد الرحمن الراشد مدير قناة "العربية" التي تتخذ من دبي مقرا أن "المؤسسات الإعلامية تواجه مشكلات كثيرة مما يستلزم تأهيل العاملين في قطاع الإعلام" داعيا إلى "أن تكون هناك مواثيق شرف للمهنة وعلى المجتمع أن يضع حدودا ترسم مبتدأ حرية الإعلام ومنتهاها".أما محمد السيد سعيد نائب مدير عام مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية فقد لحظ مشكلة أخرى يعاني منها الإعلام العربي تتمثل في استخدامه كبديل عن الديمقراطية الغائبة في الدول العربية.وقال السيد "غالبا ما يستخدم هامش حرية التعبير المسموح به من جانب السلطات العامة كبديل عن الديمقراطية" وفي إطار تطبيق الدول العربية "نموذج التعددية المقيدة الذي لا يسمح بتداول السلطة ولكنه يتيح هامشا من حرية التعبير".وأوضح انه "لا يمكن فهم التطورات الجديدة في الإعلام العربي من خلال مفهوم ديمقراطي

وإنما من خلال تصدعات محكومة أو غير محكومة في بنية الدولة التسلطية العربية الشمولية (..) وهو جزء من قدرة هذه الدولة على التلاعب بالمعطيات والظروف الجديدة في المستوى الإقليمي والدولي".ولاحظ السيد انه في بعض المناطق العربية وخاصة في الخليج ظهرت مجموعة من المعطيات "خارجة كليا عن فضاء الحرية" ونابعة عن "انتعاش المنافسات بين اسر سياسية وتجارية ورؤوس أموال سياسية تستثمر في الأعلام".وأوضح أن ذلك "يوحي بنوع من التعددية والحراك" الذي يمكن أن "يوجد وهما بديلا عن الديمقراطية والعمل السياسي".غير ان جهاد الخازن الكاتب الصحافي في جريدة "الحياة" لاحظ إن "النظام الذي يسعى للترويج لأي كلام من خلال وسيلة دعائية سيكلفه الأمر غاليا ولن تتمكن في النهاية هذه الوسيلة من الصمود.. فالبقاء دائما للأصلح".وأشار إلى إن "من يملأ التلفزيون بالاستقبال والتوديع ويجعل منه بوق دعاية لن يجد في النهاية من يشاهده ويتابعه".وأعرب من جهة أخري عن اعتقاده انه "لا يوجد سوق كاف لكل هذا الكم الهائل من المحطات الفضائية والصحف التي تنشأ يوميا" في الفضاء الإعلامي العربي.

أساليب الدعاية الإعلامية السلبية:

يٌقدر بعض المراقبون أن لوسائل الإعلام من التأثير على الرأي العام ما يفوق استراتيجيات توقيت اندلاع الحروب فلهذه الوسائل المذكورة من الآراء ما تصل إلى مستوى غسل الأدمغة نظراً لما تملكه من عناد تبثه عبر قنوات إعلامية شهيرة مرئياً ومسموعاً ومقرئا. وعقل الإنسان العادي المتوسط الثقافة لا يكاد يمر يوم أو أكثر قليلاً إلا ويلتقط العديد من الأخبار والتحاليل اللتان تجعلاه في حالة استيعاب ضبابي للأمور.

وأساتذة الإعلام السلبي أصبح لهم من الخبرة في نشر الأضاليل والأكاذيب على مسند (أكذب وأكذب ثم أكذب) حتى يصدقك الناس وهكذا فالعقل البشري الذي أضحى مستهدف ليتم حرفه عن جادة الحقائق ومعرفة خلفياتها يعيش اليوم ببذل قليل من الجهد الفكري لتمحيص ما يجري في العالم من مآسي وتدخلا في الشؤون الإنسانية إذا أن ما يتم تزويده به من معلومات مغايرة للوقائع وما تمثله من طرح وجهات نظر هي في الأساس لا تتعدى أكثر من فلسفات لتبرير ما يخفى من أمور. ومع أن الحال الإعلامي يبدو الآن أكثر نسبة للتصديق بسبب انتشار الإعلاميات المباشرة المعززة بالصوت والصورة في الجانب المرئي الذي تكفل إيصاله الفضائيات للرأي العام (أول بأول) إلا أن دبلوماسيات الإعلام تكشف بعد خبايا بث السموم الإعلامية ضد (الإسلام الحقيقي) و(الوطنية الحقيقة) مثالا بهذا الصدد.

والإعلام المعاصر بما فيه من معتمدات على تكذيب وأحياناً مساءلة من يحاول أن يعمل لصالح خلق إعلام دولي أو إقليمي أو حتى محلي يتصف بـ(الحياد) فإن الماضي الإعلام القريب يوضح كيف أن (جوبلز) الداعية لنشر الإعلام المساند للنازية في زمن (أدولف هتلر) إبان فترة اندلاع الحرب الدولية الثانية (1939 – 1945) لم تفده أساليبه التي فضحت بمجرد إعلان هزيمة النازية الألمانية إلا أن ما يمكن التذكير به أن مثال (جوبلز) قد قدم وأفرخ العديد من الشخوص الإعلاميين الذين كانوا (فرسان باطل) لحكومات مجرمة بحيث كانوا هؤلاء ومازال عدد غير قليل منهم يحملون (طبول الدعاية) لصالح حكام مجرمون وفرق سياسية إرهابية خائنة لشعوبهم وأوطانهم بيد أن هؤلاء الحكام وفرقتهم السياسية المشبوهة يحاربون معارضيهم السلميين بأسلوب الادعاء لـمقتضيات المصلحة العامة.

الإعلام وسوء الاستخدام:

على الرغم من اعتبار هذه الفترة فترة ما بعد عصر الإعلام وذلك من خلال الطموحات المستقبلية التي لا تحدها شيء والتفكير للقرون الآتية وما يرافقه من تطور مدهش وسريع في تقنيات التكنولوجيا والإعلام وحداثة وسائله فالتسميات المسبقة يلزمها قراءات مسبقة ومنسقة وتامة ومع كل هذا يبقى الإعلام كالبوتقة التي تنصهر فيها الآراء والأفكار المختلفة من الجمهور المتأثر به والمؤثر فيه.

والإعلام ليس مجرد عملية إخبار ونشر معلومات ولكنه يشمل الدعاية والإعلان سواء في المجال التجاري التسويقي أو في المجال الفكري الأيدلوجي أو فيما يتعلق بالسلوكيات ومضامينها الأخلاقية، وتحقيق الأهداف المختلفة للمجتمع في المجال المعرفي والاجتماعي والثقافي والتوعية والتوجيه والترفيه والتسلية والتثقيف، فيوشك الإعلام أن يكون قناة الاتصال الأول تأثيراً على المجتمع والأسرة والفرد، بل إن مؤسسات التربية والتعليم تواجه تحديداً كبيراً من قبل وسائل الإعلام المختلفة، فالطفل الذي يقضي ساعات معدودة في المدرسة يقضي مثل هذه الساعات أو أكثر راغباً منصتاً متفاعلاً أمام شاشات التلفاز وما شابهها.

إننا لا يمكننا أن نتجاهل تأثير الإعلام في عصر القنوات الفضائية والاتصالات اللاسلكية عندما نفكر في بناء أفراد المجتمع، فكيف إذا كانت الشريحة المقصودة هي أكثر شرائح المجتمع تفاعلاً وتأثراً بالإعلام ومنتجاته، فالتربية والإعلام بينهما أرضية مشتركة وصلات قوية فالعملية الإعلامية هي في معظم جوانبها عملية تربوية تستهدف بناء الإنسان في إطار من القيم والأهداف.

على كل الخطير في الأمر أن وسائل الإعلام قادرة على تغيير اتجاهات الأفراد ومواقفهم على شكل إقناع تام أو وسط أو ضعيف أو أنها تعمل كوسيط للتغيير.

وهناك بعض الأخصائيين في الإعلام على أن الرسالة الإعلامية التي تبثها وسيلة الإعلام تؤثر في المتلقي تأثيراً مباشراً كما لو أنه حقن بإبرة - وذلك في حالات تخضع لنفسية الفرد لحظة التلقي.

ولتحقيق هذا التأثير تتبع مصادر البث التلفزيوني استراتيجيات نفسية متنوعة يتركز معظمها فيما يلي:

الإحلال البديل الفكري محل الثوابت أو الفكرة الأصلية يتبع المرسل التسلسل السيكولوجي التالي: احترام .

الثوابت والقيم - زعزعة اتجاهات الفرد - عدم اتزان نفسي - تقديم البديل الفكري حيث تتجنب الرسالة الإعلامية التصادم مع الأهداف القائمة لتضمن ثقة الفرد بالمصدر لاحترامه لمعتقداته مع البث التدريجي لمضامين خفية من أجل زعزعة أفكار وقيم الفرد دون التعرض لها مباشرة فتجعله في حالة حيرة وتشويش وعدم اتزان نفسي ثم تعرض البديل وهو فكرة محددة أو أيدلوجية شاملة.

تكرار الفكرة البديلة واستمرارية تعرض المتلقي لها حتى يقتنع بها على اعتبار أن هذه الفكرة مهمة جداً لدرجة أنها حاضرة في وسائل الإعلام.

التقليل من عرض الرسائل الإعلامية التي تعزز القيم والأفكار المعارضة لسياسة المصدر الإعلامي وأحياناً حجبها نهائياً رغم أهميتها واحتياج المشاهد لها.

وفي نفس الوقت يتم تقديم أفكار الفرد وقيمه الأصلية بصورة مشوهة وباهتة وعبر برامج مملة للتخفيف من رسوخها في نفس المتلقي، فإن البديل يحاط بقالب جميل يتضمن مثيرات متنوعة حسية وذهنية، عوامل جذب بصرية وإثارة صوتية، وتغير في نوع الحركة ودرجتها أي مخاطبة المتلقي عبر حواسه فيتفاعل مع المشهد ويكتسب معلومات وهكذا حتى يتقبلها وجدانياً بعد أن استوعبها عقلياً واختزنها معرفياً وقد تتحول إلى أنماط سلوكية يمارسها الفرد و يدافع عنها.وهذه الطرق يمكن استخدامها أيضاً في ترسيخ القيم والأصالة والأخلاق الإنساني وذلك عبر البرامج الإنسانية والإسلامية الكافية لسد حاجات المجتمع .

تحكمات الإعلام الحديث في تشكيل الرأي العام:

لعل الأجداد في مهام الإعلاميات الحديثة هو محاولة تشكيل رأي عام محلي في كل بلد يصب في مصب الرأي العام الدولي ولا نقول العالمي أي كمرحلة أولى وبمعنى قد بدأت بوادره تظهر حيث تكاد الآراء لدى قادة ودول تتقارب في النظرة لحل مشاكل العالم مع أن بعضها هو في حكم الآراء غير المسئولة

إذ تنكر حقوق ثابتة من أجل تمرير سياسات سلبية معينة وهذا ما يمكن تسميته بالإقصاء الإعلامي الدولي أي الذي يوحد آراء الحكومات وهو على أي حال ليس له علاقة المعبرة عن الرأي العام العالمي الذي هو رأي المجتمعات.

إن عالم اليوم على وجه العموم أصبحت تتحكم فيه التكنولوجيا بشكل عجيب فتوالي التقدم الذي طرأ ويطرأ على علوم الكمبيوتر قد أنسى الناس في أحيان كثيرة حتى من توجيه النقد لما قد يحصلوا منه من معلومات أو توثيقا أو صور تخرب النفوس فبعد أن أصبح الكمبيوتر أزداد اليقين أكثر لدى الناس أن قوة الرقابة على الممنوعات تكاد أن تصبح من الناحية في خبر لزمن مضى وهذا ما جعل التحذير من زيادة الاعتماد على الكمبيوتر موضوعاً لحوار طويل لدى جهات غربية بحد ذاته.

ومن أخطر تحكمات الإعلام التكنولوجي هو عدم وجود (مواقف أخلاقية) مع الكمبيوتر والانترنيت أيضاً ممكن أن تقوم ما ينبغي أن يكون فيهما ولا يكون وإذا ما تم النظر إلى ما يقدمه الانترنيت شبكة الإعلام الدولية لأتضح أن معظم الأخبار فيه تنقل الصورة السوداوية للعنف الساري والمتفجرة وأحداثه (بترتيب السياسات السلبية) إذ ليس من المعقول أن يستمر هذا العنف والبشرية تبقى متفرجة لما يحدث على خلفية مشاكل ممكن أن تحلها العقول بدلاً الأسلة والرابحون في الجانب العرضي من مشكلة العنف الدولي هم العملاء والجواسيس المنتشرون في العديد من بلدان العالم

وبالذات العالم الثالث الذي أصبح تحت تنفيذهم للخطط بؤر لصرا عات مفتعلة يبدو أنها دون أول لها ولا آخر.

ولو تمت المقارنة مع الماضي التكنيكي القريب الذي كان سائداً لتبين أيضاً أن التلفزيون وألعاب الفيديو لهما المساهمة أيضاً في التحكم بالعقول البشرية وتوجيه اهتماماتها نحو زوايا غير منظورة في الحسابات الاجتماعية ودراسات بناء الشخصية ففي دراسة حديثة أشار باحثون ألمان متخصصون في دراسة (ظاهرة النوم) إلى (أن الإفراط في مشاهدة التلفزيون وممارسة ألعاب الفيديو قد تؤدي إلى أنواع مختلفة من اضطرا بات النوم بين الأطفال مما قد يعوّق نموهم بحسب ما جاء في الدراسة الأنفة التي قام بها الدكتور(بواكيم كنشلاغر) من جامعة لا يبزغ.

وإذا ما بقينا مع عالم الصغار فإن ما يصطدموا به في الواقع حين تقام بهم مهرجان وبرامج تحتضنها القنوات التلفزيونية والإذاعية في العالم وتصور لهم العالم بكونه يعيش أرقى مراحله وحياة البشرية تبدو فيه مليئة بالأفراح والحياة الرغيدة والزهو الذي لا يجده الأطفال في بيوتهم العائلية هذا وكان قد تقرر دولياً منذ سنة 1992م أن يكون يوم الأحد الثاني من شهر كانون الأول (ديسمبر) سنوياً ما سمي بـ(يوم البث العالمي للأطفال) حيث تلتقي آلاف المحطات التلفزيونية والإذاعات ووسائل الإعلام من دول عديدة في جميع أنحاء العالم لبث برامج تتعلق بالأطفال والطفولة أو تعرض أعمالاً من إنتاج الأطفال

وتجري المقابلات مع جمهرا من أطفال العالم وبشكل حر ليقف الرأي العام العالمي على ما يفكر به الأطفال في طول وعرض الكرة الأرضية في حين تقوم الدوريات الصحفية (المجلات والجرائد) مشغولة بمواضيع موجهة إلى الأطفال وتسليط الضوء على بعض مشكلاتهم داخل العائلة وفي المجتمع، ومن جانبها تقوم وكالة (يونيسيف) التابعة لهيئة الأمم المتحدة وبمشاركة (الأكاديمية الوطنية لآداب التلفزيون وفنونه cnatas من تقديم جائزة لمحطة تلفزيونية حققت نجاحاً متميزاً في برامجها المنبثة خلال اليوم الاحتفالي الآنف. ومن المؤكد فإن مثل هذا الاهتمام سيعكس حتماً الخطوط الأولية في ذهن الطفل فقد يستسيغ من التلفزيون ما لا يكون في صالح بنائه الذهني والنفسي وربما التربوي وبالتالي ينشأ مثل هذه الشريحة من الأطفال على تصورات غير سوية ربما تؤدي بهم منذ وقت مبكر من حياتهم إلى استسهال الوقوع في فخ عدم إنصاف أنفسهم والآخرين معهم إذا ما علمنا أن لنسيج التلاعب بالعقول طرق وطرق.

ففي العروض التلفزيونية العديدة مما ينبغي عدم مشاهدته سواء من قبل الصغار أو الكبار تحسباً أن لا يكون منها ما يمكن أن يساهم في تشكيل الرأي الشخصي ونظرته للحياة على ضوء التأثر بما يشاهد من عروض سلبية وتخريبية للنفوس ومما قد يكون غائباً عن البال أن العديد من المخاطبات التلفزيونية تتم نحو استهداف العقل الباطن للإنسان وليس نحو لسانه فحسب.

وبطبيعة الحال فإن الإنسان لن يستطيع تكذيب نفسه إذا ما علم أنه كان قد خدع من قبل الإعلاميات التي جعلته يوماً ما يتسنى موقفاً لم يكن صحيحاً فمثلاً إذا ما قرأ أن بلداً ما خالٍ من السجون ونشرت الخبر صحيفة محترمة أو بثت الخبر إعلامية لها سمعة لا بأس بها وتبين أن في ذاك البلد عشرات السجون فيشعر أن الإعلام السلبي قد تحكم بعقله سلبياً إن لم يكن قد سلب من جواهر نفسه البريق الذي يحرص عليه من حياته.

الإعلام العربي .. الواقع والتحديات:

يعد الإعلام المعاصر أهم وسيلة للتأثير في العديد من الأنساق الثقافية والفكرية لدى الأفراد والجماعات والشعوب ، ويشهد العالم في الوقت الراهن ثورة كبرى في عالم المعلومات والاتصالات أو ما يسمى ب"العولمة" تلقي بظلالها التأثيرية على البنية الفكرية والسيكولوجية والحضارية لدى شعوب المعمورة والعالم العربي يجد نفسه وجها لوجه أمام التحدي الإعلامي الغربي المزدوج وذلك بمواجهة تحديين الأول : هو التقدم المادي والتطور الحاصل في الغرب في مجال التقنية الاتصالية والإعلامية من أجهزة حاسوب وأقمار صناعية و..الخ والتحدي الثاني:هو التحدي المعلوماتي للإنسان في العالم العربي هذان التحديان متكاملان يخدم أحدهما الآخر

وقبل التحدث عن هذين التحديين علينا أن نشير إلى ضعف الإعلام العربي من نواح عديدة فإلى وقت غير بعيد كان الإعلام العربي يتفرع إلى ثلاثة أنواع من الإعلام

وهي : الإعلام المقروء – صحف مجلات- نشرات – وإعلام مسموع – الإذاعات-وإعلام مرئي حكومي وهذا الإعلام كان في مجمله إعلاما رسميا تابعا لا بل ناطقا باسم الحكومات العربية وبالرغم من غياب الفقرات والبرامج الخليعة والفاضحة والاستهلاكية لكنه لم يكن موضوعيا في أخباره ولا حياديا في تحليلاته ولا منهجيا في استطلاعاته لقد كان إعلاما للسلطة، ومساحة الحرية فيه كان محدودا جدا ومن ثم في التسعينيات بدأ الإعلام الفضائي يغزو المنطقة العربية وهذا الإعلام في معظمه لا يتبع إلى الحكومات العربية بشكل مباشر .

وهذا الإعلام -المحطات الفضائية العربية -لا تخرج عن نمطين أثنين إما أنها سياسية وإخبارية أو ترفيهية غنائية ، وأنا اعتقد أن معظم هذه الفضائيات وبخاصة ذات الطابع الإخباري السياسي تفتقد لإستراتيجية إعلامية واضحة تفيد المواطن العربي للارتقاء بوعيه إلى مستويات متطورة ويغلب على برامجها الطابع الشعبي التحريضي الذي يخاطب العواطف بدلا من تقديم برامج تخاطب العقول والإرادات والمدارك الفكرية للانتقال من حالة التخلف والجهل إلى مدرج التقدم والرقي ويغلب على الحوارات-

وبخاصة السياسية - التي تجري في هذه الفضائية أو تلك طابع الانتقائية والتحريض والتكرار والاجترار والصراخ والصياح ولا تحضر – إلا نادرا – أجواء العقل والمنطق والحوار الهادئ البناء .

كما أننا لا نجد – إلا بشكل نادر جدا –فضائيات متخصصة في الشؤون الثقافية والفكرية ولقد اقترحت في مقالة منشورة بمجلة الطريق اللبنانية إنشاء فضائية ثقافية وفكرية لنشر الوعي والثقافة في العالم العربي ، بينما نجد الكثير من فضائيات المرح والغناء والخلاعة والمجون هذه الفضائيات تخاطب شريحة كبيرة من المواطنين وبخاصة فئة الشباب وتقوم بتشجيعهم على الكسل من خلال برامج المسابقات التي يغلب عليها عدم الاتزان والتهتك .

إذن هذا هو واقع الإعلام العربي الذي يحتاج إلى نقلات تطويرية كبرى لها علاقة بما قدمنا له من وجود تحدي رئيسي يواجه هذا الإعلامهو التحدي التقني .

التحدي الإعلامي التقني " التكنولوجي :

إنَ جوهر التحدي التقني الغربي ومضمونه هو ما يتمخض عن التقدم الإعلامي التقني الغربي من نتائج خطرة يمكن أن تحدث على الصعيد العالمي جراء هيمنة الدول المتقدمة على عناصر التقنية بشقيها الأجهزة والبرامج الأمر الذي هيأ ويهيئ الفرصة للعديد من الشركات المتعددة الجنسية لفرض سيطرتها الإعلامية

ومن ثم خدمة مصالحها ومصالح نظمها ، يضاف إلى ذلك عدم وجود معايير دولية تنظم امتلاك التكنولوجيا وتوزيعها ، ناهيك عن حالة الفقر والتخلف وضعف التنمية في الدول العربية في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإعلامية ، نستنتج من ذلك وجود خلل واضح في امتلاك تقنيات الإعلام بين العالمين الغربي والعربي ، هذا الخلل له خطورته الكبرى ونتائجه الكارثة على صعيد تكون الأفكار والثقافات ،حتى أنه ينعكس على نمط الحياة والممارسة اليومية الاعتيادية لأي فرد في العالم يقتني ويتلقى الوسيلة الإعلامية الحديثة والمستوردة من الغرب والموجهة أيضا من الغرب وجدير بالذكر أن الشركات متعددة الجنسية تسيطر على أجهزة الإرسال والمسجلات وكذلك التلفزيون وأجهزة الراديو والتلكس والهاتف وأجهزة الحاسب المعقدة وتهيمن أكبر خمس عشرة شركة أمريكية في مجال الإلكترونيات على 75%من الإنتاج الصناعي الإلكتروني العالمي في مجال أجهزة الاتصال وتسيطر الولايات المتحدة الأمريكية على صناعة الدوائر الإلكترونية الاندماجية إذ أنها تنتج بنسبة 60% إلى 70% من إجمالي الإنتاج الدولي في هذا المجال .إن العالم العربي مدعو اليوم أكثر من أي يوم مضى لتطوير التقانة الإعلامية بإيفاد باحثين وعلماء وخبراء في مجال الإعلام والاتصال إلى الدول المتقدمة لنقل التكنولوجيا الاتصالية بدل شرائها إذ أن ما هو حاصل الآن – للأسف- هو شراء التكنولوجيا الغربية بدل نقلها ، والنقل هنا لا يعني اقتنائها

وإنما تصنيعها ، ولابد من الإشارة إلى أن هناك سرعة خيالية في حجم التطور التكنولوجي الحاصل في الدول الغربية ، وهي لا تساهم في تطوير وتنمية التقانة الإعلامية وغير الإعلامية في العالم العربي أو غيره لعدة أسباب من أهمها : إبقاء هذه الدول في حالة من التبعية الإعلامية وغير الإعلامية وإبقائها دائما في حاجة ماسة لاستيراد التكنولوجيا الغربية ليتهيأ لها السيطرة الإعلامية المستمرة تقنيا وفكريا وثقافيا ومعلوماتيا ولا يمكن للعالم العربي أن يتطور في مجال التقنية الاتصالية إذا لم يتعاون فيما بين دوله لإنجاز التقنية الإعلامية العربية المشتركة وتبادل الخبرات القطرية وتبادل البحوث والدراسات وإقامة الندوات ومراكز التدريب التكنولوجي وزيادة الدعم المالي لمثل هذه النشاطات بما يخدم المسيرة الإعلامية في العالم العربي برمته ويمكن الإشارة في هذا المجال إلى القمر الصناعي العربي " عربسات " الذي تستفيد منه عدة دول عربية وبالرغم من عدم منافسته الإعلامية لأقمار الاتصال الغربية إلا أنه خطوة في الاتجاه الصحيح.

الفصل السابع

العرب في الإعلام الغربي فلم Children of Men نموذجاً

لم يعد الإعلام حكرا على أحد، ومثلما يمتلكه الغربيون يمتلكه الشرقيون كذلك وهذه بديهية لا جدال فيها،إلا أنما يختلف في الأمر هو الإطار المؤسسي واستراتيجيا الإدارات التي تحرك الوسائط الإعلامية، وتكتيكاتها وأدواتها للوصول إلى ما تود غرسه في ذهن المشاهد، ورغم ما يشاع بين الفينة والفينة عن افتقاد الثقة بين المشاهد ووسيلة الإعلام سواء كانت مقروءة أو مكتوبة إلاّ أن حاجته لهذه الوسيلة تبقى أصيلة وأكيدة وخاصية التلقي السلبي شائعة بين أغلب متابعي هذه الوسائل..

فهو يستقبل المعلومة ويصدقها ويتعاطى بها ثم وهذا احتمال غير مؤكدا يناقشها.. لذا وصلت أكثر المعلومات إلى مستوى اليقين في الذهن الجمعي للمشاهدين وهذا ما أدركته الدوائر السياسية والاجتماعية الغربية منذ منتصف القرن التاسع عشر فأحسنت استغلال الصحف ثم في نهايات القرن لتحسن استغلال السينما وفي بدايات القرن العشرين لتحسن استغلال الراديو وفي أواسطه لتحسن توظيف التلفزيون الذي وصلت فيه إلى قمة استثمارها للمعطيات الإعلامية، أما الانترنت فقد غدا نموذجاً للتذكير بالدور الذي لعبته ثورة الاتصالات في نجاح وسائط الإعلام جميعاً..

إلى الدرجة التي غدت تفوق قوة السلاح.. فأفضل أرقام انتشار صحيفة ما قبل ابتكار الانترنت لم تعد تذكر أمام حجمها الآن بعد انتشار وسائل الاتصال الحديثة من أقمار صناعية وانترنت يعرض الصحيفة وموادها للعالم أجمع لتلغي الحدود وتوصل المعلومة للقارئ أينما كان، ولعل معرفة الأرقام الكبيرة لمرتادي مواقع الصحف الكبرى يوضح ما يعنيه التواصل مع معطيات الإعلام.. لقد أدرك العرب بالطبع المنحى التصاعدي لتأثيرات الإعلام لذا قررت دوائره الخروج من دائرة التباكي على واقع مرير للولوج إلى العالم الحديث الذي لا يكاد يقف كثيرا عند نقطة واحدة بل يسرع باجتيازها بسبب التطورات السريعة في كافة المجالات ولم تعد مناقشة حقيقة أن العرب لم ينجحوا في حماية نهضتهم التي بدأت في مصر إبان حكم محمد علي باشا،

والتي انتشر تأثيرها على بلاد الشام وباقي أرجاء السلطنة العثمانية مما كان يبشر باختراق السياج الذي حاول الغرب بنائه حول نواتج عصري النهضة والثورة الصناعية التي قفزت بها أوربا وبعض البلدان التي استفادت من إفرازاتها.. كاليابان مثلاً.. في الوقت الذي تقهقر فيه الواقع العربي بتأثير سلسلة الاحتلالات من العثماني إلى البريطاني والفرنسي والايطالي وغيرها.. ثم طائفة من الحكام الذين احتفظوا ببقايا الشخصية البدوية العربية لتظل العسكريتاريا هاجسهم الأول، متذرعين بذرائع شتى بدء من مقارعة الاحتلال

مرورا بالحفاظ على سلامة البلاد من التحرشات الخارجية ومحاربة المحتل الصهيوني وصولا إلى حقيقة قمع المواطن العربي وربطه بدائرة الحاكم فلم يعد ممكنا له أن يمتلك حدا أدنى من الحرية الذهنية وهذا ما كان عليه واقع الإعلام العربي... فبينما طورت المؤسسة الإعلامية الغربية أدواتها ظلت المؤسسة الإعلامية العربية رهينة قبضة الحاكم ومريديه..

وربما كانت النواتج العرضية لأحداث 11 أيلول ـ سبتمبر 2001 محركا للخروج من قمقم الإعلام الرسمي المطلق.. فقد تعرض الذهن العربي لاضطراب شديد.. بين ما تظهر على السطح من سياسات سدنة الحكم العربي وواقع الرفض العالمي للشخصية العربية والمسلمة والتعاطي معها كرديف للإرهاب وهذا ما نجحت وسائل الإعلام الغربية في غرسه وتأصيله.. وبين تغلغل الفكرة الإرهابية بين المواطنين بشكل أو بآخر، كرد فعل للمواقف الأمريكية والغربية المناهضة للمطالب العربية.. ظهر هذا في ردود الفعل العفوية لدى الكثير من العرب بعد أحداث أيلول مباشرة من تشفٍ وارتياح لما حدث في نيويورك وواشنطن.... ولم يرتق الإعلام العربي بطبيعة الحال لمستوى الحدث في إيضاح ملابساته ونقد وجهات النظر المختلفة للمواطن العربي فما بالك بالغربي الذي كان مستعداً لتلقي الأفكار العدائية

خاصة أن عقد التسعينات من القرن العشرين قدم له عدة كتب شكلت الإطار الفكري لظاهرة (الاسلامو فوبيا)، أي الهلع من الإسلام، وتعد كتب ككتاب (صدام الحضارات) لصموئيل هانتنجتون مفجرة لهذه الفرضية التي أخذت شكل نظرية رأت حتمية الصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ـ المسيحية اليهودية ـ ومن خلال نظرة لصحيفة الصنداي تلغراف في عددها الصادر بتاريخ 1990/6/5 نرى ما الذي صار الإعلام يقدمه للمواطن الغربي..

فقد حمل عنوانها الرئيس ـ هل يقبرنا الإسلام؟ ـ وفي نفس التاريخ نشرت صحيفة الصنداي تايمز افتتاحية عن التهديد الأصولي المسلم الذي يمتد من شواطئ البحر المتوسط في شمال أفريقيا إلى آسيا الوسطى وحدود الصين.. وفي نيسان عام 1992 نشرت صورة رجل يرتدي ملابس تقليدية ويقف أمام مسجد وهو يحمل بندقية بينما نشرت مجلة ـ تايم ـ الأمريكية تقريرا بعنوان ـ الإسلام .. هل يجب على العالم أن يخاف؟ ـ وعلى غلافها نشرت صورة مئذنة وإلى جانبها يد تحمل بندقية آلية.. إذن فقد أمسك الإعلام الغربي بفكرة صراع الحضارات وجعل منها الإطار النظري لستراتيجيا إعلامه..

بينما واصل إعلامنا طرح وجهات نظر زعمائنا وعموميات لا تسمن ولا تغني من جوع.. وبشكل متناثر تراه في بلد يأخذ صبغة ما تختلف عن بلد آخر في افتقار للنظرة الواضحة الرصينة..

لقد طرحت وسائل الإعلام الغربية تحليلاتها لشعار التحالف الدولي من أجل محاربة الإرهاب الذي رفعه الرئيس الأمريكي كلنتون ووافقه عليه العديد من زعماء العالم... وبينهم عرب وتلك مفارقة حقيقية، إذ إن ما عرضته وسائل الإعلام هي نتيجة أن (محاربة الإرهاب ليست حربا عسكرية فحسب بل هي حرب ثقافية في المقام الأول، وأن ما نادى به كلنتون في محاربة الإرهاب ما هو إلا شعار يحمل في طياته شن حرب عالمية شاملة ضد الإسلام لاقتلاعه)، وهذا ما جاء في مجلة اللوموند دبلوماتيك الفرنسية بعددها الصادر في ديسمبر 1992.. ولم تغير شيئاً اعتراضات الزعماء على تصريح الرئيس الأمريكي جورج بوش العلني من أن (الحملة الصليبية القادمة ستكون طويلة الأمد لتخليص العالم من الأشرار) .. فما زال الإعلام الغربي يتحرك منطلقا من فكرة بوش في كون العرب والمسلمين هم الأشرار الذين ينبغي تخليص العالم منهم.. وقبلها فكرة كلينتون في ضرورة شن حرب عالمية ضد الإسلام، وتعني ضمنا حربا ضد العرب لأنهم الحاضنة الحقيقية للإسلام... وإذا كان الغرب يتحدث عن استقلالية إعلامه فهل خرج الإعلام حقاً من دائرة ما تطبل له الإدارات الأمريكية وبعض الأوربية؟...

علينا الاعتراف أولاً بأن شعوب العالم لا تعرف الكثير عن العرب والمسلمين وقضاياهم، وما تعرفه في الواقع هو ما تلقته من وسائل الإعلام الغربية التي تعمد إلى التحريف والتضليل والإساءة.. ولعل أول ما ينتبه له مشاهد فلم (يوم الأحد الدامي)

مثلاً.. المرأة الإرهابية العربية التي تحاول قتل الآلاف من الناس بمن فيهم الرئيس الأمريكي... وفلم (الخطأ هو الصحيح) الذي أبرز إرهابيين عرب يريدون إسقاط قنابل نووية على نيويورك وتل أبيب ، وفلم (القرار التنفيذي ـ 1996 ـ الذي يحكي قصة خطف المسلمين لطائرة ركاب بعد قتل إحدى مضيفاتها ويعدون العدة لتفريغ كمية من غاز الأعصاب تكفي لقتل الملايين من الناس في واشنطن، ويصور فلم (أكاذيب حقيقية 1994) الفلسطينيين المسلمين على أنهم ساديون وقتلة يستهدفون الأبرياء من الأمريكان بل يقتلون القساوسة ويقومون بتفجير قنبلة نووية قبالة شواطئ فلوريدا.. وفي فلم (الحصارـ 1998) نرى أمريكا المسالمة تتعرض لإرهاب المسلمين الأشرار إذ يبدأ الفلم بتفجير موقف سيارات مركز التجارة العالمي في نيويورك..

ذلك الحدث الذي أفقد أمريكا براءتها وفتح أعينها المغمضة على الإرهاب القادم من الشرق الأوسط.. وهذا الخطاب الإعلامي ليس وليد اليوم بالطبع فقد قدمت السينما الأمريكية العربي في عشرينات القرن العشرين في صورة تاجر عبيد وحشي ثم قدمته في السبعينات شيخا بتروليا وما زالت تواصل تقديمه إرهابيا أصوليا متعصبا يصلي ركعتين ثم يقتل الأبرياء.. وصارت وسائل الإعلام الغربية تؤكد كثيرا بعد أحداث أيلول على تلك الصورة النمطية المضللة في ربطها الإرهاب بالإسلام وكونه دينا ضد الحداثة وفي أن العرب خارج إطار العصر وأنهم متخلفون،

وقد شاهدنا العربي في فلم (أطفال الرجال) الذي أخرجه ألفونسو كوارون بعد إعداده عن كتاب وضعه بي دي جيمس، شاهدناه في عام 2027 يرتدي العقال ويقود بعيره في شوارع لندن... لم يكتف إذن في طرح فكرة التخلف العربي بل يصر على أنه سيواصل تخلفه.. يجب أن نرى الواقع إذن.. فهناك حرب ثقافية متواصلة ضد العرب والمسلمين تبدأ بالكتب المدرسية وتستمر عبر الصحف والتلفزيون والمسرح والانترنت وصولا إلى السينما...

حتى أصبحت ظاهرة الاسلام فوبيا موضة تتداولها الأوساط الثقافية والعامة في الغرب.. وقد عملت وسائل الإعلام على تضخيم ذلك بالطبع من خلال المبالغة في إظهار عدد الغربيين الذين تأثروا بالفكر الإسلامي واعتنقوه.. والإشارة إلى وصول بعض المسلمين إلى مناصب رفيعة لتنبيه المواطن الغربي إلى الخطر القادم في عقر الدار الغربية... وإن حدث ثمة حدث سئ ينسب إلى مسلم أو عربي تقوم الكثير من وسائل الإعلام بعرضه وتكرار ذلك بدون مبرر أحياناً سوى غرسه في ذهن المواطن الغربي.. وقد أكدت وسائل الإعلام على الخلط بين التدين الإسلامي والحركات المتطرفة ـ الأصولية ـ ووضعت الكثير من العناوين المثيرة التي غدت في المحصلة تعني المسلمين والعرب دون غيرهم.. مثل الطابور الخامس، حصان طروادة، البرابرة، الوحوش، القنبلة الإسلامية.. والإعلام الغربي ذاته الذي يتشدق بدعاوى الحرية الفكرية يحاصر ويحارب المفكرين المتنورين الموضوعيين ويحاول أن يحجب كتاباتهم عن القارئ الغربي

كما حدث مع المفكر الفرنسي روجيه غارودي وما زال يحدث مع الفرنسيين بورجا وجوسلين سيزاري والبريطاني فيسك.. وهم متخصصون في الشأن الإسلامي والعربي..

المهاجرون العرب إذن حصان طروادة في عقر الدار الغربية، هذه الفكرة الأساسية التي تلقفها ألفونسو كوارون لينجز فلمه (أطفال الرجال) حين افترض بأن جملة من الأسباب أدت إلى أن تفقد النساء خصوبتهن وفي عام 2027 كانت قد مرت ثماني عشرة سنة لم تحدث حالة إنجاب واحدة لطفل.. ويصدم العالم بمقتل الطفل دييغو وهو أصغر إنسان على الأرض وكان يبلغ ساعة مقتله الثامنة عشر من عمره.. عالم بلا أطفال.. إنها النهاية لاريب.. ومع سير أحداث الفلم نرى بأن المهاجرين من عرب ومسلمين وبعض شرقيي أوربا.. صاروا كالصراصر يملئون الأرض البريطانية ويزاحمون المواطن على فرصه في الحياة الكريمة...

لذا تعمل الحكومة البريطانية على القبض عليهم كالجرذان وطردهم من بريطانيا، لقد أدرك البريطانيون أخيرا بأن الفوضى العارمة تعود في كبرى أسبابها إلى تدفق اللاجئين.. وفي معسكر بيكسيل حيث احتجز المهاجرون بغية ترحيلهم يقود العرب والمسلمون انتفاضة مسلحة يحملون فيها الشعارات التي كتبت باللغة العربية وبينها بعض الآيات القرآنية.. ولا يكتفون بحمل الشعارات بالطبع بل الأسلحة التي يطلقون نيرانها ثم يواجهون رجال الشرطة البريطانية في معركة ضروس.. لنتذكر فقط أن هذا يحدث افتراضا في عام 2027..

أي أن ماكنة الإعلام لا تكتفي بتنبيه المواطن الأوربي من خطر الطابور الخامس ـ كما تسميه ـ العربي والمسلم الآن بل بأنه سيكون السبب المباشر في انهيار بريطانيا مثلاً بعد سنوات ليست بعيدة... ومن البديهي أن المشاهد للفلم سيكون حاضنة فكرية ووجدانية لهذه الفكرة وربما يصدرها إلى آخرين لتغدو شائعة تؤكد على رفض العربي والمسلم والابتعاد عن فرص الحوار معه...

يرى المستشار الألماني السابق هيلموت شميدت بأن (المشكلة تكمن في أن الرؤية الصحيحة للإسلام غير واضحة وغير كافية لدى الغرب المسيحي) ...نعم إنها كذلك وهذا بسبب التقصير الكبير لوسائل الإعلام والفكر والثقافة العربية والمسلمة لكن عجلة التهميش والشطب والإلغاء الغربي لكل ما هو مسلم وعربي غير قادرة على التوقف.. لأسباب عديدة ليس المجال هنا لذكرها لكن دورانها لن تقارعه أية نهضة إعلامية عربية وإسلامية.. لأنه في كل يوم تحقق الكثير من الفتوحات في مجال تأصيل أفكارها المناهضة.. يزيد الطين بلة الواقع العربي والإسلامي وتفشي ظاهرة الإرهاب التي طالت العربي والمسلم قبل الغربي ـ الكافر ـ كما يحلو للأصوليين أن يسموا الغربيين... رغم أن أي موضوعي يستطيع أن يذكر الغربيين بأن الإرهاب متفش في مجتمعاتهم قبل ظهور الأصولية المسلمة بكثير.. ففي أمريكا كان العنف والإرهاب وما زالتا ظاهرتين تتمثلان في انتشار المجموعات المتطرفة والمتعصبة وما زال العالم يذكر جرائم منظمة ـ كوكلان كلاكس ـ في التصفية الجماعية للزنوج والهنود الحمر..

ولم تبلى بعد الصحف التي تحدثت عن تفجير أوكلاهوما في عام 1995 الذي حاولوا توجيه أصابع الاتهام فيه إلى العرب والمسلمين ثم عرف العالم بأن مقترفوه إرهابيين أمريكان.. وفي بريطانيا بلد الديمقراطية العريقة ما زال الايرلنديون يمارسون ما يعتبره الساسة البريطانيون إرهابا منذ أكثر من قرن.. وفشلت الديمقراطية الاسبانية الحديثة في القضاء على (إرهاب) منظمة ايتا الباسكية الانفصالية.. وليس غريبا ما ينخر البيت السياسي الأمريكي من فساد يبدأ من تمويل حملات انتخاب الرئيس وعمد الولايات الأمريكية ولا ينتهي بالشركات والدوائر الاقتصادية وحتى الاجتماعية..

لقد قدم الإعلام الغربي صورة افتراضية للعربي والمسلم حسبما أرادت أن تقدمه للمواطن الغربي الذي تأثر- في الواقعـ إلى حد كبير بهذه – البروباغاندا - فهل اكتفت بذلك؟.. كلا بالطبع... إنها تحاول باستقتال تقديم افتراضاتها جمبها الإنسان العربي والمسلم في عقر داره مستغلة يسر تداول وسائل الإعلام.. ولعل الدراسة التي أعدها الدكتور ياس خضير البياتي ـ الأستاذ في كلية المعلومات والإعلام والعلاقات العامة بشبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا ـ ترينا بأن وسائل الإعلام العربية التي تحاول أن تحاكي الشكل الإعلامي الغربي.. عبر استنساخ بعض المفردات الإعلامية كالبرامج التلفزيونية مثلاً..

صارت من حيث تدري أو لا تدري تساهم في نخر قيم المجتمع العربي وأنماطه الفكرية والمعتقدية وبرامج ـ تلفزيون الواقع ـ الذي يعتبر المادة الأكثر رواجاً في محطات التلفزيون الغربي عبر تقديمها ما يريد المشاهد الغربي متابعته من برامج تحرص هذه القنوات على جذب المشاهد إليها بغية نيل أرباح مضافة.. إلا إننا نرى القنوات الفضائية العربية تقدم برامج مماثلة تحصل عبرها على نسب مشاهدة عالية للنجاح المؤكد لمثل هذه البرامج المؤكد لكنها في الوقت ذاته تعمل على إشاعة بناء مفاهيمي جديد تتبناه الأجيال الصاعدة في المجتمع وتتعامل معه كواقع بديل لواقع تشير الكثير من الأصابع إلى إدانته.. دون تقديم أي بديل موضوعي عبر قنوات الفكر والإعلام العربي.. فهذه البرامج تستغل المسافة الرخوة بين رفض بعض المفاهيم الاجتماعية وعدم وجود بديل لتعمل على تكريس بدائل غريبة عن الواقع والمزاج والذهن العربي والمسلم.. وقد أظهرت الدراسة بأن (الأطفال والمراهقين والشباب يتأثرون بنتائج هذه الثقافة الإعلامية، ومن المحتمل إن تخلق برامج الفضائيات العربية الاضطراب الاجتماعي، وعدم الاستقرار في العلاقات العامة الاجتماعية، وتنمية الفردية والروح الاستهلاكيّة، والهروب من التصدي لواقع الحياة، والاستسلام له، والانبهار بالموديل الأجنبي على حساب الهوية الثقافية، وكذلك تراجع الانتماء للهوية وازدياد اليأس والإحباط)...

لقد تملك الهوس بالغرب الكثير من الشباب والمراهقين العرب والمسلمين.. الذين صاروا يرون الحياة في أمريكا وأوربا أمنية تدفعهم بالتالي إلى محاولة الهجرة إليها.. لكن الغرب في ذات الوقت الذي يعمل على إفراغ العربي والمسلم من محتواه يذكر بالخطر القادم من الشرق عبر تأكيده على رسوخ الفكرة السلبية في الذهن العربي والمسلم، فرغم عيشهم لسنوات على الأرض الغربية ما زالوا يمنعون بناتهم من ارتياد المدارس إن لم يغطين رؤوسهن.. ورغم القوانين المعارضة لذلك في الغرب لكن العرب والمسلمون يضربون نسائهم رغم أن الكثير من الدراسات والاستفتاءات تظهر أن ضرب النساء ظاهرة شائعة في المجتمع الغربي.. وقبل سنوات قليلة طافت تظاهرة نسائية ضخمة في شوارع اسبانيا ترفع شعار شجب ضرب النساء في اسبانيا.. وفي أمريكا ذاتها تبيح طائفة (المورمون) زواج رجالها بما يتجاوز الخمس عشرة امرأة.. وهل يوجد امتهان للمرأة أكبر من برنامج قناة أم 6 الفرنسية الذي يعتمد على فكرة اختيار شاب وسيم لزوجته.. حتى ظهر بمظهر شهريار فرنسا، فقد قدمت له التصفيات عشر فتيات يخوض في كل حلقة مغامرة مع إحداهن كي يختبر مشاعره نحوها.. وفي ختام الحلقة يقدم لها اعتذاره عن اختيارها زوجة له.. فتخرج الفتاة من السباق أمام أنظار العالم وهي تجهش في البكاء وربما تصاب بانهيار عاطفي.. ليتحول شهريار إلى مغامرة أخرى.. والبرنامج بالطبع واحد من برامج الواقع..

ربما يداعب هذا الحلم الشهرياري الغربي فيدفعه للتعاطي باستمتاع مع البرنامج التلفزيوني لكنه يغدو حلما لشكل الحياة التي يفتقد إليها المراهق العربي والمسلم الأمر الذي يدفعه للبحث عن بديل للحياة الغربية إن لم يحصل عليها فعلاً..

في فلم (أطفال الرجال) نرى بعض الإشارات التي تعمد المخرج وضعها بذكاء...ففي بيتجاسبر صديق بطل الفلم (ثيو) ـ الذي أدى دوره الممثل كل يفأون نرى لافتة كتب عليها لا تضربوا العراق.. ولا للحرب.. انه شخصية ثورية في حكاية الفلم لكنه في نفس الوقت يسرب لنا فكرة أن حرب العراق مستمرة حتى عام 2027 لأن العرب والمسلمون لا يحسنون حسم معاركهم.. لقد وضع الفلم شخصيات مثل جوليان التي أدت دورها الممثلة جوليان مور التي قادت مجموعة مسلحة للدفاع عن حقوق المهاجرين.. الذين لا يحسنون سوى التقاتل دوئما طائل كما ظهر في معركة معسكر بيكسل.. فالغربي هو من يدافع عن حقوقنا لأننا لا نحسن الدفاع عنها.. هذه أيضا فكرة حرص الإعلام الغربي على غرسها في أذهان متابعيه.. ولعل اللعبة الأدهى التي طرحها الفلم هي في أن الجنين الوحيد الذي غرس في أحشاء امرأة خلال السنوات الثماني عشرة المنصرمة كان ذاك الذي حملته ـ كي ـ وهي مهاجرة زنجية تعمل مومساً،

لذا فهي لا تعرف للجنين أباً.. لكنها والعالم برمته تتقدمهم جوليان ومنظمتها الثورية ـ فيش ـ وزوجها ثيو يعملون على حماية الجنين ـ أمل البشرية ـ وما تمكنت من قراءته في هذه القصة هو أن تغلغل المهاجرين في بريطانيا سرق من مواطنيها فرصة أن يكون الجنين بريطانياً.. لقد زاحم المهاجرون أبناء البلد الأصليين على كل شيء.. حتى على فرص تواصل الحياة...

ودعونا نخلص في نهاية هذا الموضوع إلى أن الأعلام الغربي عجلة تسير لتهصر أية أحجار صغيرة في طريقها إن لم يوقفها جدار صلب.. ولا سلطة لها القدرة على فرض أجندة ما أو منع دائرة إعلامية من طرح أفكارها سوى الفكرة الأكثر حقيقية والأفضل وصولاً... وهذه هي المسؤولية التاريخية الحقيقية للعرب والمسلمين.. إن كانوا يريدون الحياة على هذا الكوكب.. فمن الضروري الاعتراف أولا بأن ثورة التواصل وتقنياته غدت حقيقة واقعة وينبغي علينا أن نستوعب الواقع الحضاري الآني.. لنعرف بالتالي موقعنا ودورنا فيه.. يجب أن نكون حضاريين في تلقي وتقبل مثل هذه الأفكار.. بما يمكننا من الاستفادة منها والعمل على طرح رؤانا بالتشويق الذي يريده القارئ والمشاهد والمستمع سواء كان عربيا أم غربيا مسلما أم غير مسلم.. وفي ذات الوقت يجب أن نقبل فكرة أننا بحاجة إلى بناء ستراتيجي يبدأ من تغيير فكرة الحكم من فردي تعسفي إلى ديمقراطي.. يقبل الآخر ويحسن محاورته

فقد أدت سنوات مصادرة الفكرة إلى محوها وإضعاف جذورنا الحضارية.. علينا أن نعمل على تعميق وعي الشباب وإشاعة التعليم وترسيخ روح الحوار لا التقبل السلبي فحسب.. يجب أن نتعلم على التعامل الحضاري مع المعلومة كيفما كانت ايجابية أم سلبية.. كما يجب أن توضع خطة إعلامية جادة من قبل المفكرين العرب تتبنى تنفيذها الحكومات العربية تتضمن أولاً مواجهة الغزو الإعلامي والثقافي والحوار مع الإعلام الغربي بلغته ووسائله.. وتحصين الشباب بالدراسة والوعي والثقافة وتوجيه طاقاتهم إلى الاتجاهات الصحيحة.. إن أبرزما يهاجم به الغرب الأجيال العربية والمسلمة الجديدة هو عرض الفوارق بين واقع الإنسان المسلم والعربي وواقع الإنسان الغربي.. إنهم يعرضون الغربي مرفهاً.. سعيدا.. بلا كوابت في الحياة والعمل.. مذكرين العربي والمسلم بكوابته واضطهاده وفقره.. ولابد أن يعمل من بيده أمر الإعلام العربي والمسلم على توظيف السينما والتلفزيون والانترنت عبر إنتاج الأفلام والبرامج التي تقدم العرب والمسلمين بالصورة الحقيقية في مقابل المئات من الأفلام والبرامج التي تعرض وتبث يوميا لتشويه صورة العرب والمسلمين.. وإذا كان أولي الأمر من العرب والمسلمين يصرفون مليارات الدولارات على التسليح وغيره

مما لا يصب في خانة رفع الرصيد الإنساني والمعرفي والاقتصادي للمواطن فحري بهم أن يتذكروا بأن الآلة الإعلامية السوفيتية مثلاً كانت تطبع ملايين الكتب لتوزعها مجانا على القراء في شتى أصقاع العالم وبلغاتهم.. حتى عرف العالم برمته الفكر السوفيتي وأدبه وثقافته..

وقد وزع مشروع فرانكلين في أمريكا عام 1952 ثلاثون مليون كتاب أمريكي في سعيه لفرض الثقافة الأمريكية على الثقافة العربية وجعل المواطن العربي في موضع مقارنة بين الثقافة الأمريكية التي تروجها هذه الكتب والثقافة العربية التي تصفها بالتخلف والبعد عن الواقع.. ومثلما نتلقى الثقافات يجب أن نعمل على تصدير ثقافاتنا بشكل فاعل وواسع بدء من البحث العلمي والبحوث المشتركة وصولا إلى إنتاج المادة الثقافية العالمية.. كما يجب وضع خطة عربية إسلامية لإعادة تقييم وتقويم شبكات البث التلفزيوني والإذاعي.. بما لا يعني الرقابة على ما تقدمه لكن في وضع مفردات منهجية تعرف وتحدد غايات البرامج ومديات إيصالها.. ودراستها دراسة معمقة بغية تطوير طروحاتها.. وتنقية ما تقدمه للمشاهد...

ويجب استبعاد المواد الإعلامية والتعليمية التي من شأنها إثارة العداوة بين أتباع الحضارتين والابتعاد عن إظهارهما كنقيضين لا يلتقيان..

لقد أظهر لنا فلم أطفال الرجال ارتداد حضارة الغرب التي وصلت قمتها في قبولا لآخر واحتضانه إنسانيا وفكريا، لكنها أظهرت في الوقت ذاته عدم استيعاب الآخر- المهاجرون- لواقع الغرب الثقافي والاجتماعي والسياسي الأمر الذي عمل بالتالي على تهديم الغرب..

بعض وسائل إعلام الغرب تعمل على تأطير شرط اللاتلاقي والتنافر بين الحضارتين..

وتحاول دوما التذكير بأن انهيار الغرب سيكون على يد التخلف العربي والإسلامي في ظل التسامح الغربي.. فلنعمل إذن على أن نقلب الهرم.. لنظهر بالتالي طاقاتنا الفكرية وواقع أصالة حضارتنا التي طالما تغنينا بها.. لكن لم تتح لنا الفرصة الحقيقية لإظهارها مجسدة...

الفصل الثامن

الإعلام والمسلمون في بلاد الغرب

المبحث الأول الوجود الإسلامي في الغرب

الوجود الإسلامي في الغرب على نوعين: الأول مستوطن قديم كما هو في البلقان نتيجة للفتح الإسلامي لهذه المناطق, والثاني هجرة جديدة ابتدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر وازدادت بعد الحرب العالمية الثانية, وتسارعت ابتداءَ من الستينيات من القرن العشرين.

الهجرات الأولى غالبها اقتصادي بحت, وكان الهدف منها جمع ثروة ثم العودة للبلد الأم, لكن من عاد كانوا قلة والأغلب استوطنوا, سواء عن طريق استحضار أزواجهم أو - بعض الأحيان - الزواج من أهل البلد, وهذا أثر بشكل كبير في الأجيال الجديدة ومدى قربها أو بعدها عن الإسلام.

وهناك تفاوت ملموس من بلد عربي لآخر, من حيث جنسية المهاجرين وأعدادهم ودورهم الاجتماعي والاقتصادي.

الهجرات في المراحل المتأخرة (ابتداءَ من الثمانينيات) غلب عليها الجانب الإنساني والسياسي (لجوء) وأحياناً تتم لأسباب علمية, حيث فضل بعض حملة الشهادات العليا من الدول العربية الاستقرار في تلك البلدان لأسباب علمية بحتة.

ويُلاحظ أن الهجرة إلى العالم اللاتيني الجرماني, فرنسا وألمانيا خصوصاً, يغلب عليها الطابع الاقتصادي, وأنّ الهجرة إلى العالم الأنجلو ساكسوني, بريطانيا والولايات المتحدة وكندا, يغلب عليها الطابع العلمي, أما الهجرة السياسية فهي منتشرة في كل البلاد الغربية, بقدر تأزّم وضع حقوق الإنسان في البلاد العربية – الإسلامية.

أعداد ومنظمات المسلمين في الغرب:

أغلب المسلمين يتوزعون في أوربا وأمريكا الشمالية, ولا توجد إحصاءات دقيقة, خصوصاً أن الكثير من البلدان لا يذكر الدين في الإحصاءات الرسمية.

وتشير التقديرات إلى أن عدد المسلمين في أوربا يقارب الخمسين مليوناً, نصفهم في أوربا الغربية, وأكثرهم يتركز في فرنسا, حيث يقترب عددهم من الستة مليون, نصف هذا العدد – تقريباً – مولودون على الأرض الغربية, مما يؤهلهم لحمل جنسيتها, في أمريكا هناك تفاوت كبير في عدد المسلمين لكن الأرجح أنه يقترب من سبعة ملايين.

في المراحل الأولى للهجرة تركز اهتمام المسلمين المهاجرين على توفير احتياجاتهم الأساسية, ولأجل ذلك ظهرت بينهم "مجموعات تشاور" على شكل لجان لمتابعة شؤونهم وقضاياهم الخاصة بهم, وبمرور الوقت أخذت أعداد المسلمين بالازدياد, فتحولت هذه اللجان إلى منظمات وتشكيلات أكبر حجماً, إلاّ أنها لم تحمل في بداية قيامها صيغة إسلامية صرفة, بل أخذت تمارس نشاطها باعتبارها منظمات عرقية, ولكنها كانت على علاقة وصلة بالمساجد, وتقوم بنشاطات تعليمية يسيرة.

بعض المنظمات الإسلامية المعروفة في البلاد الأصلية أسست مكاتب وفروعاً في بلاد المهجر, وقد استطاعت من خلال ما تتمتع به من تنظيم وما تمتلكه من تجارب عملية سابقة, أن تكسب إلى جانبها في فترة زمنية قصيرة, المجموعات والمنظمات الابتدائية في المهجر.

ومن العراقيل والعقبات التي واجهت المسلمين في تأسيس المنظمات الإسلامية, المتطلبات القانونية التي تضعها الدول الغربية أمامهم, إذ أن معظم الدول الأوروبية تؤكد أن تمر عملية تأسيس الجمعيات والمراكز التعليمة والثقافية, وحتى الدينية, بمراحل وخطوات قانونية قبل أن يكون بالإمكان إضفاء الصبغة الشرعية عليها وتسجيلها لدى الحكومة بشكل رسمي, لذا كان عليها أن تقدم شرحاً حول تشكيلاتها الإدارية وقائمة المساعدات المالية الشهرية, وإيجاد مقر مناسب لمكاتبها وفروعها, واعتماد أسلوب الاقتراع المباشر لاختيار الأعضاء وفي إطار القوانين والضوابط الحكومية. المصادر المالية لهذه المنظمات تعتمد على تبرعات الأعضاء بشكل جزئي وعلى الدعم الخارجي بشكل أساسي, ذلك أن معظم أبناء الجاليةلا يزالون في وضع اقتصادي غير مساعد وليس بوسعهم أن يسدوا احتياجات هذه المراكز.

ولقد ظهرت في أوروبا منذ قيام الاتحاد الأوروبيّ في أوائل التسعينات, مؤسسات إسلاميّة ذات طابع أوروبيّ, تهتمّ بأحوال المسلمين في القارّة الأوروبّية كلها, مثل "منظمة رابطة الجاليات المسلمة في أوروبا" التي تأسّست في فرنسا, و"مجلس الإفتاء الأوروبيّ" الذي يتّخذ من مدينة كولن الألمانية مقراً له, و"الفيدراليّة العامّة لمسلمي فرنسا", كما اتّجه بعض المثقّفين المسلمين في أوروبا إلى إنشاء وسائل إعلام المختلفة التي تُخاطب المسلمين في أوروبا كافّة مثل مجلّة "الأوروبّية" وقناة "المستقلّة" التلفزيونّية, اللتين تستهدفان بالدّرجة الأولى المسلمين المقيمين في أوروبا.

واقع المسلمين في الغرب ومشكلاتهم

الزواج المختلط (بين المسلم والمرأة الغربية) مشكلة أساسية, والذي يتم غالباً لأسباب تتعلق بالإقامة, وكثيراً ما ينتهي بالطلاق, حيث يتعلق الأبناء بوطن أمهم باعتبار أنهم لا يعرفون شيئاً عن وطن أبيهم, بل إنّ هذا الأب ربما يكون قد حدّث بنيه عن وطن تسوده الديكتاتورية والفوضى,عن وطن بوليسي مرعب, باعتبار أنّ العديد من الآباء العرب والمسلمين هاجروا إلى الغرب لدوافع سياسية أو اقتصادية, وفي الوقت نفسه, فإّنهم يرون بأم أعينهم وطناً وفر لهم الأمن والطمأنينة والسلام, ويوفّر لهم راتباً منذ الصغر يتيح لهم شراء حاجياتهم. والأدهى هو زواج المسلمة من الغربي, وهذا انتشر في هولندا بشكل خاص, بسبب نشأة الفتاة المسلمة في البيئة الغربية وعدم قدرة الأب السيطرة عليها.

من المشكلات أيضاً انتشار الجهل بالإسلام وبتعاليمه, خصوصاً إذا علمنا أن أغلب المهاجرين, لاسيما الأجيال الأولى, كانت هجرتهم لأسباب اقتصادية, وهم من بيئات فقيرة, ويجهلون كثيراً عن الإسلام في بلدانهم, فما بالك إذا انقطعوا عن بلدهم الأم؟!

واقع المسلمين في الغرب هو انعكاس لخلفيتهم في بلدانهم , إضافة إلى عملية الدمج التي حدثت في المجتمع الغربي, مما أثر نوعية من الناس متباينة فيما بينها أشد التباين, ويزداد هذا الأمر عبر الأجيال الجديدة التي نشأت في هذه البلدان.

إن مما يُخجل, في النشاط التجاري لبعض المسلمين في الغرب, أن معظم المحلات التي يملكها عرب ومسلمون لا تستنكف أن تبيع المجلات والأفلام الخلاعية والسجائر المهربة, وأمّا بيع المخدرات فقد تخصص فيه العديد من العرب والمسلمين, وهذا لا يعني أنّه لا يوجد طبقة ملتزمة بأخلاقيات حضارتهم وتحاول تأكيد العكس عما يشاع عن العرب والمسلمين, لكنّ المشكلة تكمن في أنّ تكرر الأعمال الإجرامية من بعضهم يشوه الصورة عن الجميع.

من الطرائف أن شرطياً سويدياً أوقف في يوم من الأيام سائقاً مسلماً لإجراء فحص التأكد من عدم شربه للخمر وهو يسوق سيارته, فقال هذا السائق المسلم للشرطي السويدي: أنا مسلم, فأجابه الشرطي السويدي بقوله: لقد قالها غيرك كثير قبل هذا وكانت بطونهم ممتلئة بمختلف أنواع الخمور.

لقد أساء بعض المسلمين في الغرب إلى دينهم أكثر مما أساءت إليه المنظمات المتخصصّة في نحر الإسلام .. التصرفات السيئة والمشينة لبعض المهاجرين من المسلمين في الغرب: من تورط في شبكات الجريمة والاتجار بالمخدرات, أو العيش عالة على دافعي الضرائب الغربيين, والتحايل على القوانين, والركون الطوعي إلى البطالة, والعيش على الإعانات الاجتماعية, أو الانخراط في عصابات الجريمة المنظمة, أو في جماعات دينيةأو سياسية متطرفة . تلك التصرفات تشعر المجتمعات الغربية بأنها مهددة في أمنها وهويتها الثقافية والدينية والاجتماعية, بما يزيد من تغذية المخاوف لديها من الأجنبي ومن أبناء الأقليات.

نظرة الغربيّين إلى العرب والمسلمين:

في السابق وعندما كان الغربيون يريدون معرفة أي تفاصيل تتعلّق بالعالم العربي والإسلامي, أو السلوك الاجتماعي للعرب والمسلمين, كانوا يعودون إلى المراجع الفكرية والثقافية التي وضعها المستشرقون, الذين احتكوا بالجغرافيا العربية والإسلامية وكتبوا انطباعاتهم عما شاهدوه في الشرق, الذي يظن بعضهم في الغرب أنّ علاء الدين وفانوسه السحري ما يزال يقيم فيه, ولم تساهم هذه الدراسات في تبيان الصورة بشكلها الصحيح عن العرب والمسلمين, وظلّ الغربيون العاديون يعرفون النزر اليسير عن العرب والمسلمين.

ومع تدفق العرب والمسلمين المهاجرين على الغرب, واستيطانه بشكل ملفت للنظر في المدن والعواصم الغربية, بات في وسع الغربيين أن يحتكوا بالحالة العربية والإسلامية بشكل مباشر, وأن يطلعوا عن كثب على سلوك وأخلاق ونفسية العرب والمسلمين, وللأسف الشديد يمكن القول: أنّ الغربي الذي كانت في ذهنه صورة سلبية عن العرب والمسلمين جرّاء قراءات معينَة, فإنّ هذه الصورة ازدادت رسوخاً وتأكدت بشكل كامل.
المناهج الدراسية في الغرب تقدم صورة مقلوبة بمعنى الكلمة ومشوهة جداً عن الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم ونعته بالتعصب والتخلف ومحاربة مظاهر التمدّن, وذلك بهدف رسم سورة سلبية عن المسلمين في أذهان الرأي العام الغربي, ومن ثم غرس روح الكراهية لديه إزاء الإسلام, كما تستهدف زرع بذور التشكيك لدى أطفال المسلمين إزاء دينهم, وجعلهم يشعرون بالنقص بسبب انتمائهم للإسلام.

المسلمون والعمل السياسي:

يتمتّع المسلمون الذي يعيشون في الغرب, سواء الذين يحملون جنسية البلد الغربي الذي يقيمون فيه أو المقيمون إقامة دائمة فيه, بنفس المزايا الدستوريّة والقانونية والحقوق التي يتمتّع بها الإنسان الغربي الكامل وبدون نقصان, ويحثق للمسلمين الانضمام إلى أكبر الأحزاب السياسيّة الفاعلية,

سواء تلك التي في الحكم أو في المعارضة, كما يحقّ للمسلمين الذين يتمتّعون بحق المواطنة تأسيس أحزاب سياسيّة أو جمعيات ثقافية واجتماعيّة وغيرها, أو تأسيس جرائد ومجلات ووسائل إعلامية مسموعة ومرئية, كل ذلك متاح وتكفله القوانين التي لا تضع أيّ قيد في طريق العمل السياسي أو الإعلامي أو الثقافي.

وعلى الرغم من كل هذه الحريّة المتاحة والمعطاة لكل من يحمل حق المواطنة الغربيّة, إلاَ أنَ المسلمين

المقيمين في الغرب لم يستفيدوا من هذه الأجواء والفضاءات السياسية الحرّة إلاّ بمقدار اثنين بالمائة, كما تفيد العديد من البحوث الغربيّة.

لا شك أن هناك مشكلة أساسية حالت دون الإفادة المطلوبة, وهي أن الكثير من المسلمين المقيمين في الغرب يفتقدون الثقافة التي تؤهلهم للمشاركة السياسية, والكثير منهم من أصول عمالية بالكاد يجد لقمة العيش, والسياسي - في نظرهم - ترف .

وهناك رأي آخر يذهب إلى حرمة المشاركة السياسية, ويؤصل لذلك شرعياً, على أساس أنها ديار كفر ولا يمكن أن يكون المسلم جزءاً من النسيج السياسي الكافر.

وهناك بعض آخر من قيادات المسلمين في الغرب يرى أن المشاركة السياسية يجب أن تكون ضمن أحزاب إسلامية, حتى يحقق أهداف المشاركة, وهذا الأمر متعذر حالياً لضعف ثقافة المسلمين وقلة عددهم.

المبحث الثاني مسلمو الغرب والإعلام

يتقاسم التأثير على عقل الإنسان الغربي اثنان: الأول التربية المدرسية والثاني الإعلام. لم يكن الإسلام – كما يعرض في مدارس الغرب –إلا بعض الطقوس والخزعبلات منسوبة إلى بدوي في الصحراء التقي بعض اليهود والنصارى ونقل عنهم بعض النصائح والإرشادات, ولم يتوان هو شخصياً عن التمتع بالنساء, وكانت الحرب هدفاً بالنسبة إليه, منها يقتات وعلى هديها يسير.

في جانب الإعلام لا تخرج الصورة عن الإسلام عن المتداول في المدارس, مع إضافة خاصة بواقع المسلمين المعاصر, من تخلف, وأخلاق رديئة, وحب للدماء, وبطش بالمرأة, معاداة لحقوق الإنسان, ووحشية وهمجية قلما يخلو منها مجتمع من مجتمعات المسلمين, ولا يكاد يخلو كتاب أو برنامج تلفزيوني أو مقال ينشر عن الإسلام إلا وتحدث بإسهاب عن الجهاد, وكأنما أصبحت كلمتا "إرهاب" و "جهاد" مرادفتين لكلمة إسلام.

الإعلام الغربي يقوم على ترسيخ صور نمطية عن الذات و (الآخر): الذات باعتبارها رمزاً للتقدم والنجاح والتحضر, و (الآخر) باعتباره أقرب إلى التوحش والبدائية وقلة الحضارة, وتقوم وسائل الإعلام في معظم الدول الغربية بالتركيز على العديد من القضايا التي توقظ المشاعر العنصرية في الضمير الأوروبي,

مثل قضايا اللجوء, والهجرة, والجماعات المتطرفة في الغرب, وتصوير المجتمعات الأصلية للأقليات العرقية والدينية – التي تعيش في الغرب – باعتبارها مجتمعات للحروب والتخلف والعنف والإرهاب, تصنع هالة من التوجس والخوف والانطواء تجاه الأجنبي "البربري"أو "المتوحش" القادم إلى قلب الجنة الغربية من أجل إفسادها وتدميرها.

وتعتبر صورة العرب والمسلمين المشوهة - والمقترنة في الإعلام الغربي بكل ما هو قبيح وسيئ - أحد أبرز المظاهر على دور الإعلام والتعليم ومختلف أجهزة الثقافة الشعبية في إنتاج الكراهية والحقد على العرب والمسلمين لدى الغربيين, وهي الظاهرة التي تعرف اليوم في الدراسات الاجتماعية الغربية باسم "الإسلام وفوبيا" أي الخوف والتخويف من الإسلام, وتصويره باعتباره بعبعاً يهدد الحضارة الغربية.

بعد أحداث سبتمبر أصبح الإسلام والمسلمين هو الشغل الشاغل للإعلام الغربي, في الأيام التالية لوقوع التفجيرات, بدأت الصحف البريطانية والأمريكية تتحدث عن شبكة إرهاب إسلامية ربما تكون منتشرة في أوروبا, وقد ركزت وسائل الإعلام والتقارير الصحافية على أنباء الاعتقالات وحملات التوقيفات, التي طالت عناصر إسلامية في مختلف الدول الأوروبية. ففي بروكسيل،

كما أظهرت الصور, أوقفت الشرطة أربعة أشخاص ينتمون للتيار الإسلامي, وكذلك أوقفت شخصين في روتردام بهولندا, وقامت السلطات في هامبورج بمداهمة عمارة سكنية يقطنها إسلاميون.

وظهرت لقطات امرأة منقبة تحمل طفلها تسير في حراسة الشرطة لترد على الاستجوابات المعروضة أمامها, ورغم أن معظم الأشخاص الموقوفين ثبت – فيما بعد – أنه لم يكن لهم أيه علاقة بالهجمات على مركز التجارة العالمي, فإن ذلك لم يحتل أي أهمية تذكر بالنسبة للصحافيين الذين أكتفوا بالإشارة للتوقيفات من دون ذكر نتائج التحقيقات.

الكثير من العبارات المهيجة ذكرتها وسائل الإعلام الغربية مثل "المسلمون قادمون", "الغزو العربي لأوربا" , "أكره الإسلام", و"الحفاظ على قيم الغرب التي يهددها الإرهابيون", "الغرب المتحضر الديمقراطي في صراع ضد القوى الظلامية التي تحتقر الغرب", "الإسلام والسيف", "استيقظ يا محمد فقد أصبحوا مجانين", "الإرهاب الإسلامي".

صحيفة بريطانية جادة (تلغراف) نشرت سلسلة مقالات لمدة عشرين يوماً عن الإسلام – كديانة – ولا تفرق بينه وبين المسلمين, وفي إحداها يشير الكاتب إلى قواسم مشتركة بين المسلمين والكلاب, وإن الأقلية المسلمة ربما تهدد الغرب.

وعندما يتم اعتقال أشخاص يوصفون بأنهم مسلمون, لأنهم ينتمون إلى الإسلام يعلن ذلك على الصفحات الأولى, مثلاً في بريطانيا تم اعتقال 570 مسلماً بشبهة ارتكاب أعمال ضد القانون, لم توجه التهم إلا إلى 97 منهم, ولم يدن إلا 14 منهم بقانون مازال سرياً لا نعرفه, وأدينوا لتهم غير الإرهاب, التأشيرات والهجرة, أيضاً الإعلام البريطاني يضخم أشخاصاًلا يمثلون المسلمين ولا غالبيتهم.

لقد أصبح الهجوم على الإسلام في الإعلام الغربي - عقب أحداث سبتمبر - وسيلة سهلة لزيادة التوزيع, فالصحافة الفرنسية زادت مبيعاتها بنسبة تفوق 15% للأعداد التي تتضمن هجوماً على الإسلام والمسلمين, مما دعا أشهر صحيفة فرنسية (لوموند) لتخصيص ملف عن الإسلام نشر في عدة حلقات, وكذا صحيفة لوبوان (البحث عن الحقيقة) تضمن هجوماً شرساً على الإسلام والقرآن.

ورغم حيادية وسائل الإعلام الغربية - كما تدعي - ألاّ أنها دائماً تميل لمصلحة تشويه الإسلام. أذاعت القناة الثانية السويدية برنامجاً حول الحجاب بمشاركة العديد من المحجبّات من أصول عربية وإسلامية, والعديد من السافرات أيضاً من أصول عربية وإسلامية, وفيما كانت فتيات مسلمات يدافعن عن حجابهنّ كانت سافرة إيرانية ترأس تحرير مجلة نسويه مغمورة في السويد تتهم الحجاب بكونه ليس فريضة إسلامية بل شعار سياسي لمجموعة من المتعصبين الذين لا يؤمنون بالديموقراطية.

وعندما يتصل الأمر بتصحيح ما نشرته وسائل الإعلام فإن كثيراً من الجرائد الغربّية لا تقبل بتاتاً نشر مادة تصحيحّية لمادة إعلامية نشرت عن الإسلام, أو قضيّة تتعلق بالإسلام, كقضية الحجاب أو الجهاد ومغزاه في الإسلام.

بالطبع ليس الجانب الإعلامي مظلماً دائماً, فقد أتيح عرض الإسلام أحياناً بطريقة موضوعية من قبل بعض القيادات الإسلامية في أوربا,ولا يكاد يمضي يوم واحد دون برنامج إذاعي أو تلفازي, وخصّصت بعض الإذاعات مساحة زمنية واسعة لبثٍّ برامج تضمنت ترجمة معاني سور كاملة من القرآن الكريم, مع بيان أهم نقاط الاحتكاك مع الديانات الأخرى وما يتعلق بالجهاد, وتعدَّدت الملاحق المخصصة للإسلام, وبعضها بمشاركة أقلام من المسلمين كما حدث في ألمانيا, في الصحف اليومية والأسبوعية الرئيسة.

المبحث الثالث المسلمون في أمريكا

رغم الإشارات المتعددة لحضور المسلمين منذ اكتشاف أمريكا وما أعقبه من جلب للعبيد (ومنهم بعض المسلمين والذين ذابوا بعد ذلك في المحيط النصراني) إلا أن الهجرة الحقيقة بدأت منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين, خصوصاً من بلاد الشام, ثم تباطأت بعد ذلك, لكن بعد الحرب العالمية الثانية بدأ وصول بعض المسلمين من أوربا الشرقية والقليل من القارة الهندية.

في الستينات حدثت فورة في الهجرة لأسباب اقتصادية, لكن رافقها الجانب التعليمي لدى بعضهم, وكان المهاجرون من بلدان عربية وإسلامية مختلفة, وفي الثمانينات اندفعت موجات جديدة من العراق وإيران لأسباب إنسانية وسياسية.

وفي التسعينات هاجر بعض المسلمين من ماليزيا واندونيسيا وكذلك من الهند وباكستان وأغلبهم من التقنيين والعلماء.

أما أصول المسلمين, فحسب دراسة صدرت عن مركز هارد فورد للأبحاث الدينية في أمريكا فهم كالتالي:

عرب 25%, القارة الهندية 33%, أمريكيون أفارقة 30%, أوربيون مسلمون 2%, جنوب شرق آسيا 2%, أخرى 5%.

أما المسلمون السود فقصتهم تستدعي الإشارة, فعندما أسلم "أليجا محمد" لم يحمل من الإسلام إلا أسمه وبعض الرموز اليسيرة, وكان يرى الإسلام دين السود, وهو النبي المرسل لهم. كانت النقلة لـ"أمة الإسلام" عندما اهتدى "مالكوم إكس" إلى الإسلام وبدأ بالطرح الصحيح للدين, مما تسبب في مقتله بعد فترة يسيرة, كان خليفة "أليجا" ابنه قد اكتشف بعد موت والده خطأه وصواب "مالكوم إكس" مما دعاه إلى إحداث تغيير في "أمة الإسلام" نحو النهج الصحيح, لكنه لم يصادف نجاحاً كبيراً فانقسم الأتباع وبقي بعض منهم على خرافاته وضلاله, لكن الحركة - بوجه عام - بقيت ذات حضور في وسط السود, وإن غلب عليها التقوقع عن بقية المسلمين والانعزال عنهم.

في مدينة نيويورك, كان الإسلام حاضراً وظاهراً لمدة تزيد عن قرن كامل, وكانت مقراً لمجموعة متنوعة كبيرة من الجماعات الإثنية, وكان من بين سكانها المسلمين بحارة سفن تجارية رئيسة, شيكاغو, بولاية إلينيوي, كانت مكان سكن مُبكر للمهاجرين المسلمين, ويدعي بعضهم أنه كان يقطنها عدد من المسلمين في أوائل القرن العشرين أكثر من عدد المسلمين في أي مدينة أميركية أخرى.

وتشير دراسة أمريكية إلى أن من بين الملايين السبعة المسلمين هناك 36% معتدلون, 27% ليبراليون, 21% محافظون, أكثر من ثلثهم ولدوا في الولايات المتحدة, وهم من بلدان متعددة تصل إلى 80 بلداً.

ونظراً للخليفة الثقافية والعلمية للكثير من المهاجرين المسلمين إلى أمريكا (بخلاف أوربا) فإن البعد المؤسساتي في العمل وتنظيم شؤونهم بدأ منذ وقت مبكر وتطور مع الزمن, وهي من الكثير بحيث يصعب حصرها, فأغلبها جمعيات محلية صغيرة, لكن هناك بعض المؤسسات السياسية والإسلامية العامة مثل: مجلس الشؤون العامة الإسلامية MPCA, المجلس الإسلامي الأمريكي AMC, مجلس العلاقات الإسلامية الأمريكية CAIR, التحالف الإسلامي الأمريكي AMA, التجمع الإسلامي IQNA.

تأسيس هذه المؤسسات جاء أيضاً إيذاناً ببدء مرحلة جديدة من مراحل وجود المسلمين في أمريكا, مرحلة تتخطى الاستجابة للحاجات الدينية والاجتماعية الأساسية,

مثل المساجد والمدارس والمؤسسات الاجتماعية والثقافية إلى بناء القوة السياسية والإعلامية للمسلمين الأمريكيين والتحرك الدؤوب لتنفيذ برنامج عمل مشترك وواضح يقوم على أربعة محاور رئيسة, هي:

مكافحة محاولات تشويه صورة الإسلام والمسلمين بالإعلام الغربي, واستبدال الصور السلبية بأخرى إيجابية.

زيادة وعي المسلمين الأمريكيين بحقوقهم المدينة وخاصة فيما يتعلق بحقهم في ممارسة دينهم بمختلف المؤسسات العامة الأمريكية, والدفاع عن تلك الحقوق من خلال جهد منظم وعملي.

تشجيع المسلمين الأمريكيين على المشاركة في الحياة السياسية الأمريكية واستخدام حقوقهم المكفولة دستورياً, خاصة التصويت وحرية الرأي والتعبير وحرية التنظيم السياسي والترشيح لتوالي المناصب السياسية.

العمل على التأثير على السياسية الخارجية الأمريكية لتطوير الموقف الأمريكي من قضايا المسلمين المهمة وعلى رأسها قضية فلسطين وقضية كشمير وقضايا الأقليات المسلمة المظلومة في بلدان كيوغسلافيا السابقة وروسيا.

انعكاسات أحداث سبتمبر:

كانت الأحداث صدمة للجميع, وبالأخص المسلمين, لأن من قام بها - حسب زعم الإدارة الأمريكية - هم من المسلمين ممن يحملون فكر الجهاد ضد الغرب الكافر وعلى رأسه أمريكا, بالطبع كان الشأن الأمني هو الهاجس, وكان المسلمون مستهدفين.

في المرحلة الأولى كانت الصدمة والذهول من الحدث مع البحث المضني عن الفاعل ودوافعه, اما في المرحلة الثانية - بناءَ على ما رشح من وسائل الإعلام والتقارير الرسمية بارتباط الحدث بمجموعة شرق أوسطية (مسلمة) متطرفة - فكان رد الفعل الغضب والهيجان الشديدوالدعوات المتكررة بالرد العسكري (ولم تدخر الإدارة وسعاً في ذلك, فقد هاجمت حكومة طالبان وقضت على آلاف الأفغان). أيضاً وقعت اعتداءات على أفراد مسلمين (أكثر من 400 اعتداء في الأسبوع التالي لأحداث سبتمبر) أو حتى آسيويين, ونزع حجاب بعض المسلمات, وتكسير محلات لبعض المسلمين, وإيذاءات جسدية جسيمة لبعض آخر, فضلاً عن الازدراء وألفاظ السب والشتم, وفي أدنى الأحوال التخوف والريبة من المسلمين. بالطبع منظماتهم أصبحت محل شبهة, وأعمالهم الخيرية محل اتهام, وأنشطتهم محل متابعة.

رافق ذلك بعض المواقف الحكومية والتي غالبا ما يقصد بها المسلمين مثل :

التوسع في تعريف السلوك الإرهابي ليشمل بعض السلوكيات مثل "إرسال أموال لمنظمات إرهابية" والتوسع في تعريف الضالعين في أعمال الإرهاب ليشمل الأفراد الذين ساعدوا من ارتكبوا أو خططوا للقيام بعمليات إرهابية, سواء كانت تلك المساعدة عن علم أو كانت على غير علم.

التوسع في التنصت الهاتفي والإلكتروني على المشتبه بضلوعهم في علميات إرهابية, مراقبة التجمعات الجماهيرية اليومية, وتسجيل صور المشاركين فيها وخصائصهم في قواعد معلوماتية ضخمة ومقارنتها بصور المشتبه بهم.

الحفاظ على سرية الأدلة التي يتم على أساسها القبض على المشتبه بهم والتحقيق معهم, وخاصة في قضايا الهجرة.

التعقب والقبض والترحيل للمهاجرين المقيمين بصفة غير قانوني بالولايات المتحدة دون أدلة معلنة, ودون المرور بالمسار القضائي العادي, لأن هؤلاء المهاجرين – في ظن وزارة العدل الأمريكية – أكثر استعداداً للقيام بسلوكيات تضر بالأمن القومي الأمريكي أو تسهيل مثل تلك السلوكيات.

من جانب آخر أشارت صحيفة واشنطن بوست (2002/5/19م) إلى أن العديد من المسلمات أقبلن على ارتداء الحجاب بعد أحداث سبتمبر, والسبب الرئيسي هو تعرض الدين الإسلامي للسباب, وهذه الظاهرة أوضح ما تكون في الجامعات, حيث أثارت الحملة الدعائية ضد المسلمين اهتمامهن بدينهن فأسرعن للتعرف على الإسلام وارتداء الحجاب.

ورغم إطلاق بعض المسئولين عبارات تنم عن التسامح مع المسلمين الأمريكيين أو المقيمين منهم إلا أن الواقع أن هناك العديد من التصريحات العنصرية من أعضاء في الكونغرس وشخصيات دينية (مثل الأب غراهام الذي وصف الإسلام بأنه دين شرير وعنيف ولا يدعو إلى الرب نفسه, والقس فاينز الذي قال: إن محمد كان شاذاً مع الأطفال ومصاباً بمس من الشيطان), أيضاً تم احتجاز أكثر من 1200 عربي ومسلم على خلفية الاعتداءات, كما قام FBI بإجراء مقابلات مطولة مع أكثر من 8000 شخص من أصول عربية وإسلامية.

الجانب الإيجابي للأحداث:

بالطبع ليست جميع الأمور سيئة, فالأزمة كان لها وجه إيجابي:

أولاً: كشفت الأزمة عن بعض الإيجابيات الراسخة في علاقة المسلمين والعرب الأمريكيين بمجتمعهم الأمريكي, تمثلت في رسائل التأييد والتشجيع التي تلقتها المنظمات المسلمة والعربية من قبل السياسيين الأمريكيين, وباقات الزهور التي سارع المواطنون الأميركيون بوضعها أمام المساجد بمختلف أنحاء أميركا, وبعض التغطية الإعلامية الإيجابية لجهود المسلمين والعرب الأميركيين في مساعدة بلدهم أميركا على الخروج من أزمتها رغم ما يتعرضون له من موجة عداء مضاد مدانة.

وأهم من ذلك نشاط المسلمين والعرب الأميركيين غير المسبوق بمختلف الولاياتالأميركية في تقديم قضيتهم العادلة للإعلاميين والسياسيين الأميركيين أثناء الأزمة الراهنة, والتفافهم حول منظماتهم المحلية والوطنية, وإحساسهم المتزايد بضرورة تفعيل دورهم الإعلامي والسياسي في أميركا لاستئصال جذور العداء للإسلام والمسلمين من المجتمع الأميركي.

لقد فتحت الأزمة أمام المنظمات المسلمة الأمريكية أبواب أكبر المؤسسات السياسية والإعلامية الأمريكية, بل إن الرئيس الأمريكي نفسه التقى بالمنظمات المسلمة الأمريكية مرتين خلال الأسابيع الثلاثة التالية للحادي عشر من سبتمبر, أضف إلى ذلك تمييز الرئيس الأمريكي والعديد من مساعديه بين الإسلام وبين مرتكبي الحوادث الإرهابية الأخيرة.

ثانياً: أوجدت الأزمة شعوراً بالتوحد والتحدي داخل المجتمع المسلم الأمريكي, وعلى الرغم من أن التحدي الذي خلقته الأزمة قد يخيف العديدين ويدفع بعضهم إلى ترك الولايات المتحدة,إلا أنه زاد من ارتباط العديد من المسلمين والعرب بعضهم بعضاً والتفافهم حول مؤسساتهم, كما ظهر في إقبال المسلمين الكبير على تلبية دعوة منظماتهم ومساجدهم لهم في أكثر من مناسبة أو حدث خلال الأسابيع الأخيرة.

ثالثاً: مثلت الأزمة فترة انقطاع في عقلية المواطن الأمريكي (المسلم وغير المسلم) جعلته يفكر في علاقته بالإسلام والمسلمين بشكل جديد وغير مسبوق, فقد تحدثت جريدة USA Today الأمريكية الشهيرة في عددها الصادر يوم السابع عشر من سبتمبر عن نفاذ الكتب المتعلقة بالإسلام والشرق الأوسط من مكتبات الولايات المتحدة, مشيرة إلى اهتمام الأمريكيين المتزايد, بمناقشة الإسلام وعلاقة الشعب الأمريكي بأبناء الشعوب الإسلامية.

الأمر نفسه حدث مع العديد من المسلمين المقيمين في الولايات المتحدة, فقد دفعتهم الأزمة وما تضمنتها من هزة إلى مراجعة المصادر والمؤسسات الإسلامية للبحث عن أجوبة لما أثارته الأزمة من تساؤلات عن الإسلام.

تحديات سياسية:

على الجانب الأخر خلقت الأزمة أمام مسلمي أمريكا تحديات سياسية كبيرة, من ذلك:

أولاً: أوجدت الأزمة ما يشبه حالة طوارئ غير معلنة تسيطر على تصرفات وعقول المواطنين الأمريكيين, وأصبحت مقوله "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة" أحد المقولات الأساسية المحركة للرأي العام الأمريكي خلال الفترة الراهنة, وخلال فترات الطوارئ يصعب التنبؤ بالسياسات, وتقل أهمية المحافظة على الحقوق والحريات الفردية, ويبرر السياسيون لأنفسهم سلوكيات كان يستحيل عليهم التفكير فيها قبل الأزمة, وقد صيغت خلال هذه الأزمة العديد من القوانين المتعلقة بتحقيق أمن أمريكا على الصعيدين الداخلي والخارجي.

ثانياً: أوجدت الأزمة "عدو شعبي عام" للشعب الأمريكي وهو المتطرف أو الإرهابي المسلم, الذي أصبح يمثل لرجال الشارع الأمريكي أحداث أساطير العداء والشر, وقد تستخدم تلك الأساطير لتخويف رجل الشارع الأمريكي البسيط من الإسلام والمسلمين, بل إنها قد تستخدم لتخويف كبار السياسيين من كل ما هو إسلامي أو مسلم.

ثالثاً: الأزمة فتحت الباب للوبي المعادي للإسلام لإخراج ما في جعبته من اتهامات للإسلام والمسلمين, وقد زادت تلك الاتهامات بعد مقابلة الرئيس الأمريكي مع قادة المنظمات المسلمة الأمريكية,

حيث شن هذا اللوبي حملة انتقادات واسعة ضد الإدارة الأمريكية لمقابلتها المنظمات المسلمة, وعلى المنظمات المسلمة وقادتها, مستخدمة نفس الحجج الواهية التي طالما استخدمت في الماضي لتشويه السمعة, والتيلا تعدو أن تكون تلاعباً بالألفاظ والأفكار لمنطق اللوبي الإسرائيلي في نقد الجالية المسلمة الأمريكية.

المبحث الرابع المسلمون في السويد

السويد ليست من دول أوربا القديمة, فهي من دول أوربا الشمالية المنعزلة, وشبه الجزيرة التي تضمها مع فنلندا حيث كانت موطن "الفايتنج", الشعوب القبلية المتوحشة والتي عاثت في أوربا قديماً تخريباً وتدميراً.

الوجود الإسلامي في هذا البلد حديث, مقارنة بدول أوربا, لكن أحد الرحالة المسلمين وصل منذ بضعة قرون لهذه البلاد ووصف حال أهلها ومدى وحشيتهم.

كانت البداية بعد الحرب العالمية الثانية بأفراد قلائل من التتار لكن في الستينيات بدأت هجرة عمالية كبيرة من الأتراك واليوغسلاف خصوصاً فاق عددهم خمسة عشر ألفاً في نهاية العقد. في السبعينيات ازدادت موجة الهجرة وشملت دولاً عديدة, عربية وإسلامية من بنغلاديش شرقاً حتى لبنان غرباً, حيث تجاوز عددهم الخمسين ألف نسمة.

استمرت الهجرة في الثمانينيات وشملت دولاً جديدة مثل إيران والعراق حتى تجاوز عدد المسلمين المائة وخمسون ألف نسمة. في التسعينيات استمرت الهجرة وشملت البلدان ذات الكوارث مثل الصومال والبوسنة, وبينما كانت الهجرة الأولى عمالية كانت التي تليها سياسية بالدرجة الأولى, والأخيرة نتيجة العوامل الإنسانية.

ويقدر عدد المسلمين حالياً 400 ألف نسمة, وفي الإحصاءات الرسمية يجاوز 350 ألف نسمة, حيث يمثل المسلمون 6% تقريباً من عدد السكان الذي يقارب التسعة مليون نسمة.

تم تأسيس أول اتحاد إسلامي في مدينة مالموا جنوب السويد عام 1975م واعترفت الحكومة به رسمياً.

مع تكاثر المسلمين وتنوع مذاهبهم وأعراقهم وبلدانهم شكلوا العديد من الجمعيات الإسلامية للحفاظ على هوياتهم وجمع شتاتهم, لكن الحكومة السويدية اعترفت بثلاث فقط بناء على تقصي لواقع الجمعيات, وهي: رابطة الجمعيات الإسلامية في السويد, اتحاد مسلمي السويد, واتحاد المراكز الثقافية الإسلامية, وتم تشكيل مجلس تعاوني يضم هذه المؤسسات للاستفادة من الدعم المالي الذي تقدمه الحكومة لهذه الجمعيات.

وتوج النشاط الإسلامي بافتتاح المركز الإسلامي والمسجد الجامع في العاصمة استوكهولم منتصف 2001م, وسط ترحيب شعبي وحفاوة رسمية واهتمام إعلامي بالغ. لقد كان لهذا الصرح الشامخ أثره الملموس, حيث المشاركة الرسمية في الافتتاح, فقد صرحت وزيرة الثقافية السويدية: "لقد كنا متشوقين لرؤية بناء كهذا يكون ملاذاً للصلاة والدعاة وواحة للحوار والتفاهم بين الجميع", حتى الكنيسة السويدية رحبت بافتتاح المركز, حيث إنه سيساهم في منح الدين المزيد من الحضور على المستوى العام في مجتمعات الشمال, حسب وصف المطران "هام". وتوافد السويديون على المركز حتى فاق الزوار الأربعين ألفاً خلال الستة أشهر الأولى التي أعقبت الافتتاح.

وقد شهد العمل المؤسسي في صفوف مسلمي السويد قفزات بارزة في الثمانينيات مع تزايد عددهم وتحسن أوضاعهم العامة وإمكاناتهم, في الوقت الذي بدأت فيه علاقات المسلمين مع الحكومة والسلطات والأحزاب السياسية تنضج بالتدريج, خاصة من خلال المجلس السويدي والعديد من الهيئات التخصصية التابعة له.

وسرعان ما تطورت العلاقة إلى الحد الذي مكن من المطالبة بالحقوق الإضافية التي يتطلع مسلمو السويد إلى التمتع بها, كما بزغت بوادر للمشاركة السياسية للمسلمين, من خلال التعاون المباشر مع الأحزاب, والعضوية في اللجان التخصصية التابعة للحكومة والوزارات, خاصة من خلال الوزارة المتخصصة في النظر بتعديل القوانين, حيث تمكن المسلمون "من التأثير في العديد من مشروعات القوانين قبل طرحها على البرلمان".

السويد دولة علمانية, والدين شأن شخصي, والإلحاد ينتشر, والدين ينحسر, والإسلام يمثل حالياً الديانة الثانية بعد البروتستانتية, القانون يسود الجميع, والدولة تعامل الجميع من مواطنين ومهاجرين على قدم المساواة, ونظراً لكثرة الأجانب أنشأت الدولة وزارة خاصة لإدماج هؤلاء المهاجرين في المجتمع.

الحكومة - كما هو واضح في سياساتها - تعامل الإسلام كثقافة وتراث حضاري أكثر منه كدين, لذلك لا تعطي قيمة بالغة للقيم الإسلامية, وتطالب المسلمين الالتزام بالقيم الغربية بصفتها عماد المجتمع.

يقول مصطفي خراقي, رئيس المجلس الإسلامي السويدي: إن سياسية السويد قامت في السابق على تذويب الأجانب في المجتمع, وظهر لأحقاً أن هذه ليست بالسياسة المجدية, وخاصة مع المسلمين, ولذا فقد جرى تبني سياسية أخرى هي الاندماج الإيجابي, التي تعني الحفاظ على الهوية الذاتية مع الانفتاح على المجتمع, وقد تشكلت وزارة باسم وزارة الاندماج, تتولى التعامل مع الأجانب ككل, والحصول على الجنسية السويدية للمسلم (وغيره من المهاجرين) يكتسب بعد الإقامة لمدة خمس سنوات, وحتى قبل ذلك يحق للمهاجر المشاركة في الانتخابات البلدية وتلقي الإعلانات مثله مثل السويدي.

والواقع أن المسلمين لم يجدوا صعوبة في أداء مناسكهم, وإحياء شعائرهم الإسلامية, وإقامة مساجدهم على امتداد المحافظات السويدية, فالبرلمان السويدي أقر قانون حرية الأديان وحق أصحاب الديانات في أداء مناسكهم كاملة دون خوف من أحد, ولتأمين هذا الحق أو جد البرلمان السويدي قوانين رادعة لمن يقفز على هذا القانون, الذي استفادت منه كل الأقليات.

في الجانب الثقافي, تولي الحكومة اهتماماً بالمهاجرين, ومن خلال ميزانية تتجاوز عشرات الملايين من الدولارات تحصل الجالية الإسلامية (كثقافة وجنسيات) على الكثير من الدعم. بل حتى صحف ومجلات المهاجرين (ومنهم المسلمون) تحصل على دعم وزارة الثقافة السويدية.

ونظراً لاهتمام الحكومة السويدية بالإسلام, فقد خصصت مبلغ 300.000 كرونة سويدية لترجمة جديدة لمعاني القرآن الكريم, وكانت وزيرة الخارجية قد صرحت قائلة: إن الإسلام في طريقه ليصبح ديناً سويدياً مثل المسيحية واليهودية.

كما أن وزارة التربية والتعليم تقدم دعماً مالياً كبيراً للمدارس العربية والإسلامية, ولا تخلو مدينة سويدية من مدرسة عربية إسلامية أو من حضانة إسلامية, ومن جهة أخرى فإن أبناء العرب والمسلمين الذين يدرسون في المدارس السويدية تقدم لهم وجبات طعام إسلامية حفاظاً على معتقداتهم, كما يعطي أبناء المسلمين دروساً في اللغة العربية حتى يحافظوا على اللغة الأم, وتندرج هذه السياسية في نطاق ما يعرف في السويد, بمجتمع متعدد الثقافات والمعتقدات.

ويحق للمسلم أن يلجأ إلى المحاكم إذا شعر أن هناك استهدافاً لدينه وعقيدته على صعيد البرامج الإعلامية والثقافية وغيرها.

إلا أن المسلمين هناك يواجهون, كغيرهم من مسلمي شمال أوربا على وجه الخصوص, مجتمعاً منفتحاً يعاني من الترف وما يتبعه من انحرافات أخلاقية كالشذوذ, والدعارة المنظمة, والروابط المفككة, وعليه أن يتعامل بصبر وأناة مع تلك المشكلات للتغلب عليها, وإلى جانب ذلك فإن المسلمين يواجهون أيضاً مشكلاتهم الداخلية التي تلاحقهم في كل شبر من خريطة العالم, ونعني بذلك فرقة الصف, والخلافات الداخلية التي ترجع إلى أسباب مذهبية أو قومية, وأحياناً لغوية.

فالأتراك لهم مساجدهم وتجمعاتهم, ومسلمو الصومال عالم قائم بذاته, وكذلك عرب بلاد الشام, فضلاً عن الإيرانيين والأكراد, وحتى مسلمي الباكستان وبنغلاديش . الفرقة قد تكون أكبر مشكلة تواجه المسلمين, فهم يتحركون ككيانات وليس كتجمع, مما يحرج الحكومة في التعامل معهم, كذلك هناك الانغلاق عند بعضهم والعيش في أحياء مغلقة كتلك التي في ضواحي العاصمة.

التعثر الاقتصادي في البلد انعكس أثره بشدة على المسلمين, فالفقر بدأ ينخر بينهم, وطابور العاطلين منهم يصل إلى عشرات الألوف, وهذا الأمر ليس قاصراً على أصحاب المهن اليدوية البسيطة بل حتى أصحاب الكفاءات العلمية يعانون بشدة لدرجة اضطرار بعضهم للعمل برواتب متدنية وبظروف قاسية, بل اضطر بعضهم إلى تغيير أسمائهم إلى أسماء سويدية للحصول على فرص عمل, وهناك أسباب مهنية وليست عنصرية تمنع بعض الكفاءات من الحصول على فرص عمل مناسبة كالاعتراف بالشهادة العلمية والخبرة العملية وإتقان اللغة السويدية.

في الجانب الثقافي, يعيش المسلمون أزمة حقيقة, فاللغة تمثل عقبة أساسية, والاطلاع على الثقافة المحلية ترف, حتى الجمعيات الثقافية التي أنشأها العرب والمسلون أصبح جل هدفها الحصول على مساعدات من الحكومة وليس تطوير ثقافتهم وتحسين تواصلهم مع المجتمع السويدي.

في الجانب الأخلاقي, بدأ يدب في أبناء المهاجرين الانفلات الأسري والمخدرات – رغم حرص جيل الآباء – ولذلك تكررت حوادث الشرف (الانتقام والقتل) تجاه الأبناء (البنات بشكل خاص) اللواتي آثرن العيش مع أصدقائهم من الشباب السويدي, وتجاوزت قضايا القتل والضرب ومحاولة القتل والمعروضة أمام المحاكم السويدية العشرات.

في الجانب الفقهي, هناك اختلافات واسعة بحسب خلفية الجالية ومذهبها, فهناك تباين في مواعيد الصلاة بالذات, العشاء خصوصاً. في الصيف, حيث لا يتجاوز الليل ثلاث ساعات. وحتى الانشطار المذهبي تم نقله إلى السويد, ففي العاصمة استوكهولم, على سبيل المثال, يوجد مسجد للسنة ومسجد آخر للشيعة, حتى أن السلطات السويدية احتارت في بداية الأمر, ولما ازداد حجم الظاهرة الإسلامية مع من تتعامل, وتساءلت عمن يمثل المسلمين؟!!

وما يؤسف له حقاً تندر بعض المثقفين العرب في السويد بتقرير سويدي يتحدث عن أن أفشل وأكسل جالية هي الجالية العربية, إذ أن أفراداً عديدين من أبناء الجالية العربية يقدمون شتى الأعذار لمكتب العمل ومؤسسة الضمان والمؤسسة الاجتماعية آخر الشهر, وهكذا دواليك إلى آخر حياتهم.

كما ظهرت أفكار متطرفة تعتبر السويد دار حرب يحل بها كثير من الأشياء المحرمة بطبيعتها, مثل السرقة والغش والخداع والربا والطلاق بنية تحسين الوضع المالي مع استمرار العشرة الزوجية, بدعوى أن الطلاق في المحاكم السويدية لا يقع.

وفي الوقت الذي تعترف فيه النخبة المثقفة في السويد بحضارية الإسلام, إلا أن بعض المحسوبين على العالم الإسلامي أعلنوا إلحادهم وكفرهم, وباتوا في طليعة الدعاة إلى حرمان المسلمين من ممارسة شعائرهم في السويد,

ومن هؤلاء من دعا إلى حظر الحجاب في السويد وتحديداً على بنات المدارس من المسلمين, علماً أن مبدأ حرية الأديان هو مبدأ مقدس في السويد وبموجبه يحق لك أتباع الديانات أن يمارسوا شعائرهم دون تفرقة عنصرية.

يضاف إلى ذلك أن إقدام المئات من المسلمين على الجنح والإجرام والصراعات والسطو والاتجار بالمخدرات والتحايل على مؤسسات الدولة السويدية, وعدم البحث الجاد عن العمل, والاكتفاء بالعيش على حساب المؤسسات الاجتماعية, أدى إلى بلورة صورة سلبية عن الإسلام.

في الجانب السياسي, فإن مشاركة المسلمين محدودة جداً, ولا تتناسب مع عددهم السكاني, وجزء من المشكلة ثقافي.

الجالية المسلمة تفتقد لرؤية واحدة أو مشروع واحد يخدمها ككتلة, وتفتقد الأحزاب السياسية – رغم إمكانية تكوينها – التي تمثلها وتعبر عن قضاياها رغم حرض الدولية على مشاركة المهاجرين السياسية كجزء من الحرص على إدماجهم في المجتمع. أيضاً تفتقد الجالية المسلمة المنابر الإعلامية التي تعبر عنها وتتكلم باسمها, رغم الدعم المادي المتوافر من وزارة الثقافة لمثل هذه الأعمال.

ورغم انتشار الإلحاد وضعف النصرانية في السويد إلا أن الشأن الثقافي ذو أهمية بالغة, وهذا يتضح من عدد الكتب المنشورة والصحف الصادرة, فضلاً عن وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقدرة بالعشرات.

المجتمع السويدي يعيش - كالكثير من المجتمعات الغربية - حالة انهيار اجتماعي وتفكك أسري وانتشار للمخدرات, ولذلك فهو في أمس الحاجة إلى دين يهدي وعقيدة تمنحه الاطمئنان (وهذا ما تفتقده النصرانية اليوم) مما جعل الإسلام محل اهتمام ومتابعة من الشعب السويدي, يقول "ين سامويلون" المستشرق السويدي في كتاب له عن الإسلام في السويد" بأن الإسلام أصبح حقاً ليس ضمن المعادلة السويدية فحسب بل بات جزءاً من المعادلة الأوروبية.

والإشكال, كما يقول بعض المثقفين السويديين: ليس في الإسلام, بل في المسلمين, الذين لم يقدموا النموذج الناصع لدينهم, فهم – أي المسلمين – بدل أن يعطونا محاسن حضارتهم أعطونا مساوئ مجتمعاتهم, وبدل أن يأخذوا منا المحاسن أخذوا منا المساوئ, وتلك المفارقة!!

عندما وقعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية أصيب المسلمون في السويد بارتباك شديد خوفاً على مستقبلهم وعلى وجودهم بشكل عام في السويد, وقد سارع المسئولون السويديون في بعث العديد من الرسائل السياسية إلى المسلمين عبر وسائل الإعلام السويدية المرئية والمسموعة والمكتوبة,

كما أن وزيرة الاندماج السيدة "منى سالين" قامت بزيارة إلى مسجد ستوكهولم المركزي والتقت بالمشرفين على المسجد, وطالبت في كلمة لها المسلمين السويديين بأداء شعائرهم وممارسة واجباتهم الدينية دون خوف أو رعب من أحد, لأن القوانين السويدية المركزية تولي الحريات الدينية أهمية كبيرة .

بعد ذلك قررت وزيرة الخارجية السويدية السيدة "آنا ليند" أن تطبع وزارة الخارجية كتاباً للتعريف بالإسلام يتم توزيعه على الطلاب السويديين, الذين يجب أن يعرفوا أن نصف زملائهم من المسلمين, ويجب أن يعرفوا أن دينهم الإسلامي متسامح وحضاري, كما ورد في الكتاب الذي طبع منه 300.000 نسخة, كما أن السلطات السويدية لم تقطع مساعداتها المادية عن المدارس العربية والإسلامية والمساجد المنتشرة في كل المحافظات السويدية.

والسويد لم تتأثر بزوابع سبتمبر عدا بعض التحقيقات التي أجرتها الأجهزة الأمنية مع بعض الأشخاص, الذين كانوا يجمعون أمولاً لتنظيم "القاعدة" وتجميد حساب جمعية البركة الصومالية بأمر من الولايات المتحدة الأمريكية بتهمة علاقة هذه الجمعية المالية التي تقوم بتحويل مبالغ مالية من المهاجرين الصوماليين في السويد إلى ذويهم في الصومال, ولم تسجل اعتقالات على الإطلاق في الوسط الإسلامي, كما حدث في أمريكا.

وقد استمرّت المدارس العربية والإسلامية في أداء عملها بكل حرّية وبدون تدخّل من السلطات السويدية, وكأنّ شيئاً لم يحدث, بل حتى أتباع تنظيم "القاعدة" في السويد, الذين أحصت المخابرات السويدية عددهم بخمس عشر شخصاًلم يجر اعتقالهم رغم أنهم تدربوا في أفغانستان, وقد نقلت صحيفة "إكسبريس" نقلاً عن "باتريك جوتون" المسئول في المخابرات السويدية أنَ المنتمين إلى "القاعدة" لن يجري اعتقالهم, لأنهم لم يخرقوا القوانين السويدية.

وقد طلبت بعض الأحزاب السويدية بسحب السفير السويدي في واشنطن بسبب السويدي المعتقل في "غوانتانمو" وهو من أصول جزائرية والذي ترفض واشنطن إطلاق سراحه رغم الطلب السويدي الرسمي بضرورة تحريره, هذا على الصعيد الرسمي السويدي, أمّا على الصعيد الشعبي فقد أقبل آلاف السويديين على دراسة الإسلام, إلى درجة أنّ معاهد الدراسات الشرقّية والإسلامية باتت مكتظة, ويجب على أي طالب حجز مقعد قبل سنة من بداية العام الدراسي ليحظي بدراسة الاستشراق .

وقد أسلم مئات السويديين في خضمّ هذه السنة, وازدادوا إقبالاً على دراسة الإسلام, وخصوصاً بعد أن أصبح الإسلام والمسلمين مادة إعلامية يدعى لمناقشتها في وسائل الإعلام الرسميّة أكفأ المتخصصين من السويديين والعرب.

وعلى صعيد الجالية العربية والإسلامية, فقد نضج وعي إسلامي جديد وسط هذه الجالية, وبدأ يترسخّ مبدأ الانتماء الحضاري للإسلام, وقد تمثل ذلك في الاهتمام المتزايد بأخبار العالم العربي والإسلامي وحسن المتابعة لتطورات الأحداث في البلاد العربية والإسلامية, كما تمثل في الإقبال المتزايد على المساجد والمدارس العربية والإسلامية, والمشاركة الفعاّلة في التظاهرات المناصرة للقضية الفلسطينية, التي بات يشارك فيها آلاف السويديين.

وقد أدىّ شعور مسلمي السويد بأنّهم مستهدفون أيضاً وأنّ دورهم قد يأتي في أي لحظة, إلى مشاركتهم المكثفة في ترسيخ أنفسهم للانتخابات التشريعية السويدية, وهي مشاركة لم يسبق لها مثيل في تاريخ السويد, ولسان حال كل المرشحين العرب والمسلمين هو الدفاع عن القضايا العربية والإسلامية تحت قبة البرلمان السويدي, .

كما أنّ علاقة المسلمين بوسائل الإعلام تضاعفت, الأمر الذي أدّى إلى تخصيص كبريات الصحف السويدية صفحات عن الإسلام والمسلمين, ويوجد إلحاح من قبل النخب السياسية الحاكمة والمثقفة في السويد على ضرورة أن يسود مبدأ حوار الحضارات وتحديداً بين الإسلام والغرب, ومعروف أنّ السويد استضافت مؤتمراً بهذه العنوان سنة 1994م.

المبحث الخامس المسلمون في فرنسا

إذا كانت السويد نموذجاً أوربياً فريداً في التسامح تجاه المسلمين, فإن فرنسا على العكس, من أسوأ النماذج الأوربية تجاه المسلمين, رغم العلاقة القديمة خصوصاً مع المغرب العربي.

يعود بداية الوجود الإسلامي في الأراضي الفرنسية إلى عام 716م , عندما دخلت أول مجموعة من الجنود المسلمين العرب القادمين من الأندلس, بعد أن قطعوا جبال البيرنييه, إلى مدينة ناربون, ووضعوها تحت الحماية الإسلامية, وتم تحويل كاتدرائية المدينة إلى مسجد (هدم فيما بعد). وفي عام 721م, وصلت القوات الإسلامية بقيادة السميع بن مالك إلى مشارف مدينة تولوز الفرنسية, واشتبكت مع قوات الكونت أود الفرنسي, وبعد ذلك بخمسة أعوام وصلت القوات المسلمة إلى مدينة ليون وسط فرنسا, واستولت فيعام 731م على مدينة بوردو, إلا أن الكونت أود تحالف مع شارل مارتل, وهزموا القوات الإسلامية بالقرب من مدينة البواتييه في أكتوبر من عام 732م, وتوقفت الفتوحات الإسلامية في الأراضي الفرنسية, ونقل بعض الأسرى العرب إلى شمال فرنسا, واستقروا فيها, واعتبروا بمثابة أول الوجود العربي المسلم الفعلي الذي استقر في فرنسا. كما حدثت هجرة عربية أخرى إلى فرنسا, بعد سقوط الأندلس, حيث هاجر حوالي 150 ألف عربي, استقروا في جنوب فرنسا.

وأما الهجرات الحديثة, فقد بدأت منذ مطلع هذا القرن (العشرين), بسبب الحروب الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي, ووصل طلائع العمال العرب من الجزائر والمغرب ما بين 1900م – 1905م, وبلغ عددهم حوالي 30 ألفاً, وكانت السلطات الفرنسية تشجع هجرة العمال خلال الحرب العالمية الأولى, بسبب حاجتها لهم للعمل في مصانع الأسلحة, والاستفادة منهم في حروبها الاستعمارية في الهند الصينية وأفريقيا والنورماندي, وعمل العمال العرب في وظائف دنيا, ويقال بأنهم هم الذين حفروا أنفاق المترو الضخمة في باريس وليون, وارتفع عدد أفراد الجالية العربية ما بين الحرب العالمية الأولى والثانية إلى 132 ألف نسمة, مما دفع الحكومة الفرنسية إلى بناء مسجد في وسط العاصمة الفرنسية في عام 1926م.

كانت السمة الغالبة لهؤلاء المهاجرين عدم التخصص العلمي, وضعف الوعي السياسي, وقلة الزاد الثقافي والديني, ونتيجة لهذه المواصفات, ألقيت على الجيل الأول أعباء القيام باقتصاديات فرنسا, وخاصة في مجال إقامة الجسور والطرقات والأنفاق, وأدناها في السلَّم الوظيفي من قبيل التنظيف والصيانة والحراسة, وقد عاش هؤلاء معاناةً قاسيةً تمثَّلت في البداية أن يعيش المهاجر بمفرده بعيداً عن عائلته وذويه, وما ينجم عن ذلك من مضاعفات على الصعيدين النفسي والاجتماعي.

وبقي الأمر كذلك حتى صدر قانون "التجمع العائلي" الذي يبيح لأفراد عائلات المهاجرين الانضمام إليهم, وكان ذلك نتيجة مطالبات منظمات إنسانية ونقابية احتجاجاً على الوضع المأساوي الذي يعيشه هؤلاء العمال .. وعلى الرغم من إصدار هذا القانون, فإن حياتهم تحولت إلى معاناة من نوع آخر, تمثلت في حشر عدد كبير منهم في مجمعات سكنية مكتظة ومعزولة لا تتوفر فيها أدني متطلبات الحياة . وما زاد من تفاقم مشكلة هؤلاء المهاجرين, حياة التردد التي سادت في أوساطهم بين أن يعود المهاجر إلى وطنه أو أن يبقى على مضض في البلد المهاجر إليه, ولكن الظروف كانت قد أملت على معظمهم البقاء في تلك البلاد والاستقرار فيها.

ويتراوح عدد أفراد الجالية الآن, ما بين 5 و 6 ملايين, معظمهم من الجزائر والمغرب وتونس, وتوجد بعض التنظيمات العربية والإسلامية في فرنسا, أهمها اتحاد المنظمات الإسلامية الذي تأسس عام 1983م, ويضم 200 جمعية إسلامية, تقوم بالدفاع عن المهاجرين العرب والمسلمين, أمام السلطات الفرنسية, والرد على عنصرية بعض المؤسسات الفرنسية المادية للأجانب.

ومشكلة العرب في فرنسا, هي كثرة الخلافات بين الجمعيات التي يشكلونها, والتي تكون في معظمها قائمة على أساس قطري, لأن كل جالية عربية تشكل جمعية باسمها تكون مرتبطة بالدولة الأم, وبما أنه توجد خلافات بين تلك الدول, فإنها تنعكس على أبناء الجاليات العربية في المهجر وعلى علاقاتهم مع بعضهم بعضاً.

إلى جانب ذلك يوجد نوعان من الجمعيات: الأول يتكون من المعارضين لنظام الدولة العربية القادمين منها, والذين هاجروا إلى فرنسا لأسباب سياسية وهرباً من النظام السياسي الموجود في الدولة الأم, والثاني, من الذين هاجروا إلى فرنسا لأسباب اقتصادية ويريدون استمرار العلاقة مع دولهم, وهذا يؤدي إلى إضعاف الجمعيات العربية, ويفتت قدراتها على التصدي للتحديات التي تواجهها في المهجر.

منذ أكثر من 20 سنةووزارة الداخلية الفرنسية تطالب بإنشاء هيئة مركزية تمثل المسلمين, لأن الدولة الفرنسية متعودة على علاقات مع الكنسية التي تضبط كل الأمور الدينية وتحتكر القضايا الدينية.

يقول د. فؤاد العلوي, الأمين العام لاتحاد المنظمات الإسلامية في فرنسا: كانت هناك محاولات عدة لتنظيم وضع الإسلام والمسلمين في فرنسا, وكل هذه المحاولات باءت بالفشل, والمبادرة التي قام بها وزير الداخلية لإيجاد هيئة تمثيله للمسلمين, مثلت مرحلة طويلة من المفاوضات. يقول د. محمد بشاري: رئيس الفدرالية العامة لمسلمي فرنسا: الغرض من إنشاء هذا المجلس هو إيجاد مجلس تمثيلي للدين الإسلامي يمكن أولاً أن يكون المخاطب الأساس للحكومية الفرنسية, والسهر على تنظيم أحوال المسلمين في ممارستهم للشعائر التعبدية. ولماذا وزارة الداخلية؟

لأنها الوزارة المكلفة بالأديان, وتنص بنود الاتفاقية على حق المسلمين في حرية التدين وممارسة شعائر دينهم في أمان تام, إلى جانب حرية لبس الزى الإسلامي, وأكل اللحم الحلال, وبناء المساجد والمقابر الخاصة بموتى المسلمين, والحق في بناء المدارس الإسلامية. ولكن ما تحقق لم يلغ مشاعر القلق والخوف المتبادل بين المسلمين وبعض التيارات السياسية الفرنسية, وهذا ما بانت ملامحه بوضوح في أعقاب فوز من وصفوا بأنهم أصوليون في انتخابات مجلس إسلامي يمثل المسلمين في فرنسا الكاثوليكية, حيث عبر وزير الداخلية "نيكولاس ساركوزي" عن هذه المفارقة, من أن بلاده لن تسمح بأن يتحوّل المجلس الجديد المنتخب إلى ما أسماه مكاناً للإسلام الثوري, وهو يقصد الإسلام الذي يحتفظون له بصورة سلبية في أذهانهم, وتصويره على أنه يرتكز على العنف وممارسة الإرهاب ضد (الآخر), ولذلك فإن القوانين الإسلامية - برأيه - لن تطبّق في أيِّ مكان, لأنها ليست قوانين الجمهورية الفرنسية.

عاني المسلمون في فرنسا من مشكلات متعددة طوال السنوات الماضية وكانت الجالية الإسلامية من أكثر الجاليات تعرضاً للاضطهاد, وواجه عدد كبير من أبنائها اتهامات متباينة, سواء من قبل اليمين المتطرف بزعامة "لوبان" الذي نادي بطردهم, أو من قبل اللوبي اليهودي الذي أصبح قلقاً من تنامي المسلمين في المجتمع الفرنسي,

وتغلغل مجموعة كبيرة من أبنائهم في النسيج الوطني, من خلال احتراف بعض المهن العلمية الدقيقةأو المشاركة في تنمية الاقتصاد الوطني, عبر عدد من المشروعات الاقتصادية والتنموية, الأمر الذي يتقاطع مع الصورة التي أراد أعداء الإسلام الترويج لها, وتقوم على اتهام الإسلام والمسلمين, بممارسة العنف والحض على التطرف وحصره في دائرة ضيقة لا تخرج عن الشعائر والعبادات.

ومن المشكلات التي يعانيها المسلمون هناك الضغوط الرسمية للاندماج, بمعنى التزام قيم العلمانية وعدم إظهار الشعائر الإسلامية وسط الفرنسيين, وهذا ما توج بقانون منع الحجاب في المدارس الفرنسية الذي يرى أنه يناهض قيم الدولة العلمانية وتم تنفيذ هذا القانون بكل صرامة.

وإذا كانت الحكومة والمعارضة في فرنسا تتواجها حول كل شيء تقريباً, فإن قرار المجلس التأديي بفصل أختان محجبتان (من أب يهودي وأم جزائرية), كان موضع ترحيب من الحكومة والمعارضة الاشتراكية على السوء, ولم تُسمع أصوات الاحتجاج إلا من قبل منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان, علماً بأن أكثر من 900 حالة طرد لفتيات محجبات تمت خلالعام واحد.

في ضواحي المدن تعيش الغالبية العظمي من الجالية الإسلامية في "غيتوهات" عنصرية, تجد أن مدارس الأطفال التي سميت بمدارس العزل العنصري, تحفل بالملونين وخالية من الأطفال الفرنسيين, وتعاني تدنياً في الخدمات التعليمية وفي مستويات الدراسة والإهمال الإداري مما يرفع من نسب الإخفاق المدرسي وكثرة المشاكل.

فرنسا هي الدولة الأوروبية الوحيدة التي ترفض منح المسلمين موافقات لبناء مساجد لهم, وتشير الإحصاءات إلى عشرات الطلبات لبناء المساجد تنتظر منذ سنوات دون موافقة البلديات المعنية, كما أقدم أحد رؤساء البلديات على هدم مسجد كبير بالبدوزر, أما رئيس بلدية نيس فقد كتب صراحة "ضقت ذرعاً بالمسلمين ولن أسمح ببناء مساجد في دولة علمانية".

وبهدف الرسميون الفرنسيون من وراء حملتهم لتطويق ظاهرة الحجاب إلى إدماج المسلمين بشكل كامل في المجتمع الفرنسي والثقافة الفرنسية, وهذا ما يفسّر فتحهم كل الأبواب للمطربين والممثلين والفنانين والكتّاب من أصل مغاربي ومسلم من الذين انسلخوا عن قيمّهم الحضارية ومبادئهم الإسلامية وصاروا أكثر انحرافاً في مسلكيتهم الأخلاقَية من الفرنسيين, ليكونوا قدوة للأجيال الإسلامية المهاجرة والمولودة في فرنسا.

وطردت فرنسا في الشهر الماضي إماماً فرنسياً لقوله: إن الإسلام يسمح للأزواج بضرب زوجاتهم غير المخلصات, وطردت إماماً آخر, لأنه قدم مواعظ عن الإسلام الأصولي ودافع عن تفجيرات قطارات مدريد.

ويقول الخبراء: إن حوالي 10% من الأئمة بفرنسا مواطنون فرنسيون, وحوالي نصف الأئمة في البلاد يتحدثون في الفرنسية, ومعظمهم يأتون من دول عربية حيث تدرب بعضهم على وجهات نظر إسلامية تتصادم مع القوانين العلمانية الفرنسية.

المستقبل الإسلامي ليس سيئاً تماماً, فهناك ما يقارب 2000 مسجد ومصلى, منها الضخم ومنها الصالات الصغيرة, وهناك حركة وعي وعودة للإسلام بين المسلمين (بعد سبتمبر).

ومع اضطراد عدد الملتزمين بإسلامهم في فرنسا وإقبال المسلمين على أداء فروضهم وواجباتهم الدينّية, أصبحت الظاهرة الإسلامية في فرنسا ملفتة للنظر, بل إنّ المسلمين أصبحوا رقماً مؤثراً في المعادلة السياسية الفرنسية, لكن الدوائر العلمانية, سواء في مراكز القرار أو الإعلام, استطاعت تشريع قانون منع الحجاب في المدارس كجزء من ردة الفعل تجاه التحرك الإيجابي للإسلام في فرنسا.

وذكرت مجلة "لوموند" الفرنسة في استطلاع لها أن 69% من الشعب يهتمون الآن بالإسلام, وأن أكثر من 50 % منهم يعتقدون أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبي مرسل.

في السنوات الأخيرة أخذ الإسلام ينتشر بين الأوساط الفرنسية إلى درجة أن الذين اعتنقوا الإسلام من الفرنسيين بلغ 40.000 فرنسياً من مختلف الاتجاهات والشرائح وجزءاً لا بأس به منهم أسلم بعد أحداث سبتمبر.

المبحث السادس مستقبل المسلمين في الغرب

من المستبعد أن يصبح مستقبل الوجود الإسلامي في الغرب "مظلماً" على المدى المتوسط أو البعيد, بل على النقيض من ذلك ولأسباب عديدة في مقدمتها ما يمكن وصفه بالمناعة الذاتية, وهي من العوامل الرئيسية التي سبق وحافظت على وجود المسلمين ورسخت هويتهم الإسلامية داخل الغرب, ما بين مرحلة الضياع أو الضعف الشديد إبان الحرب العالمية الثانية والوقت الحاضر, أي في حقبة لم تنقطع خلالها سلسلة المخاطر المتوالية التي هددت الوجود الإسلامي من الأساس, من خلال الجهود المبذولة لتذويب المسلمين في المجتمع عقدياً وثقافياً وسلوكياً, فضلاً عن الجهود المباشرة للقوى الكنسية والعلمانية للتضييق على العمل الإسلامي, ويمكن تسجيل بعض المؤشرات الإيجابية:

ارتفاع نسبة المسلمين من ذوي الأصول الغربية ارتفاعاً مطَّرداً.

انتشار التوجّه الإسلامي في صفوف الصغار.

ارتفاع نسبة العاملين في مواقع اجتماعية واقتصادية ذات تأثير كبير.

تطوّر العمل الإسلامي في اتجاه التقارب, والخروج من "عزلة التميّز" في العقود الماضية, والعمل على "تواصل اجتماعي" من خلال انفتاح متوازن.

غير أن المشكلة تكمن في أن حكومات بعض البلدان الأوروبية لا تعرف من تخاطب من المسلمين؟ فالكل يدعي أن يمثل الإسلام, والكل ينشئ مؤسسات بمسميات إسلامية, كما أن كثيراً ممن يدعون إلى الإسلام في الغرب قد يعانون من الجهل بالإسلام, سواء في فهمه, أو تدريسه, أو سبل تكييف الإسلام مع الواقع.

لذلك يمكن القول: إن المسلمين في الغرب يواجهون في المرحلة المقبلة عدداً من المخاطر في وقت واحد:

توجيه ضربات محتملة إلى مكامن قوة الوجود الإسلامي في الغرب, لاسيما في ميادين التنظيم والتواصل مع البلدان الإسلامية والميدان المالي.

نشر موجة جديدة من المخاوف من الوقوع في شبهة "الإرهاب" في أوساط المسلمين, لعزل العمل التنظيمي الضروري عن مصدر الطاقة البشرية التي تمثل عموده الفقري.

مضاعفة سلبيات العلاقات المتفاوتة ما بين الإهمال والاحتواء والخصومة وحتى الملاحقة, بين قطاع كبير من الوجود الإسلامي في الغرب وحكومات البلدان الإسلامية, وذلك من خلال توظيف "شبهة الإرهاب" في تعزيز التناقضات القائمة من الأصل بين تلك الحكومات – لأسباب عديدة معروفة – وسواد القائمين على العمل الإسلامي من الوافدين إلى الغرب خلال العقود الماضية.

إحداث نكسة يمكن أن تكون مستهدفة بحد ذاتها على طريق تطّور فعالية الوجود الإسلامي في الغرب, وما تحقق عبر العقود الماضية من تقدّم ملموس في صفوف العمل الإسلامي, وظهور البوادر الأولى لتأثيره على صناعة الرأي العام وصناعة القرار.

محاولة الحكومات الغربية إدماج المسلمين في مجتمعاتهم بقيمها الغربية وبمبادئها العلمانية وإطارها النصراني العام, ومثال على ذلك ما تطلبه الحكومة الهولندية اليوم من كل الأئمة المسلمين من تعلم اللغة الهولندية, ويتوجب عليهم أيضاً أخذ دروس حول التاريخ الهولندي والقيم السياسية والاجتماعية والهولندية حتى يفهمونها فهماً كاملاً, وفي حال إخفاق هؤلاء الأئمة ورسوبهم في الامتحانات المقررة لن يحصلوا على ترخيص, بممارسة الوعظ والخطابة, ولن يحصلوا على تأشيرات الإقامة, وهكذا يعتقد الأوروبيون بضرورة أن تكون للمواطنين في مجتمعاتهم قيم واحدة, هي تلك القيم التي تشكل الثقافة الغربية والمجتمع الغربي.

يرى "تيموثي" الديبلوماسي الأمريكي (مجلة واشنطن كوارترلي) أن التحدي الإسلامي الذي تواجهه أوروبا اليوم له بعدان: داخلي وخارجي.

أما الداخلي : يقتضي من أوروبا إدماج الأقليات الإسلامية التي تعيش في عزلة (في الجيتوهات), إلا أنها تتزايد ديموجرافياً, بشكل سريع جداً, وهو ما يعتبره كثير من الأوروبيين مهدداً للهوية الجماعية الغربية, ولقيم المجتمع الأوروبي, ويعتقد الدبلوماسي الأمريكي أن التمنع عن الاندماج والوصول إلى صيغ مثلى للتعايش, في وقت تحدث فيه تحولات ديموجرافية داخل أوروبا, وأهمها تنامي عدد المسلمين, من شأنه أن يسلم أوروبا إلى حالة من الاضطراب, والاهتزاز الاجتماعي, بل ويفتح الأبواب أمام صراعات داخلية, تجعل أوروبا ضعيفة أمام التحديات الدولية.

ولقد كشفت استطلاعات للرأي عن تنامي أنصار الحركات العنصرية في أكثر من بلد أوروبي, وبالرغم من أن هذه الحركات لم تصل بعد في العديد من الدول الأوروبية إلى أن تصبح خطراً داهماً, فإن التوقعات تشير إلى أنه سيكون لهذه الحركات المتنامية خطر حقيقي في السنين اللاحقة إذا لم تتخذ الإجراءات الكافية للوقوف في وجهها.

المبحث السابع علاقة المسلم بغير المسلم

يقرر الإسلام العلاقة بين البشر بأنها للتعارف, يقول المولى عزّوجلّ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [سورة الحُجُرات: الآية 13] , وأن تعايش المسلم مع غير المسلم ليس بمستنكر مادام في إطار العلاقة العادية دون تهديد للمسلمين أو اعتداء على الدين, وبين سبحانه وتعالى أساس هذا التعايش بقوله: لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [سورة الممتحنة: الآية 8], بل قد يتطور التعايش إلى أن يكون تعاوناً إذا كان الداعي له أمر خير ونفع الناس, يقول رسول الله خ :"لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحبّ أن لي به حمر النعم, ولو أدعى به في الإسلام لأجبت".

وقرر الإسلام علاقة القومية والوطن, بمعنى انتماء الإنسان إلى بيئته وبلده, ما لم يتحول الآخرون إلى أعداء لهذا الدين ومحاربين له, لذلك وصف القرآن الكريم بعض الأنبياء إلى أقوامهم بالأخوة (الإنسانية):

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ [سورة الأعراف: 65]

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ[هود: 50],

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ [سورة هود: الآية 84]

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ(الأعراف: 58)

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (العنكبوت: 36).

كما أيد الإسلام البر بالوالدين رغم كفرهم, إبقاء وتأييداً للرحم, رغم أن ذلك يعني المحبة والصلة والعطف, ولكن هذه العاطفة الإنسانية والعلاقة والبشرية, وليست الحب الإيماني والذي خص به المسلمون, وهذا عبد الله بن عبد الله بن أبي سلول يهدد أباه إن لم يعتذر للرسول خ رغم اعترافه بحبه له وبره به, لكن ليس على حساب الدين.

ومن هذا أيضاً جواز الزواج من الكتابية وما قد ينتج عنه من محبة رغم كفر الطرف الآخر, لكن المحبة هنا فطرية وليس دينية, بمعنى أنهلا يسمح لها بالتجاوز, وقد ذكر الله حب المؤمنين – العفوي – لغيرهم:

هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [سورة آل عمران: الآية 119]

وعلى هذا الأساس – أي التفريق بين أنواع الحب من جبلي فطري وإيماني عقائدي – تكون العلاقة مع غير المسلم, بمعني الحب له والصلة به, وهذا يؤكده أيضاً فطرة الله على حب الشهوات, قال تعالى: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ [سورة آل عمران: الآية 14] ,

ويقول رسول الله خ: "حبب إلى من الدنيا النساء والطيب, وجعل قرة عيني في الصلاة".

والمحبة على أساس الدين هي الأصل وهي أعلى درجات الحب, وهذا يقتضي التبرأ من أعداء الدين,

قال تعالي: لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [سورة المجادلة: الآية 22].

فالمودة التي نهى الله عنها في هذه الآية هي لمن كفر وحادّ الله ورسوله, وليس فقط لمن كفر, بل هو من زاد على كفره أنّه يحادّ الله ورسوله, ويحارب الإسلام والمسلمين . ذكر الشوكاني في تفسيره, أن هذه الآية نزلت في أبي عبيدة بن الجراح, رضي الله عنه عندما قتل والده في غزوة بدر.

ويبقى السؤال: هل كل كافر حربي؟ هناك من طرح هذا المفهوم وأصله وما ينتج عنه من إباحة دمه وماله ومعاملته بأخلاق الحرب كجواز الكذب والاحتيال. الكافر الحربي - كما قرر فقهاء الإسلام - هو من أعلن المسلمون الحرب عليه أو على دولته, وخلاف ذلك, فالأصل في حال الكافر أنه غير حربي, وأحياناً تقع معاهدات بين المسلمين والكفار مما يوجب على جميع رعاياهما (بما فيها المسلمون) الالتزام بها, وهناك حالة ثالثة للكافر وهي (خلاف الحرب وخلاف العهد) احتمالية الحرب.

يذكر كثير من الفقهاء أن (الأصل في العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين الحرب) ولكنهم لم يريدوا بذلك ما يتوهّمه كثير من الناس اليوم, ولو أردنا أن نمحّص مقصود الفقهاء في عصرهم حسب لغة عصرنا لقلنا/ إنهم يقصدون بتلك العبارة (أن الأصل في العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين احتمال الحرب) وليس حتمية الحرب, وذلك واضح مما يذكرونه من أحكام تتعلّق بنزع صفة الحربي لأقل سبب.

وعند تمحيص علة القتال (للكافر) نجد أنها الحرابة وليس الكفر, بمعنى أنه, لا يستحق القتل لكفره, ولو كان هذا صحيحاً ما ترك المسلمون في البلدان التي فتحوها أي مخالف للإسلام, وأبادوهم عن بكرة أبيهم, لذلك فالإسلام ينطلق في تعامله مع (الغير), ولو كان كافراً, من أنّ الأصل في العلاقة مع هي السلم لا الحرب, وقد ورد في ذلك الكثير من النصوص الشرعية, قال تعالي: إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا [سورة النساء: الآية 90], وقوله تعالى: ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [سورة الأنفال: الآية 61], فالإسلام لا ينزع للحرب ابتداءَ, إلا أن يكون ظلم واعتداء ومنع من تبليغ رسالة الإسلام للناس, أما ما عدا ذلك فلا إكراه في الدين, فالباعث على القتالهو الاعتداء وليس مجرد المخالفة . والاسلام يكره الحرب ويعتبر كف المؤمنين عن القتال من المنن التي يمن الله بها على عباده:

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا [سورة الأحزاب: الآية 25] .

بل كان النبي الكريم خ , يغير من أسماء صحابته الذين تسموا بحرب ومرة, لكراهته للحرب وأسمائها, فهذا هو الاتجاه العام أو المسار الذي يضبط علاقتنا مع غير المسلمين, وإلى هذا ذهب كثير من الفقهاء, مسترشدين في ذلك بكتاب ربهم تبارك وتعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [سورة المائدة: الآية 8] , وبقول الرسول الكريم خ: "ألا من ظلم معاهداً أو انتقصة أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة".

أما واقع بلاد الغرب – بالجملة – فليست دار حرب, كما زعم بعضهم, ذلك أن المعوّل عليه أن الغرب يميل إلى أن يكون دار عهد ودعوة – بالجملة – رغم غياب دار الإسلام بالمعنى الحرفي لها, وانعدامدار الحرب في الواقع الحقيقي المعاش.

ولمزيد إيضاح القضية ننقل هنا باختصار شديد بحث للشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز العقل حول الموضوع:

"أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم, فأما الأدلة من كتاب الله فهي على أربعة أنواع:

النوع الأول: الآيات التي أمر الله تعالى فيها بالسلم, وحث فيها على قبوله من الكفار, حين اللجوء إليها, كقوله تعالي: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ [سورة البقرة: 208], وقوله:۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [سورة الأنفال: الآية 61] , وقوله:

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا [سورة النساء: الآية 90]

النوع الثاني: الآيات التي قيد الله فيها الأمر بقتال الكفار في حال اعتدائهم وظلمهم للمسلمين, كقوله تعالي: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ [سورة البقرة: 190], وقوله: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ [سورة الحج: 39- 40].

النوع الثالث: الآيات التي أباح الله فيها صلة وبر الكفار الذين لم يقاتلونا كقوله تعالي: لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [سورة الممتحنة: 8]

النوع الرابع : قوله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [سورة البقرة: الآية 256] .. قال شيخ الإسلام أبن تيمية, رحمه الله: جمهور السلف على أنها ليست بمنسوخة ولا مخصوصة, وإنما النص عام, فلا نكره أحداً على الدين, والقتال لمن حاربنا, فإن أسلم عصم ماله ودينه, وإذا لم يكن من أهل القتال لا نقتله, ولا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله خ أكره أحداً على الإسلام, لا ممتنعاً ولا مقدوراً عليه, ولا فائدة في إسلام مثل هذا, لكن من أسلم قبل منه ظاهر الإسلام.

أما الأدلة من السنة فكثيرة, منها قول النبي خ: "لا تتمنوا لقاء العدو, وسلوا الله العافية, فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف" أخرجه البخاري في صحيحة حيث نهى النبي خ من الرغبةفي الحرب وتمني لقاء العدو, وهذا يدل على أن حالة الحرب حالة طارئة, لا يشرع للمسلم أن يتمناها إلا إذا قامت أسبابها.

حرب النبي خ التي خاضها ضد المشركين, كان المشركون فيها هم المعتدين أو المتسببين بأسباب مباشرة أو غير مباشرة, وهذا يؤكد أن الأصل مع الكفار السلم لا الحرب, ولو كان الأصل معهم الحرب لكانالنبي خ يبدؤهم بذلك, والمتواتر من سيرته خ أنه لم يبدأ أحداً بالقتال. رسائل النبي خ إلى الملوك والأمراء, ودعوته لهم بالدخول إلى الإسلام يدل على أن الأصل السلم, ولو كان الأصل الحرب لما أرسل إليهم رسائل, وإنما بعث إليهم جيوشاً للمحاربة, وأيضاً الإجماع,حيث نقل اتفاق المسلمين.

عملاً بالثابت من السنة, أنه لا يجوز قتل النساء والصبيان – وزاد الحنفية والمالكية والحنابلة: الرهبان والشيوخ, والعميان, والعجزة, والأجراء, والفلاحين في حرثهم, إلا إذا قاتلوا أو شاركوا برأي أو إمداد, قالوا لو كان الأصل مع الكفار الحرب لحملهم على الإسلام, ما ساغ استثناء هؤلاء, واستثناؤهم برهان على أن القتال إنما هو لمن يقاتل دفعاً لعدوانه, قال شيخ الإسلام رحمه الله: "الصواب أنهم لا يقاتلون, لأن القتال هو لمن يقاتلنا, إذا أردنا إظهار دين الله فلا يباح قتلهم لمجرد ذلك".

إن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو دعوتهم إلى دين الإسلام كمرحلة أولى, فإذا ما قامت بهذا الحمل الدعوي الكبير, ودعت أمم الكفر لدين الإسلام, ففي هذه الحالة ينقسم الكفار إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: من يستجيب منهم لدعوتنا, ويعتنق ديننا, فهؤلاء إخواننا, لهم ما لنا وعليهم ما علينا, قال تعالى:

فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [سورة التوبة: الآية 11]

القسم الثاني: من لا يقبل الدخول في الإسلام, لكن لا يقف في طريق دعوته, ولا يقاتل من يدعو إليه, ويلقي إلينا السلم, سواء كان من أهل العهد أو لم يكن, فهؤلاء الأصل في حقهم المسالمة, ما لم يعتدوا بقول أو فعل,

وعلى هؤلاء تحمل الآيات التي أمر الله فيها بالسلم, وأباح فيها الإحسان للكفار, كقوله تعالي: لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [سورة الممتحنة: الآية 8]

القسم الثالث: من يرفض الدخول في الإسلام, ويقف في طريق دعوته,أو ينقض عهداً مع المسلمين, أو يعتدي على أحد منهم بقولأو فعل, أو يخطط لذلك مستقبلاً, فهؤلاء الأصل في حقهم الحرب – وهي المرحلة التالية لدعوتهم إلى دين الإسلام –وعلى هؤلاء تحمل الآيات الواردة بقتال المشركين كقوله: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَسورة البقرة: 193] وقوله:

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ سورة التوبة: الآية 29] , وقوله: فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة التوبة: الآية 5] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية, رحمة الله: القتال هو لمن يقاتلنا, إذا أردنا إظهار دين الله, كما قال تعالى:وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ [سورة البقرة: الآية 190].

وقال الأمام النووي, رحمه الله: "الناس صنفان, فأما الذين قاتلوا أهل الإسلام أو أجلوهم عن أوطانهم أو أعانوا على شي من ذلك فمن الظلم المنهي عنه أن يتولاهم المسلمون, ويحنوا إليهم, ولهؤلاء وأمثالهم شرع القتال ليفسحوا للدعوة سبيلها, وأما الذين لم يفعلوا شيئا من ذلكفلا على المسلمين في الإحسان إليهم والبذل لهم ، ولو كان هؤلاء ممن أمر بقتالهم لما ساغ ذلك, فعسى أن يكون فيه قوة لهم, مع أن إضعاف العدو بكل وسيلة من أخص ما يعني به المحاربون"i.

وبناء على ذلك, فإن طبيعة العلاقة بين المسلمين المقيمين في الغرب وشعوب تلك البلدان تقتضي التزام قوانينهم – في ما لا يخالف قواعد الإسلام وأحكامه – كجزء من عهد الإقامة بين ظهرانيهم .. وعلى الرغم من أن هناك بعض الأصوات التي تحذر من الإسلام في الغرب وتهوِّل منصراع الحضارات (رغم أن الإسلام منتصر لا محالة كما بيِّن ذلك الصادق الأمين خ) إلا أنه ليس من المصلحة إظهار هذا الأمر, بل قد يكون من الأنسب – لهم – العمل على إزالة الحواجز بينهم وبين الغرب الكافر, ليسهل عليهم البقاء من جانب وإيصال رسالة الإسلام باطمئنان وأمان دون تهديد ووعيد من جانب آخر.

الفصل التاسع

هشاشة أيدولوجيا الإعلامي العربي مع التحول الغربي

إن التواصل أمر جيد وقيمة كونية تفتقت عنه الأذهان ودنت منه القلوب ومالت إليه الأجساد وهو قد غزى ميدان السياسة بعد أن ترعرع في مجال الاقتصاد،كما أضافته الثقافة إلى مهامها الأخرى وتحول الكون إلى وكالة عالمية للتواصل. بيد أن تكاثر الإقبال على التواصل وسهولة استعمال وسائل الاتصال أخفى دلالة هذه القيمة وحجب معانيها، فما المقصود بكلمة التواصل؟كما لو كنا نتحدث عن غواية تضحوية في علاقة الإنسان المعاصر بالاتصال والتقدم التقني ، تركت أطيافها بمثابة ثورة مفككه للمعايير التقليدية في الاقتصاد والثقافة والاجتماع.

ففي مجال الاقتصاد لم يعد مصدر تراكم الثروة يؤسس على ما هو ماكرو-مادي من صناعات ثقيلة ، بل أصبح يؤسس على ما هو ميكرو- لا مرئي ، من خلال الإرسال الرقمي وشبكة الألياف المتطورة .

أما في الثقافة فلم يعد المعيار الواضح للتمييز هو ثنائية الأمية والتعلم، بل ثنائية البطء والسرعة في اقتحام عوالم خيالية وسبرنطيقية لحيازة أخبار ، معلومات وأموال أكثر ، وفي الاجتماع لم يعد التمييز ينطلق من معيار أيديولوجي يتعصب للكائن الاجتماعي أو الحلم اليوتوبي ،

فنكون أمام مجتمعات رأسمالية حرة أو اشتراكية ، حداثية أو ما بعد الحداثة أو ما بعد حداثية ، تكون عليه البنيات السوسيو-اقتصادية لقد تحول التمييز اليوم إلى ثنائية مجتمعات اتصالية وأخرى غير اتصالية .

هذه العلاقة الاتصالية هي مقابله إلى تصور غير اتصالي للإعلام فقد وجه سؤال عن علاقة الإعلام بالديمقراطية وهل بالضرورة أن التقدم التقني للإعلام يقود إلى تحقق وتقدم الديمقراطية ؟.

الجواب تكشف يضعنا عند نوعين من الإجابة:

الأول : منهما ينطلق من معيار الهوية والإرث النقدي ويرى في التحول الجديد عبارة عن الوقائع والطابع الاستهلاكي للخطاب التجاري الذي رفع شعارات تربط بشكل جدلي بين الإعلام وتقدمه وحريته والديمقراطية فرجال الإعمال وبعض المثقفين المروجين لهذا النمط من الثقافة وبالتالي ثمة طابع ارتيابي بالرسالة وأثرها . تهدف أيديولوجيا الاتصال إلى فرض انموذج تنموي اقتصادي واجتماعي يمكن وصفه بالمعولم أو ما فوق الليبرالي وهو ما دفع بمنظري الفلسفة السياسية الغربية إلى جعل أن الاتصال في شكله الجديد (الرقمي، الافتراضي) من خلال مجتمع المعرفة يعد مرادفا لديمقراطية افتراضية كونية حسب تعبير " بيار ليفي". تتجاهل أيديولوجيا الاتصال أهمية السياسي (الشأن العام) بل تفرغه من إمكانية إنتاجه لأي بديل مستقبلي

فمشروع هذه الايدولوجيا التأسيسية هو تطبيق التكنولوجيا على المجتمع لتغييره وتطويعه. في مشروعها لعقلنة الوظيفة الاجتماعية لتكنولوجيات الاتصال يقع حصر الوظيفة في بوتقة مجموعة من الخيارات التقنوية أين تأتى أغلب القرارات وبشكل أحادى من التقنية وإليها فكرا ومادة. وهذا هو ما يحولها إلى أيديولوجيا تقنوية تسلب الآلة الاتصالية والتقنية من أبعادها وأنساقها الثقافية والاجتماعية. تجد أيديولوجيا الاتصال في التقنية الراجعة إلى تقنية المعلومات والإنترنت وتكنولوجيات الاتصال الحديثة مبرر وشرعية وجودها الفكري غير أن هذا المبرر هو أيضا أحد نواقص وعلة مشروع هذه النظرية.... فلا يكفي إيصال الناس وتواصلهم عبر شبكة الإنترنت ودخولهم الحر إلى مواقع المكتبات والدردشة حتى يتحقق الحد الأدنى من المعرفة والفهم الصحيح للحقوق والواجبات فينتهي الجدل والحوار المباشر عبر وسائل الاتصال الجماهيري التقليدية البدائية في قضايا الشأن العام (المشافهة، المكتوب،...) وترد على غياب اديولوجا إلتى قال بها دانييل بيل D.bell سنة 1962 التي أعلن بها قيام مجتمع ما بعد الصناعة ونهاية الإيديولوجه لكن المعارضون يرفضون هذا القول ويرون بان بأن ثمة إيديولوجيا جديدة هي الإشهار والتي تتمظهر في التجليات التالية:

حضور الإشهار: أن الايدولوجيا الاشهارية تشتغل بآليات سمعية -بصرية حيث أن لعنف الصورة قوة الاشتراط السيكولوجي للمتلقي بحيث يتم إعداده للهاث وراء البضاعة التي هي موضوع الإعلان الاشهاري.

يتجلى حضور الايدولوجيا في مجال الإعلام فيتمثل في تحول المنتج الإعلامي ذاته إلى بضاعة تخضع لمنطق تجاري محض وهنا يتحول الإنتاج الثقافي أيضا إلى بضاعة ثقافية .

إما التجلي الأخر فهو يكمن في احتكار الثورة الإعلامية -المعلوماتية ، فمهما تذرع إيديولوجيو ثورة المعلومات والاتصالات بأنها ثورة تؤدي إلى اقتسام ثورة المعلومات والإخبار ، فان القرائن تظهر أن تدفق المعلومات هو تدفق يتحكم فيه عقلان : الأول عقل اقتصادي يعادي النزعة النقدية ويهرع وراء تراكم رأس المال .والثاني عقل سياسي يعادي هو الآخر النزعة النقدية ويهرع وراء تأييد سيادة السلطات المؤسساتية القائمة وهو التجلي للايدولوجيا في حقل الإعلام فيتمثل في تقنية الإضمار التي تحبك تفاصيلها وسائل الإعلام خاصة المرئية منها حيث يتم تورية الحروب والجرائم ...الخ .

ثانيا : بالمقابل ثمة أجابه ثانية وهي أكثر جذرية ترى بالتحول على أنه تحول حضاري هام ودليلها على أن الكائن الإنساني رهن لإمكاناته على أن يحول الواقع ،وأن يتغير عما هو عليه ،فكراً وهوية أو فعلاً وممارسة ، من خلال ما يخلقه من العوالم المختلفة بقواها وعلاقاتها ، أو المتميزة بلغاتها ورموزها ، أو الفعالة بأدواتها ووسائطها.

واليوم تتفتح مع ثورة المعلومات إمكانات هائلة أمام الإنسان ، تتجسد في قدرات خارقة على الفعل والتأثير.انه الإنسان التواصلي الذي تتيح له الأدمغة الآلية والتقنيات الرقمية التفكير والعمل على نحو كوكبي وبصورة عابرة القارات والمجتمعات والثقافات .

مهما اختلفت المواقف لكن نحن جميعا ندرك أن أمام موقف اتصالي وأخر غير اتصالي وبالتالي فان بنية الخطاب "العلاقة بين الديمقراطية والإعلام وإشكال الاتصال"في الفكر الغربي الذي فيه خطابين إعلاميين الأول يقوم على هيمنة التقنية فيما يهيمن في الثانية على دور الإنسان- من خلال الفهم الذي يقدمه هابرماس للاتصال -كلما كان فهم التقنية يعتمد على مرجعية ثقافية كلما كانت تكنولوجيات الاتصال الحديثة أكثر إنسانية في أدائها.أن الإمكانيات المتاحة للتواصل الإنساني على الشبكة العالمية للإنترنت أو عبر الأقمار الاصطناعية قد وفرت فعلا فرصة الحوار والجدل بشكل يبدو حر لكل الناس وأتاحتها أيضا وهنا تكمن الإضافة فرصة بناء إشكاليات إنسانية كبرى (الصحة، التعليم، السلم..)

وفرصة وجود حلول جديدة لها، من أن أجل أن يبقى الفضاء العام الشمولي ظاهرا للعيان وحاضرا في دفع قضايا أي مجتمع من خلال تكنولوجيات الاتصال فإنه يجب الاعتراف بإمكانية هذه التقنية في نقل المعلومة وتبادلها وتخزينها داخل سياق سياسي وثقافي لماهية الاتصال الاجتماعي. لبلوغ هذا على الفضاء العام واقتصاد السوق بالاعتماد على مجتمع المعرفة بشقيه الاقتصادي والسياسي على أن يندمجا وأن لا يتنافرا ويمكن ذلك عندما يستطيع الذكاء الجماعي لا الفردي في نسخته السياسية أو الاقتصادية أن يحقق وحدة الاتصال والإعلام بوصفهما ظاهرة تطبق عليها التقنية والمعلوماتية كصيرورة من التواصل الإنساني هدفه إنارة الفعل الجماعي.تتناول هذه الدراسة جملة من الإشكاليات عن الاتصال وعلاقته بالتقنية في زمن العولمة. إنها مقاربة نقدية لربط السياسة بالإعلام والاتصال والمعرفة بالسلطة والتقنية بالمجتمع من زاوية جديدة اسمها علوم الإعلام والاتصال. وهو تخصص معرفي يشمل عديد من الحقول المعرفية المتداخلة منها الإعلام الجديد ومجتمع المعلومات وتكنولوجيات الاتصال الحديثة

من اجل فتح أفق جديد لخطاب تواصلي تفاعلي يساهم في الجمع بين التقنية والفعل الإنساني(أن تعامل كإمكان وفرصة ، أو كفضاء وأفق . وعندها لا تعني عمليات العولمة نفي الأطوار والمعطيات السابقة ، بقدر ما يعني الاشتغال عليها والعمل على تحويلها بغية استدماجها واستثمرها في ما يفتتح من الحقول والمجالات أو يبني من الأنظمة والمؤسسات أو يبتكر من الأدوار والمهمات).

غاية البحث :أننا هنا، نحاول أن نقدم قراءة ،من خلال البحث في إشكالية الخطاب الأعلام بشكل عام والأعلام العربي بشكل خاص , في مسعى إلى تحليل الوعي الذي يتشكل بفعل تلك السياسة الإعلامية العربية وما تعاني من عوائق فكرية وتقنية ،وهذا يحصل عبر الانطلاق من الواقع الإعلامي وخلفياته الاجتماعية والمعرفية والسياسية وإثرها في تكوين تلك المشكلة التي نحاول الوقوف عندها وعند التحديات التي يتركها الأخر عليها.

حدود البحث : ما نريد الخوض فيه يكمن في دراسة التجربة الإعلامية العربية والغربية وأهداف كل منهما ونتائجهما الضارة و النافعة على الوعي العربي و الإسلامي، نظراً للارتباط الأعلام بمصالح تحركه من اجل تطويع المتلقي للرسالة التي يسعى ذلك الأعلام من اجل إيصالها.

فان عملية الاتصال تمثل حلقة الوصل بين الرأي العام(public opinion) الذي يمثل اتجاهات الناس نحو قضية ما أو آرائهم الآنية واعتقاداتهم من جهة وصانعي القرارات من جهة أخرى , استمرار هذا التفاعل يضمن الحفاظ على الاستقرار السياسي والاجتماعي واستمرار عملية التغير المجتمعي والسياسي بطرق سلمية تضمن التعددية والتداول السلمي للسلطة،فإن الاتصال - بحسب ما سبق- ظاهرة اجتماعية ثقافية غاية في التعقيد , وجزء لا يتجزأ من الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية والتربوية ،لهذا يمكن إن نرى مدى ذلك الاتصال بين الأعلام بوصفة آلية فعالة في إنتاج الوعي وبين السلطة التي هي بمثابة القوة الفاعلة اجتماعيا وسياسيا وإعلاميا في توجيه تلك الآلية في تسويق سياستها إلى الرأي العام .

مشكلة البحث :

" تقوم على دراسة الصلة بين الإعلام والديمقراطية"ومحاولة استعراض إمكانية تناول إعلام حر اتصالي يعيش اهتمامات الناس ويمارس نقل همومهم ويبلور حوارات اجتماعية تقوم على الاتصال والاعتراف . في وقت الواقع العربي والعراقي "على وجه الخصوص" تغيب فيه ملامح التواصل والتفاعل بين إفراد المجتمع

فالمعروف أن الخطاب الإعلامي اليوم يقوم في جزء كبير منه يقوم على فكرت الحوار والاتصال والاعتراف بالمهمشين والمقصين؛

لأنهم يمثلون جزء كبير من الذات بالمقابل نلمس اختلاف في فعالية الأعلام في الفضاء العربي فهو مصاغ بحسب القوة السياسية التي توجهه فإذا كان النظام السياسي " السلطة " يعتمد الاستبداد و التفرد ويتخذ من القوة طريق في التعامل مع الرأي العام عبر التحكم في تصرفات الآخرين وممارسة الضغوط عليهم. لكل إنسان الحق في التأثير وإقناع الآخرين بوجهة نظره أو فكرته أو مشروعه، بل هذا شيء سامي يمارسه كل عظيم ونبيل في البشر، لكن ليس من حق إنسان، أياً كان، ومهما كان، إجبار آخر على رأيه وفكره أو دينه.

فان وظيفة الأعلام تنصب من خلال العمل على نقل رسالة من يمتلكون القوة إلى من يستجيبون لها وهذا حال الأعلام في الأنظمة الشمولية التي تحتكر القرار السياسي والإعلامي معاً يغدو دور الإعلام يقوم على تمثيلا للواقع وليس الواقع نفسه.إما إذا كان النظام السياسي الذي يقوم على المشاركة فان ذلك يظهر في فعالية صناعة القرارات لأنها تكتسب شرعيتها من المواطن ,و بين الاثنان تباين عميق يصل إلى حد البناء الذهني للمجتمع الذي يمكن وصفه ببعديه: الأول المجتمع العصبي والأخر المجتمع الديمقراطي .

المبحث الأول بنية الخطاب الإعلامي في العالم المعاصر

الإعلام والتواصل

1-الرؤية التواصلية الإعلام داخل الفضاء المعاش

أولا : في هذا المجال لابد من التأكيد على أمر أساسي قوامه إننا في ظل عهد معرفي جديد وان التحول يشكل قطيعة مع الرهانات القديمة وبالتالي ثمة مجتمع جديد يتشكل مجتمع كوني عالمي فوق المجتمع التقليدي القائم على روابط القرابة أو اللغة أو العقيدة -كما في المجتمعات الزراعية - وهذا المجتمع الجديد أيضا خارج رابطة المواطنة -التي تشكلت في ظل المجتمع الصناعي - بل أن المجتمع الجديد يقوم على رابطة هي الاشتراك في الشبكات الالكترونية مجتمع تداولي .تغيرت فيه الثقافة وبدأت تأخذ اطر ومسارات من حيث الشكل والمضمون أو من حيث وسائطها ومسالكها أو من حيث آلياتها وتشكيلها أو طبيعة القوى التي تسهم في إنتاجها واستهلاكها بحث بدت هذه الوسائل تؤسس إلى إنسان عالمي بعيد عن المؤسسات الوسيطة التي تعتمد خطاب الوصاية ضمن ثقافة موحدة مهيمنة كل هذا تحطم في ظل الحريات التي تتيحها الممكنات التقنية والمعرفية التي تتيح للمرء الاطلاع على كل معارف العالم الشبكات الالكترونية التي بدأت تحل مكان المكتبات العامة والتأويلات المؤسساتية التي تحتكر الوصاية على الحقيقة والمعنى .

في ظل هذا التحول الحضاري لا يمكن طرح مفاهيم الوسيطة الاثنية والقومية ولا الطائفية ولا الوصاية التي تقيمها الدول الطائفية ولا العشائرية أو العسكرية ولا يمكن إعادة عرض أفكار الحرب الباردة وطابعها ألارتيابي.

إذ هناك حقبه حضارية تتشكل وليس الأمر مجرد منطق تقني فقط لقد تحطم سور الدولة والطائفة والقومية واللغة و ما عدنا أسرى وأحادية المعنى نحن إمام حرية لا توصف وإمام منطق جديد من الصراع على المعنى تغير فيه من حيث البنية والنظام ومن حيث(مرجعياته ونماذجه ،أو من حيث منطق اشتغاله وشفرات تواصله فلا يجدي التعامل معه وكأنه شيئا لم يحصل)

الأمر الثاني :في ظل هذا الواقع نحن إمام نوع جديد من الاستخدام للإعلام هناك في ظل هذا المجتمع التداولي نوعين من الإعلام يحاول توظيف الممكنات التقنية والمعرفية والأخلاقية والمعرفية في بناء رسائله الإعلامية، في هذا المجال يقدم هابرماس توصيف جديد إلى الخطاب الإعلامي من حيث الوظيفة التواصلية التفاعلية اذ يرى هابرماس (أن وسائل الإعلام الجماهيرية تحمل في داخلها قدرة متناقضة أو متضاربة ، وسيكون خروجا عن الموضوع ، الزعم بشكل ثقافي -كما فعلت النظرية النقدية القديمة -أن وسائل الإعلام الجماهيرية تخرب كل رأي عام نقدي ، فهي على العكس من ذلك يمكن أن يعزى إليها دون شك قدرة تحريرية)

إن هذا التوصيف النقدي يعيد قراءة المواقف النقدية من الإعلام في وقت كانت الرؤية الراديكالية تتهم الإعلام بالاداتية فان هابرماس يعيد اكتشاف جانب مهم من الإعلام هو القدرة على التحرر و مجال التحرير يشمل اجتهاد الذات معرفة نفسها، أو التأمل في الذات. أما مدخل المنفعة إلى هذا المجال فيتمثل في صياغة التاريخ والسيرة بما يوافق الرؤى الذاتية والتوقعات الاجتماعية. التحرير مطلوب إذن من القوى المؤسسية والبيئية والجنسية التي تحد من خيارات الإنسان، ومن التحكم العقلاني في الحياة، والتي يؤخذ بها باعتبارها أمراً واقعاً لا يقوى الإنسان على الفكاك منه، لكونه خارج دائرة تحكمه. على هذا الأساس فإن البصيرة المستمدة من الوعي النقدي تعد تحريرية بما أنها تسمح بالتعرف على الأسباب الصحيحة والحقيقية لما يواجه الإنسان من مشاكل. معارف التحرير تتأتى من خلال التحرير الذاتي الناتج عن التأمل والذي يفضي إلى (تحول الوعي) أو(تحول المنظور.) ويمكن أيضا أن نجد أن النص يقدم لنا البعد الجدلي الذي يأخذ القراءة الرأسمالية لدور الإعلام ثم القراءة الراديكالية ثم القراءة التواصلية أي ممكن أن يأخذ بعدا ثلاثيا :القضية (أي الإثبات أو الأطروحة) ونقيضها (أي النفي أو الطباق) والقضية الناتجة عنهما (أي نفي النفي أو التركيب)

فمثلما أن للإعلام دور معلوماتي إشهاري له أيضا دور تواصلي هذا ما تستنتجه القراءة التواصلية حيث تعيد اكتشاف الوظيفة التحررية القائمة على التواصل أو التفاعل الذي ينتج رأي عام يساهم في تغير الواقع وعلى هذا الأساس -نحن نطوع فكر هابرماس ونتأولها –ثمة نوعان من الاتصال : الاتصال السليم والاتصال غير السليم .

الأول الاتصال السليم :

يقوم على أخلاقيات النقاش المعتمدة على لغة تواصلية مرجعية مشتركه مرجعيا ونحويا ، فيما هناك غايات متفق عليها في تحقيق تواصل من اجل إرساء قيم ومعايير تحقق التفاعل الذي يحاول إيجاد قاسم مشترك من اجل حل النزاعات موضوع النقاش والتواصل يروم بلوغ غاياته النهائية في تكوين رأي عام نقدي ومقوم للشأن العام .ومجال عمل هذا التواصل داخل العالم المعاش أي العالم الواقعي وهذا العالم منقسم بدوره إلى ثلاث فئات هي الثقافة ، المجتمع ، الشخصية ،وهي مكونات العالم المعاش .

إما الثقافة (الرأسمال الرمزي) :التي يعود إليها المشاركون في التواصل في تأويلاتهم وتفاهماتهم حول الأشياء المنتمية للعالم .

ونحن نلمسها بحسب تأويلنا في التراث أو القيم المشتركة التي تجعل التواصل ممكن ، لان الجميع يتخذ من مرجعيه له وان تنوعت الإفهام .

إما الثاني فهو المجتمع :وهو يمثل تلك الضوابط المشتركة ومشروعيتها التي بواسطتها ينظم المشاركون في التواصل انتماءاتهم إلى مجموعات اجتماعية ، ويدعون كذلك الى تضامنهم .

وانأ أتناول هذا المجتمع بحسب المقدمة فأراه ثلاث مجتمعات بينها انكسارات جيولوجية وتداخل : فهو مجتمع زراعي يعتمد منظومات قيم مذهبية وعشائرية ، أو مجتمع مدني يعتمد منظومات طبقية ونقابية وأحزاب، ومجتمع تداولي يقوم على أساس الفضاء الافتراضي والانترنيت وعالم المعلوماتية .

إما العنصر الثالث "الشخصية":فهي تلك القدرة التي بفضها تكتسب ذات ما قدرة على الكلام والفعل والقدرة على الانضمام إلى صيرورة التفاهم وبالتالي تثبيت المقدرة الخاصة فالحقل السيميائي ، والزمان التاريخي يشكلان الإبعاد التي من خلالها تتطور الأفعال التواصلية .

الثاني التواصل المشوه :

لا يقوم على افتراض اتفاقيات مشتركه حول اللغة وقد لا يتعامل معها كونها أداة للتواصل ؛لأنه يعتمد وسائل إستراتيجية تقوم على الهيمنة الاداتية من اجل التمويه والتلاعب بالمجال العام من اجل إخضاعه لتلك الأنساق الاقتصادية والسياسية مما يؤدي إلى خلق إجماع زائف يختلق رأي عاما داعما للنظام السياسي مسلوب الإرادة . إلا أنها مرجعية ثقافية تكتنز انساق قاره في اللاوعي الجمعي قد تكون حائل كبير دون الاعتراف بالتعدد والتنوع والاختلاف ، بحاجة إلى نقد وأعادت النظر بها كما سوف نرى في المبحث .

وبالتالي نحن نجد الإعلام بين الرهانين السابقين فالأول منهما هو التواصلي ألتفاعلي الذي يقوم بوظائف رقابية من اجل حماية المجتمع والمجال العام من خلال التالي :

أن غياب هذه الوسائل بصفتها الحرة ، ومنع الناس من التواصل السليم بصورته الاشهارية ، يقلل ويحط من أهمية ونوعية الحياة الإنسانية .

إن للإعلام أثرا أساسيا في نشر المعرفة والنقد ، فهو يمارس أسلوبا الكشف عن المعلومات من جهة ، وتحليلها ، والتحقق منها والتحقيق فيها من جهة أخرى .

للإعلام وظيفة حمائية للمهمشين والمهملين ، من خلال إيصال أصواتهم من خلال ، اتصال بين الحكام السياسيين ، الذين غالبا ما يكونون منعزلين عن المجتمع .

إن تشكيل القيم عبر التواصل والانفتاح والنقاش تعتمد الإعلام لجعل العملية التفاعلية بإنتاجها خاضعة لمعايير عامة كونية عبر نقاش ممكن أن تسهله وسائل الإعلام تلك .

2-المجال العام والإعلام .

في حالة اضمحلال أخلاقيات النقاش في المجال العام من خلال غياب الحوار التواصلي ومنع الجماهير من المشاركة في الشأن العام عبر نزع الصفة السياسية عنهم ومن خلال اتخاذ القرارات وتشريع القوانين بصورة تسلطية يودي هذا الطابع المهيمن إلى انبثاق أزمة الشرعية والنزاع حول قبول المجتمع بشكل النظام السياسي وممارسة الهيمنة .

ماذا يكون دور الإعلام أكيد يكون إما: أعلام خاضع إلى السلطة السياسية ألقائمه على الإقصاء فاقدة الشرعية فيكون دور الإعلام التضليل وخداع الجماهير وتبرير ممارسات السلطة السياسية ، أو يكون إعلام حر يسعى إلى فضح التضليل والخداع وكشف ما يحاك من إعمال لا تصب في مصلحة الجماهير وفي هذا يكون دور الإعلام السليم دور مهم -كما يرى هابرماس: –

1. في تسهيل عملية النقاش عموما

2. وتبينان الصلة بين الوجوه المتعددة لوسائل الإعلام

وهكذا يمكن أن تتحقق وظائف التواصل الثلاث وهي: التبادل Echang ،التبليغ Transfert ، التأثير Impact.

المبحث الأول الرؤية المهيمنة اللاتواصلية في العالم العربي

المطلب الأول :البعد الاداتي المهيمن في الفكر السياسي:

من خلال العلاقة بين الإعلامي الواقع السياسي وما يفترض أن يقوم به الإعلام أين يمكن أن نضع الواقع الإعلامي في العالم العربي؟ فالملاحظ انطلاقا من تلك الفرضية التواصلية أن الذي يهيمن هو إعلام غير تواصلي وبالتالي فان فلسفة الأعلام في بلادنا لا تخرج عن نطاق التجهيل و حجب المعلومات ويرجع ذلك إلى طبيعة النظام السياسي الحاكم للأعلام فهو إما: نظام الملكية والتبعية للأجهزة الرسمية أو الخضوع لسيطرتها ورقابتها , فهذا يعتمد سياسة الحجب للمعلومات أو الكشف عن المناسب منها وهذا الأمر يعكس نزعه استبدادية فانه إعلام سلطوي السمة الرئيسية المشتركة لمعظم الأنظمة العربية التي تمثل في كونها أنظمة يسيطر عليها القابض على المركز الرئيسي لصنع القرار السياسي في قمة هرم السلطة فيكون دور الأعلام تنفيذ سياسته الدعائية والترويج لمصالحها لا للصالح العام إلا أنها تقدم تلك المصالح على أنها تمثل الصالح العام .ولكي نعرض لهذا الأمر لابد من تناول نقطتين:

أولها الشرعية السياسية للدول:

إن الواقع العربي واقع بين تخلف أنظمته السياسية والثقافية والاجتماعية وهيمنة الأخر عليه ,مما يجهل الخطاب السياسي يميل إلى الاستبداد والهيمنة التي لم تستثمر منجزاه العقلانية النقدية للحداثة ومرد هذا يعود إلى الإشكالية التحديث التي أشرفت عليه الدولة في وقت ظهرت فيه الحداثة الثقافة الغربية التي تقلب التقليدي وتستبدله بنظام مغاير يقوم أساسا على التعاقد الاجتماعي والشراكة وتدشين مؤسسات المجتمع المدني وحرية الرأي والاعتقاد (إن احد خياراتها في العقلانية و الديمقراطية ، وفصلت الدين عن الدولة ، وأطلقت مؤسسات المجتمع المدني لتؤسس الاندماج والوحدة ، من داخل التنوع والاختلاف). وهذا جعلنا إمام نظامين اجتماعين وحضاريين

الأول : المتمثل بالحداثة الوافدة من الغرب فهي تقدم حداثة سياسية تقوم على التعاقد الاجتماعي القائم على أساس إن الأفراد المكونين للمجتمع متساوين في الحقوق والواجبات وتظهر الديمقراطية بوصفها نظام يغدو الإطار الدستوري والقانوني للحرية التي هي انفتاح مسئول على الإنسان بالسلوك في إطار الايثارية , وهو الشق الأول منها , أي من الديمقراطية للحرية وللتناوب الإيديولوجي الحر على السلطة والحكم من اجل تغير الواقع والإنسان سلميا استجابة لتحقيق حاجاته المادية والمعنوية وهو الشق الثاني منها . والديمقراطية , بقيمها المتحررة ألمبدعه لتميزها إياها من قيم العصبية المتزمتة ألمعيقه لكل أبداع .

فالمجتمع الديمقراطي نقيض المجتمع العصبوي في الوقت الذي نرى المجتمع الديمقراطي ينظر إلى الحرية مقترنة بمسؤولية الالتزام بقيم المساواة والديمقراطية والعدل والحياة الانسانيه واحترام شخص الإنسان وحريته والحفاظ على المجتمع وعلى وجوده نظيفاً صحيحاً خاليا من كل تلوث تسعى إلى تغير الواقع عقلانيا فهي لا تطلب السلطة لذاتها, بل لأجل إنماء الإنسان وتحقيق أهدافه

أما الثاني : المجتمع العصبوي الذي ينطلق من مفهوم العصبية وهي شعور فئوي بوحدة ألجماعه المتميزة , بشوكتها لكونها سلطة واحده وجسما واحداً , ومصلحة واحدة , قوية التضامن والتماسك , يشد أفرادها بعضهم إلى البعض , شعور بالانتماء إليها لا إلى غيرها من الجماعات وشعور الانتماء هذا يولد في أفرادها التزاما قيما فئويا نحوها , بكل مالها وما عليها التزاما واجباً ومسئولا يجعل الأخ ينصر أخاه ظالما أو مظلوما ويجعل جماعة العصبية ترى " أشرارها أفضل من أخيار غيرها " وان وحده الشعور بعصبية الجماعة هي في أساس التعصب الديني والوطني والقومي والعرقي , والتميز بين الناس والشعوب والتقارب بين الهوية والعصبية كبير " فالعصبية " إنما تكون من " الالتحام بالنسب من الولاء والتحالف . وابن خلدون يرى " إذ النسب أمر وهمي لا حقيقة له , ونفعه إنما في هذه ألوصله والالتحام في الوقت الذي يبدو النسب أمر وهمي كذلك الهوية فهي تخضع للاختلاق والتلفيق عبر تغييب الأصول في العملية ,

وان تقصى كل فرص الاعتقاد بأن هذه العملية من صنع الإنسان . وتعي الجماعة خصوصيتها واختلافها عن الجماعات الأخرى . عندئذ تبدأ هذه الجماعة في تشكيل إطار ثقافي تموضعه فيه إي تبدأ في تشكيل هويتها الثقافية ثم تحول تلك العصبية أو الهوية إلى بنية قيمية توجه السلوك وتخلق تصورات ألجماعه حول ذاتها وعلاقتها مع الآخرين فالعصبية : نعرة فئوية ، دموية ، رحمية ، ملازمة ، لنمو النوازع الأوليه يتربى عليها الطفل , وتبدأ مع ألام في الأسرة .. وهذه الفئوية وقوتها تشكل شوكة الجماعة , ثم تستحيل , بفعل التطور إلى فئوية طائفية ، دينية أو عرقية تستمد نعتها لا من الدم فحسب ، بل من الشعور الديني أو المذهبي أو العرقي الفئوية ، ثم تستحيل إلى فئوية إيديولوجيةمن الفكر الطائفي العرقي والانتماء الحزبي وعلاقات تنشأ منها فئوية متعدد في المجتمع العصبية يقوم على ولاء فئوي أهلي بالمقابل فان المجتمع الديمقراطي إنتاج الحداثة السياسية القائمة على التعاقد وفكرة المواطنة بوصفها علاقة بين المواطن مجتمع ـ دوله هو تميز المجتمع عن الدولة بالمقابل المجتمع العصبي ينظم اجتماع الجماعة على أساس الشعور بالانتماء إلى جماعة معينة على أساس قرابة الدم أو الاشتراك في الدين أو في المذهب وهذه العصبية كما لاحظنا هي الدرجة الدنيا والأولية في البناء العصبوي ،

وقد لا تكون دائماً مبعث مشاكل اجتماعيه أو سياسية طالما بقيت في حدود التضامن الذي يؤسسها بوصفها علاقة طبيعية وليست مدنية وتبدأ بالظهور من بنية إلى سلوك عندما يبدأ ولاء الناس للكيان الوطني للدولة بالاضمحلال يغدو ولاءهم لعصبياتهم أعلى و اشد من الأول.ومن ملامح هذا النمط من المجتمع الذي تسوده الو لاءات العصبية المتصارعة إن يتصف بأنه " بلا إجماع سياسي " منقسم على ذاته بفعل هيمنة احد العصبيات على الحكم وتحويلها إلى سلطة تحكم بفعل القوه والإكراه تعمل على فرض أرادتها على غيرها بالقوة بعد إن تحول إلى السلطة ،أي إلى واقع سياسي ينقل الولاء من الطائفة والعشيرة إلى السياسة فغدو توزيع الولاء على أساس القرب الدموي أو ألاثني في قيادة الأجهزة الأمنية والوزارات والأماكن القيادية "أي أهل الثقة وأهل الخبرة "؟ فان البحث عن الإتباع يقتضي بالضرورة الطاعة العمياء لان الاختلاف يقتضي بالضرورة الإقصاء والتصفية المعنوية والجسدية داخل الطائفة أو العشيرة نفسها مما يعنى إن الدم مجرد وسيلة وليس غاية بذاتها في التوظيف السياسي للعصبية انظر التوظيف السياسي الاختلاف والتباين لان "الهويات تبنى من خلال الاختلاف "

إما إذا عدنا إلى السلوك العصبي الاجتماعي فانا نلاحظ في سلوك تلك الأقليات-إي أقلية أو أثنية في عالمنا العربي- أنها على المستوى السياسي والفكري تعيش انفصالا على مستوى العقيدة أو المذهب أو الدم.

إما على المستوى الاقتصادي حيث يزول ذلك الانفصال إذ يحدث تعاون وتبادل المصالح لهذا نرى الفئة فيما بينها تفاوت اقتصادية يحولها إلى طبقات لكن الفكر يوحدها اتجاه غيرها لذلك نلمس الدول في الوقت الذي يعيش اغتراب عن واقعها المنقسم إلى عصبيات طائفية وفئوية وقومية تحاول إن تغلب علية باعتمادها أحدى العصبيات المهنية التي تعتمد الإكراه مع غيرها فان الدول رغم عصبيتها إلا أنها تعمل الخطاب الديمقراطي ولزيف التجربة الديمقراطية سعياً إلى كسب الشرعية التي يراها الكثيرون في:

1. إما هيمنة القانونية التي هي ذات طابع عقلي .

2. والهيمنة التقليدية طبعاً للعرف (أو العصبية) والمهيمنة الكاريزمانية أي ذو القدرة الخارقة على سحر الجماهير التي هي ذات طابع انفعالي وتتطلب الثقة الكاملة برجل استثنائي أو القائد الرمز ومن ثم دمجه دمجاً احتكارياً.سياسي ويسوغ إعلاميا وتربويا ودينيا ، حتى يغدو كاسمنت المسلح في توجيه الجماهير وصياغة الرأسمال الرمزي لهم دون إرادتهم يقادون إليه وبالمال العام للدولة الربيعية التي يمارس عليها الفرد دور رسولي ينقذها من سباتها الطويل إلى اليقظة ، والحقيقة لما يمتلكه النظام العصبي الشمولي في عالمنا العربي يريد إلغاء الاختلاف فيعيد تطويع الأمة حسب أهدافه ومراميه لما يمتلكه من قوة ومعرفة فهو يمارس سياسة المراقبة والمعاقبة يعتمد كل الآليات المتاحة طال ما كانت علاقته بالأخر الأجنبي مستقرة .

لهذا فان الثقافة الوطنية هي ثمرة التقاطع التاريخي بين الثقافة المحلية التقليدية من جهة وثقافة الغرب المستعمرة من جهة أخرى ,فهي بقدر ما تشير إلى هوية " ألانا " المحلية الخاصة بنا بوصفنا عرب بقدر ما تنطوي على المفهوم الجديد الذي أيقظ الوعي بالهوية الوطنية في الوقت الذي كان يطمح إلى انتهاكها وتدميرها فلقد كان من الطبيعي ان تؤدي المجابهة مع الاستعمار والتفاعل معه إلى إن يكون الهدف القريب والمباشر للاستغلال هو استرجاع الدول وإعادة بنائها على قاعدة قطرية فالاحتكاك بالأخر محبوب نظراً لتقدم الأخر العلمي والحضاري مكروه لما تركه الأخر من أثار نلمسها في تخلفنا بسب الاستعمار ، إلا إننا في دراستنا لظاهرة الدولة والمشروع السياسي إمام أمرين:

الأول :أنها ليست وليدة فعالية داخلية أنتجتها الظروف ألداخليه بل هي وليدة فعالية خارجية هيمنت على المنطقة عسكريا وفكريا بإنتاجها لمفهوم الحديث للدولة.

الثاني : أنها تنتمي إلى بعد اجتماعي وتاريخي واقتصادي هي وليدة هذا الأمر .

إن الحكومات التي ولدت في هذا الفضاء الاداتي حيث هيمنة المحتل أو هيمنه الماضي عبر قراءات إحيائية اتخذت منها الدول المستقلة سواء كانت وعائل حاكمه أو انقلابات ثورية مرجعية من اجل اكتساب الشرعية ومن هنا كانت مساعي الحكومات العربية تتمثل:

أولا- إن تحوز على الشرعية عبر انتسابها الاجتماعي ذو الطابع العصبي سلوكاً وطريقة تفكير عصبوية تقوم على التمركز حول ألذات وإقصاء الأخر.

ثانياً - تحاول إسباغ الشرعية عليها عبر ادعائها الديمقراطية التي تتصف:

1- اختزال التجربة الديمقراطية بعزلها عن العمق الشعبي وجعلها مجرد تجربة لا تجد أي تأثير لدى القاعدة الشعبية

2- سطحية وهشاشة التجربة الديمقراطية بوصفها نظرية سياسية في الواقع العربي مما حاولها إلى مجر ديمقراطية شعارات استهلاكية .

3- غياب المؤسسات الدستورية ، تحت وطأة الدول السلطوية الاستبدادية ، التي تكرس حكم الفرد " الكاريزما نية " في مقابل حكم الأغلبية ، وقانون الرئيس أو الزعيم أو القائد على حساب حكم ألجماعهآو المؤسسة ، أو الأحزاب .

4- تأسيس الثقافة الديمقراطية وجعلها ثقافة تبشيرية للنظام الحاكم ، بدل تثقيف السياسة الديمقراطية ، بإسناد مهمة تطبيقها ورعايتها وتعميق مفاهيمها لدى أبناء المجتمع.

5- تكريس غياب الديمقراطية في الحياة السياسية العربية هو استبعاد منطق التعددية السياسية بحجة إن هذه التعددية تؤدي إلى تكريس الخصوصيات في حين المطلوب دمج هذه الخصوصيات في ورقة ألدوله لكن كل المحاولات القسرية لم تؤدي إلى انصهار الخصوصيات في بنية ألدوله وبالتالي فان العجز عن تحقيق دوله ألمواطنه.

6- إن أدق تعريف للنظام السياسي الممارس في أدبياتنا السياسية ،انه نظام لا عنوان له . فهو مزيج من العشائرية ، والطائفية والقبلية والجهوية ، والمذهبية ، والسلطوية ،والديمقراطية والإسلامية والجمع بين هذه فالاستبداد آفة ممثلة في السلطوية ، وغياب المراقبة على الحاكم ، ومزاجية الحكام وتهمش الكفاءات وإقصاء النزهاء ، مفضلا عن الاعتقال والاختطاف والتعذيب وغير ذلك من آفاق الحكم المستبد كما إن الديمقراطية عناوينها من الدستور ومؤسسات ومحاكم وانتخابات ونواب وحكومات وصحافة ولكنها عناوين أفرغت من محتوياتها وهذا الأمر انعكاس إلى تلك البنية العصبيويه التي تقوم على الإقصاء والتمويه وإبقاء الكل في حالة صراع الهدف السلطة لذتها داخل العصبية الواحدة أو مع باقي العصبيات، عبر خلف تحالفان مع بعضاهما ضد بعضها الأخر وسرعان ما ينتهي هذا التحالف بمجازر دموية تعمق الصراع حول المناصب وتوغل في الإقصاء لقد أقامت تلك السياسة الاقصائية بإنتاج الرفض الفكري من الكثيرين المفكرين الذين تم زجهم في المعتقلات لأنهم يعارضون أفكار السلطة،هذا قاد السلطة إلى إنتاج العنف المضار الذي كان يشكل رفض لسياستها لعل التكثيف الذي قدمه المفكر "حسن حنفي" البليغ في وصفه العلاقة بين الدولة والموطن " فالدولة في ذهن المواطن هي الشرطة والمواطن في ذهن الدولة هو العاق أو الخائن أو العميل . ومرد هذا أيضا إلى الخطاب الحتمي الذي هيمن على الايدولوجيا العربي

كما يرى عبد الإله بلقزيز : إلى ذلك، قامت هذه التيارات الفكرية جميعها على فكرة الحتمية. وجوهر هذه العقيدة كما يرى بلقزيز هو جوهر فلسفي (مضمر أو معلن) يقوم على الإيمان بالحتمية بوصفها التعبير المطلق عن فعل قانون الموضوعية. ولقد كان هذا الإيمان الأعمى بها هو المسؤول عن سقوط الخطابين الليبرالي والماركسي في نزعة علموية فاضحة. فالدولة الليبرالية على النمط الأوروبي تمثل قدراً محتوماً في رأي الليبراليين العرب. أما الدولة الاشتراكية فهي حتمية تاريخية لا غبار عليها في منطوق الاشتراكيين العرب، وهو لذلك ينتهي إلى عدد من النتائج يشترك فيها الفكر السياسي العربي إذن انتهى إلى أن يصبح فكراً دوغماتياً، محكوماً بقطيعات نهائية وبداهات غير قابلة للنظر، فيمنع نفسه من تجديد نفسه ومن إثراء موضوعاته وفرضيات التفكير لديه، ويفقد مضمونه المعرفي والنظري متحولاً إلى أدبيات سياسية من طبيعة دعوية بحيث لا يعود في مكنته غير أداء وظيفة تحشيدية وتعبوية ليست من هواجس الكتابة المعرفية والنظرية. ومرد هذه الأزمة بنظر رضوان السيد أزمة الفكر السياسي الإسلامي بأنها غياب لمفهوم الأمة لحساب حضور مفهوم الشريعة وما تبع ذلك من تأسيس لرؤية الحاكمية القائمة على اختزال محدد للشريعة ينحصر وفقها العمل في النضال من أجل اقامة "الدولة الإسلامية"

وإذا كان هذا العمل انحرف إلى العنف فإن السيد لا يرى أن الإسلاميين هم وحدهم من سلك سبيل العنف من أجل التغيير بل هم حاكو في طريقتهم هذه النخب القومية المتحولة إلى اليسار. وما فعله الإسلاميون ليس سوى تقليد تحليلات وحلول تلك النخب مع إعطائها عناوين وشعارات إسلامية، فالجهاد المحول باتجاه الداخل الجاهلي هو الصراع الطبقي نفسه. وحرب الشعب الطويلة الأمد وحتمية الحل الاشتراكي هي حتمية الحل الإسلام نفسها.

المطلب الثاني : المعوقات التي يعاني منها الخطاب الإعلامي العربي:

في ظل هذا الفقر الفكري مجال إنتاج معرفة نظرية بالمسألة السياسية، مسألة الدولة والسلطة والمجال السياسي.نجد أن جميع التيارات الفكرية العربية المعاصرة تتفق في الاحتفال بالمسألة السياسية، مما يجع الحاجة إلى الشرعية أخذت الحكومات والأحزاب المهيمنة الآليات والوسائل التي تمهد لها تحقيق حيازة الشرعية وهذا لا يتحقق إلا عبر صياغة الرأي العام (فان الرأي العام الذي تبلوره وسائل الاتصال هو ذلك الرأي الذي تؤسسه الدولة ، أي المؤسسة السياسية ، وفق ما يخدم المصالح الآنية والمستقبلية)" و هذا يظهر في بنية العلاقات التي أقامتها ألدوله مع الأعلام ، والقيم التي رسختها في سلوكياته إذ إن الأعلام احد آليات السلطة السياسية المستبدة في عالمنا العربي وهذا يعود بشكل إلى امتلاك ألدوله بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر عبر التشريعات التي تعقد حركة الأعلام الخاص.، وكان لهذه السياسة اثر بعيد المدى على الإعلام:

وقد تركت تلك السياسة اثر بعيد في طبيعة ذلك الأعلام الذي انقسم بالساحات العامة التالية:

إن سياسات الاتصال والأعلام لم تدمج على الملائم في سياسات التنمية للقطرية أي انه كان بعيداً عن الدور الفاعل في تطور التنمية عبر النقد والمتابعة التوعية.

تفتقر سياسات الاتصال العربية إلى أساس العلمي من المعلومات والوثائق والأبحاث والميزانية ولعل هذا يتفق مع كونها وسائل دعاية للنظام لا تمثيل إلى الموضوعية والعلمية بل تعتمد الآنية والارتجال الذي هو طبع الحكومة والحياة الاقتصادية وبالتالي الأعلام.

3- إن سياسات الاتصال العربية لا تستند إلى خطط واستراتيجيات طويلة المدى . وهذا يعني الآنية والمرحلية في السياسة الإعلامية.

4- الأعلام العربي هو إعلام رأسي يهبط من أعلى إلى أسفل وذلك يرجع إلى مركزيته وتوجيه الدعائي والذي يخدم رأس النظام وهذا يتخذ من الفرد الاستثنائي محل كل اهتمامها الأول لعل تلك الملامح ساهمت في ترسيخ السلطة القائمة وخلق سلوكيات عامة مرتهنة لهذا الأعلام في وقت تمارس القوه والإكراه الدور المرافق لهذه العملية ، مما خلف رأي عام ممزق خاضع لارتهان.فان تلك السياسة رسخت قيم سلبية إذ يمكن إن تلمس إن هذا الأعلام أشاع نمط قيمي معين نرصد فيه :

أ- قيم سلبية كرست ألنظره ألقيميه:القائمة على التمركز حول ألذات وعدم القبول بالأخر فكر أو نظام اجتماعيا واعتقاديا في ظل شيوع نمط التعظيم الذي يصل إلى حد التقديس السياسي وهذا ما يظهر في حاله احترام السلطة في الوعي العربي سرعان ما تتحول إلى هيبة ثم خوف وتعظيم يؤدي تدرجيا إلى استبعاد أي احتمالات للمراجعة والمساءلة أو المطالبة أو المحاسبة أو المراقبة وتلاشيها ومن ثم فان الاعتمادية المفرطة في امتدادها العام على الصعيد النفسي والسلوكي ، تؤدي في الذهن العربي إلى التهيؤ العام أو المنطقي لقبول حالة الاستبداد والحكم القهري المطلق ويقتصر أمل الفرد كله في هذه ألحاله على مجرد إن يكون المستبد " عادلاً " ومع التسليم بشيوعي نفسية " الإذعان للسلطة " مهما كانت مطلقه أو استبدادية تقوم على ألوان شتى من أساليب العنف والقهر التي وان خلقت طاعة ألا أنها طاعة شكليه وسطحيه تخفي وراءها مشاعر ومواقف مغايرة تماما تم كبتها بفعل أجهزه أمنيه ذات نفوذ استثنائي في وقت من الشروط الاتصال الصحيح توفر ثلاث عناصر:

1- وجود ثقافة بديله عما هو قائم .

2- وجود وسيلة اتصال تنتقل من خلالها الثقافة .

3- وجود فرد ومجموعه من الأفراد أو مجتمع يمكن إن يستقبل تلك الثقافة .

لكن الذي نراه غياب ثقافة بديله تحقق التنمية البشرية و تعمق السلوك الديمقراطي والتعددية, بل أنها ذاتها تلك الثقافة الاستبدادية التي تعمل أجهزة ألدوله على اشتراها مما خلقت اغتراب لدى المتلقي الذي تولد شعور بالاستلاب الذي يخلق شعور بالغربة إزاء السياسية والحكومة في أنها تدار من قبل الآخرين والمصلحة الآخرين وفقا لمجموعه من القواعدغير العادلة وفي هذا يقول حسن حنفي " طالما إن هناك عداء متبادل بين الدولة والمواطن فلا أمل في الإصلاح , هم ألدوله المحافظة على النظام وليس رعاية مصالح الناس وهم المواطن في الخلاص من نظام القهر والفساد وليس في الدفاع عن النظام لا يعبر عنه .

ب- قيمة الثنائية الحدية: قيمة أخرى تصور إن ثمة أنموذجين متناقضينلا يجتمعان معا أبدا أي التفكير بطريقة (إما ..وإما) أكثر وضوحا(من ليس معنا فهو ضدنا) ،وهذه الخاصية بالذات من شانها إن تقوض الممارسة الديمقراطية لأنها تؤدي إلى غياب الحلول الوسطي في التفكير والتحول المفاجىء إلى النقيض أنها سياسية متبعة في الحكم انتقلت إلى الأعلام تقوم على الإقصاء والتهميش للخصوم ونعتهم بكل صورة النمطية . أنها أزمة ديمقراطية لن تسمح للثقافة العربية إن تندمج بوعي الناس يمنحوها قوتها المادية في ظل الأعلام غير حر تتلاعب فيه السلطة تمنح الصحيفة حق النشر سرعان ما تعود إلى تغير قانونها بحسب اتفاقات حزبية تتحكم بها الرؤية الفردية القلقة..

ج- تكريس قيم ثقافة ألذاكره :في الوقت الذي تمثل أهداف الأعلام المعرفية في نقل المعلومات والخبرات والأفكار بقصد إيقاظهم وتنوير عقلياتهم يهدف رفع مستوياتهم الفكرية والعقائدية والعملية ، و الهدف المرجو في النهاية تحقيق تكييف لمواقفهم إزاء الحوادث والوقائع الاجتماعية وتحقيق تجاوبهم مع الاتجاهات الجديدة وإكسابهم المهارات المطلوبة ،نلمس الأعلام عندنا غالباً ما يعمل ورث تلك الأهداف عبر تكريس قيم ألذاكره القائمة على الأتباع والخضوع بما تعلنه الدعاية في سردها الرسمي عبر وسائل اتصالها المتنوعة والتي تستخدم احتكارها لحق الكلام في إيجاد أصلا يبرر ما تفكر فيه أو ما تسلكه انه يشكل ارغامات للوعي عبر اعتمادها الموروث في تسويغ سلطتها وعبر خلق نماذج فكرية وقيميه تتغلغل في وعي المواطن لتعمل على توجيه أفكاره وأعادت صياغتها، مخلفتاً تأويلات رسمية للتاريخ والواقع والمستقبل تتفق والسرد الرسمي للسلطة التي يعتمد الأعلام الرسمي المعتمد على ما يسميهم ساتر " مهنيو المعرفة " من اساتذه جامعات ورجال دين الموظفين لدى السلطة يبررون ما تريد و يسبغون علية الشرعية ، حتى يبدو علمي وشرعي في وقت هو خارج هذا كله انه إنتاج تلك ألحبكه التي تمكنت من خلقها السلطة وتعمل على توظفها في إرغامه وعي المواطن على تقبل أساطير السلطة المعاصرة ألقائمه على تمجيد ألذات الفردي تمثل ألصوره المرغوب بها القائمة على تفخيم ألانا الحاكمة الأمر الذي يقود إلى خفض قيمة الشعب واختياراته

وهذه ألحاله جزء من ماضي فكري تم بعثه عبر التمثلات السلطانية وأعادت إنتاجها في شكل جديد إلا انه نمطي ,وهذا يمثل انكفاء نحو نوع معين من الماضي استجابة كما يعيشه الحاضر من حالات تشوش وهو على عتبة تحولات كبيرة يشهدها العالم، إنماء قيم أو قيمة معينه إنما هو إنماء ليقيم مسانده لها .. تتساند القيم بأن تلتزم الواحدة بالأخرى بالتشجيع والتداعي والتسويغ ، مما يجعل نظامها متماسكاً ، مترابطا ولاسيما إن كانت القيم من النوع المستبد والمترتب عليها سلوكاً عنيفا ، مستبداً .هذا الأعلام عبر هذه السياسة إنما تجاوز البعد التنويري للأعلام باعتباره مصدر الحقيقة والتغير إلى تحوله إلى اقرب ما يكون إلى الدعاية التي تستهدف التأثير في النفوس عبر أشاعه أفكار ومعلومات محدده يهدف السيطرة على الفرد الذي يعاني من هيمنة سلطتها إلا منيه ودعايتها الإعلامية والتربوية ،في الوقت الذي استثمر الأعلام وظائف الاتصال الترويجية لمفاهيم سياسية معينه فانه اخفق في خلق رأي عام مقتنع بما لدية من تسويغات وهذا يمثل إخفاق للوظيفة الاقناعية التي تهدف من وراء الاتصال إلى إحداث تحولات في وجهات النظر السائدة حول الواقع السياسي المحلي والعالمي والاقتصادي والفكري وأيضا قاد هذا إلى إخفاق الأعلام من ضمان ألمشاركه الثقافية التي تهدف إلى نقل التراث الثقافي

و تحقيق التواصل والتكيف الاجتماعي في الحياة التي يعيشها المواطن العربي بما فيها من تحولات وأخطار داهمه هذا بفعل غياب العقلانية في الأعلام والسياسة وهيمنة الرؤية اللاتاريخية اللانقدية مما خلف عسرا في الاندماج الذي يعانيه المجتمع أصلا . مما أدى خلق شخص خاضع أو مغترب عن الواقع أو متأثر بالأخر تأثر لما لديه يجد فيه بديل من واقع متردي وبالتالي ، فإننا نلاحظ أن الإعلام العربي ما يزال في غالبيته يعاني من ضعف بنيته التحتية ومضامينه، وتعرقله قوانين وتشريعات تحد من حريته وفاعليته وتؤثر على دوره في أداء رسالته الحضارية. وباستثناء بعض الفضائيات العربية التي تمكنت من توفير كفاءات مهنية معترف بها وهامش من الحرية النسبية الضروري للنجاح والاستمرار، ما يزال الإعلام العربي يعاني العديد من المشكلات تجعله دون مستوى تحدي بناء مجتمع المعلومات. إذ لا يزيد عدد الصحف في البلدان العربية عن 53 صحيفة لكل 1000 شخص، مقارنة مع 285 صحيفة لكل 1000 شخص في الدول المتقدمة. والصحافة العربية عموماً محكومة ببيئة تتسم بتقييد حرية التعبير والرأي. وما التعطيل عن الإصدار والضبط والمصادرة والتعرض لعقوبة الحبسأو الإيقاف عن ممارسة المهنة، سوى أمثلة عن الصعوبات التي تواجهها الصحافة ووسائل الإعلام في الدول العربية.

إما النتائج التي نخرج بها هنا فهي :

1. إن الأعلام العربي سجين رغبات الدول أو الأحزاب أو الطوائف -التي تحاول تبرير هيمنتها السياسية وتعزيزها.

2. إن الأعلام العربي سجين رؤية موروثة قائمة على العصبية وهي وريثة تراث طويل من الاستبداد السياسي والفكري.

3. هذا الأعلام يخلق نقاط ضعف كثيرة منها:

أ-انه يفتقد إلى ألدقه والموضوعية والاستقلالية

ب- انه لا يراعي المتلقي وإمكانيته الاقتناع بالرسالة بل يفرض هذا دون اخذ المتلقي بنظر الاعتبار وهذا عائد لاحتكار السلطة الإعلامية من قبل الدول والأعلام عبارة عن أحدا أجهزتها.

ج- من قبل المتلقي إلى المحيطات الإذاعية ثم الفضائية وبالتالي تحولت الرسالة الرسمية بلا متلقي مقتنع بها

د-هناك سياسات أخرى غربية وإقليمية تحاول إن تعبر عن مضامين اقتصادية واجتماعية وثقافية على تقنية وأكثر قدر على اقتراف وعي المواطن وإعادة تشكيلية .

الفصل العاشر

وسائل الإعلام ومؤسسة وعولمة للتغليط

المحلل السياسي

1. في البدء: السياسات الإعلامية ودور المحلل السياسي:

هنا بيروت، عاصمة الأنارشيا بنكهة عربية، تلك التي شكّلت فرصة تاريخية للكائن العربي تحديدا، أو لنقل الرئة التي لا يتنفس من خلالها اللبنانيون وحدهم بل هي الرئة التي يتنفس من خلالها الأحرار العرب وحتى غير الأحرار العرب، فهي جغرافيا التعبير عن الإرادات، ولهذا كانت الثقافة والإعلام والنشر لها هاهنا حكاية تفرّد، هنا في عاصمة الصناعة الإعلامية العربية كان اجتماعا حافلا بالأفكار ذلك الذي جمعنا قبل أيّام على مائدة النقاش حول العلاقة بين المحلل السياسي ووسائل الإعلام في إطار اجتماع الهيئة التأسيسية للرابطة الدّولية للخبراء والمحلّلين السياسيين قصد تحيين هذا الإطار ومناقشة القانون التأسيسي وميثاق الشّرف وخطّة عام 2017.

النصف الأوّل من اليوم تضمن جلسات تتعلق بدور المحلل السياسي في صناعة الرأي العام وعلاقته أيضا بوسائل الإعلام ساهم فيها أصدقاء وزملاء من داخل مؤسسات الإعلام المتنوّعة ومحللين سياسيين من مشارب وخبرات مختلفة،

هذا في حين انحصر اجتماع النصف الثاني من اليوم في مناقشة الوثائق المذكورة في إطار مغلق خاص بالهيئة الإدارية وهو ما كان يعالج تفاصيل البنود ولغة الوثيقة وبعض القضايا التفصيلية حيث انتهى إلى الكثير من التوافقات فضلا عن انتخاب أعضاء الهيئة الإدارية من بينهم رئيسا للرابطة خلال الفترة القادمة.

وفي جملة النقاش الذي كان يتعلّق بالآراء والأفكار لم يكن هناك من الوقت الكافي لتحقيق القول في مشكلية الإعلام ودور المحلل السياسي ومن هو الخبير ومعضلة صناعة الرأي العام، وهنا سأحاول أن أعيد تنظيم مداخلاتي ومناقشاتي التي ساهمت بها في هذا النقاش الذي لم يكن الوقت كافيا لتعميق الفكرة وتحقيق البلغة، سواء في اللقاء العام أو في اجتماع الهيئة التأسيسية التي أصبحت بقوّة الواقع هي الهيئة الإدارية المعنية باتخاذ القرارات، وهو الوضع الذي فرض نقاشا عاما في قضايا تتطلّب تفصيلا دقيقا. وستكون مناسبة لتنسيق القول في دور المحلل السياسي ودور الإعلام عموما وبعض المشكلات التي تخصّ رسالة المحلل والخبير السياسي:

2. المحلل السياسي ووسائل الإعلام

في أثناء مناقشتي لبعض الأفكار التي طرحت في مداخلة العديد من الباحثين حاولت التركيز على الحاجة المتبادلة بين المحلل السياسي والوسائط، لأنّ المحلل السياسي هنا ليس بالضرورة موظّفا في وسائل الإعلام بل قد يكون صاحب رأي ويمتلك خلفية (background)يتشّكل من أدوات التحليل وقاعدة معلومات تمكنه من المتابعة وتعزيز مضمون التحليل. الحاجة هنا متبادلة ولكنها ليست متكافئة لأسباب تكمن في اعتبارات خارجية وحسابات ميديولوجية باعتبار أنّ الإعلام لم يعد مجالا محايدا بل هو جبهة صراع مفتوح بتقنيات ناعمة. لكن بالجملة لا تستغني وسائل الإعلام عن المحلل السياسي ولا هذا الأخير بإمكانه أن ينقل رأيه من دون توسّل بتلك الوسائط. وفي صلب هذه الحاجة المتبادلة يكمن التدبير المختلّ للعلاقة، لأنّ سلطة وسائل الإعلام تُمارس بشكل أو بآخر على المحلل السياسي نفسه، قد يقال حينئذ أنّ الأمر تجاوز ما وصفه راموني بنهاية الصحفي بل إلى المدى الذي سنتحدّث فيه عن نهاية الخبير والمحلل السياسي.

وهنا أتساءل مرّة أخرى كيف تحوّلت الوسائط من تقنية عامة لتسهيل التواصل إلى علم ثم إلى أيديولوجيا وسيطرة.. هل نحن بالفعل متواصلون وهل ما تقوم به وسائل الإعلام هو تواصل أم لا تواصل، أي شكل من "البلوكاج" في المعنى وفي وسائل وصول المعلومة إلى المتلقّي؟ الحديث اليوم لا يقف عند سؤال التقنية بل يتعلّق بمفهوم التواصل وأيديولوجيا السيطرة والمهام الذي تقتضي تحرر المحلل السياسي نفسه من سلطة الوسائط، الأمر الذي يبدو في غاية الصعوبة. وهذه قضية لم يعد لها علاقة بالتقنية والإعلام بل وجب البحث عنها في الاقتصاد السياسي للمعلومة. إنّ المفاهيم هي الأخرى ليست مشكلة لأنّنا نعيش عصر التّضخّم الهائل في سوق المفاهيم، وغياب الجودة في تأسيس المفاهيم على مداميك فلسفية منتجة، بل اليوم وجب الانتقال من مسألة إنتاج المفاهيم إلى مرحلة إدارة المفاهيم، وفي هذه المرحلة لا تقلّ مهمة إدارة المصطلح عن مهمة إدارة الأزمات، لأنّ الجزء الأساسي من الأزمات يدور مدار المصطلح. تدخل الأيديولوجيا بقوة في الصناعة الإعلامية لأنّها وحدها تشد عصب المصالح، فأيديولوجيا الإعلام اليوم هي أيديولوجيا الاقتصاد السياسي بامتياز.

3. الإيديولوجيا الإعلامية ومصائر الوعي:

لا أريد الوقوف عند سؤال الموضوعية هنا مع أنّني استمعت كثيرا إلى هذا المفهوم وهو يمرّ بـ وصفه قضية رجاء وترجّي أو أحيانا بات شكلا من الإغواء بمفهوم فقد أهميته لأنّه بات إشكاليا بينما الإصرار على تداوله بلغة تبسيطية يجعل المهمّة صعبة. ولكن وجب التذكير بأنّ الموضوعية إشكالية كبرى في العمل الإعلامي، وأنه لا مجال لتفادي هذه المعضلة إلاّ بالتفكير بـصوت عالي وإحداث ثورة في مجال الإعلام وهذا غير متيسّر الآن، لأنّ مقتضى المواجهة للمقاولة الإعلامية وفق أصول المعاملة الرأسمالية عموما هو الاستناد إلى القوة المفرطة للجيش الاحتياطي من العاطلين الذين يتوفرون على القابلية للإذعان لاشتراطات وسائل إعلام تمارس مهمتها الأيديو - إعلامية بتقنيات خداع تشبه عملية استغلال أخطاء بارالاكس في تموضع زاوية النظر أو وتيرة تعقّل الصورة والمعلومة بناء على جدل التناقض بين ما يسميه إغناسيو راموني بزمن المعلومة والزمن السياسي. نتساءل أيضا : هل يا ترى الرأي العام مغفّل أم أنه ذكي؟ أعتقد انّ الرأي العام يعمل وفق قواعد الممانعة الطبيعية، وهي ممانعة ضد التقنية اليوم. ولذا فالكثير من الرأي العام يسقط في هذه المعركة لأنها توظّف مساحات اللاوعي لدى المتلقّي الذي يبدو مؤهّلا للمساهمة في الانزياح الموضوعي. بالنسبة إلى التدبير الأيديولوجي للمعلومة فهو هنا ليس بسيطا،

بل هو فعل عقلي يستند إلى ما تحتله الأيديولوجيا من مكانة في الدّماغ: أي القابلية للزيف. إنّ القابلية للزيف تكمن في عمق الطبيعة التي يعمل على وفقها الدماغ الذي تأتيه الصور والأفكار معدّلة بأخطاء التموقع من الواقع أو مستوى قدرة الفاهمة على تحويل الإشارة إلى مفهوم دقيق. يساهم الإعلام الذي بات الكذب فيه ليس مسألة أخلاقية بل تقنية مهنية إلى اللّعب بمقدّرات الدماغ واحتلاله بأوهام تحمل صورة الواقع كأن الأمر يتعلق بإعادة تشكيل للواقع محرّف لكنه مقنع للرأي العام في فترة وجيزة هو ما يقتضيه الزمن السياسي لاستغلال معلومة ما. لا يهم فعل تكذيب المعلومات حين تستنفذ زمنها السياسي، الأمر يتعلّق باستعمال مؤقّت للمعلومة ولا يهمّ أن تظهر الحقيقة فيما بعد، هذا ما أصطلح عليه: المعلومة التي يمكن التّخلّص منها بعد الاستعمال .(information jetable) لا يتعلق الأمر بغباء بل ببطؤ في تحقيق المعلومة تعززها الرغبة الجامحة في استهلاك المعلومة في زمن سياسي لا يلتقط الفراغات في عملية قذف الصور تماما كما هو الخداع البصري الطبيعي عند رؤية الأشياء، لكنه عاجز عن التقاط ما بين الصور وما بعد الصور نظرا لسرعة حركتها وفعل الإلهاء الذي تمارسه أيديولوجيا استهلاك الخبر. يتحدّث بودريار عن معيار جديد في أيديولوجيا الاستهلاك

حيث تمثّل القمامة معيارا لقياس الموقع الاجتماعي للمستهلك: قلّ لي ماذا تستهلك أقول لك من أنت، وأعتقد أنّ هذا ينطبق أيضا على استهلاك المعلومة: المعلومة - القمامة.(L'information poubelle)

4. من هو المحلل السياسي الحقيقي؟

بالنسبة إلى المحلل السياسي أحبّ أن أصنفه للتصنيف النيتشي للفيلسوف: هناك محلل سياسي كادح وهناك محلل سياسي حقيقي، وقد أضيف صنفا ثالثا: المحلل السياسي المحتال، هذا الصّنف يهمّني كثيرا في هذا التقريب، لأنّه يمتلك قدرة على وضع اصطلاح على ما يروج في المجتمع ثم إعادته متلبّسا بالمفاهيم إلى الجمهور من باب : بضاعتكم ردّت إليكم. هذا الصنف لا يهتم بالتوعية ولكنه معني باستثمار المتداول من أفكار في رأي الجمهور ومنحها شرعية المفاهيم، وهو صنف تستهلكه وسائل الإعلام لأنّه غير مكلف ويؤمّن شكلا من الضجيج النظري وتكريس الإلتباس. لقد صنعت وسائل الإعلام محللين سياسيين من الطّراز المحتال، وهي تفتخر أنّها أنتجت وجوها جديدة في المشهد الإعلامي لكن وجب التمييز بين صناعة المحلل السياسي واكتشاف المحلل السياسي، ذلك لأنّ وسائل الإعلام

إن هي سلكت إزاء المحلل السياسي ما تسلكه إزاء صناعة الرأي العام بوسائل الخداع الميديولوجي المتاح سنكون أمام أزمة شمولية. الصنف الكادح من المحلّلين يسعى لتنزيل أدواته على الحدث لإعادة صناعته وفق ما تتيحه له رؤيته الأداتية، لذا يقع في التكرار والجمود واعتماد فعل المراوغة باللغة الذي أسمّيه: الملاوغة. لقد أصبح التحليل السياسي رهين لملاوغات المحلل الكادح، بينما المحتال الذي يستهلك الحقائق التبسيطية للجمهور ويعيد حبكها بالاصطلاح السياسي فهو ظاهرة ترقى بصناعة الملاوغة إلى حدّ الزّيف المطلق.

أحد الزملاء ركّز على ضرورة التفريق بين وضعية الإعلام في المغرب العربي ووضعيته في المشرق العربي وأنه لا بدّ من التمييز بينهما. لكنني أعتقد أنّها إشكالية لا موضوع لها وقد تكون شكلا من البوليميك الذي يحبّ أن يستثمر البعد الجغرافي في إضافة إشكاليات جديدة لأزمة التواصل الإعلامي نحن في غنى عنها. ذلك لأنّني أعتقد أنّ أزمة الإعلام هي اليوم كونية، وما نقوله اليوم عن أزمة التواصل والهيمنة هو أمر يتعلق أيضا بالمشهد الإعلامي الغربي. التمييز على أساس أنّ هنا يوجد إعلام ممركز وهناك إعلام حرّ، لا موضوع له، لأنّ المدّعى له نصيب هنا وهناك، فضلا عن أنّ الحديث عن إعلام مستقل في حدّ ذاتها قضية متجاوزة، أي بتعبير آخر، مع الإعلام المستقل لسنا إلاّ أمام إعلام موجّه بطريقة أخرى، فالاستبداد بالإعلام قد يكون سياسيا وقد يكون اقتصاديا.

هذا دون أن نغفل أنّ وسائل الأعلام المستقلة إن صحّ التعبير في المغرب العربي هي مدينة لسياسة شراء الذّمم من الكتلة النفطية في المشرق. ومن هنا لا مجال للإخضاع إلى السياقات الجغرافية في لعبة الإعلام وسياسات بيع الذّمم لأنها باتت متعدّية الحدود.

يبدو المحلل السياسي المحتال الذي ينطّ من بين وسائل الإعلام المتناقضة الرسالة الإعلامية ويكيف خطابه وفق سياستها، بل والذي يكيّف تحليله وفق ما يتوقّع منه هو جزء من أزمة الصناعة الإعلامية اليوم. وهنا أحبّ أن ألفت النظر إلى سياسة الاختراق التي يقوم بها هذا النمط من المحللين الذين لا يتوفرون على الخبرة الحقيقية ولكنهم عبر تقنيات التواصل المختلّة يتسللون إلى وسائل إعلام الممانعة بطريقة ممنهجة بينما هم موصولون مع مراكز وجهات وسياسات رجعية في المنطقة. الأمثلة كثيرة وليس المقام مقام ذكر عيّنات لها. وهذه أخطاء يقع فيها الإعلام الذي يرى نفسه معنيّاً بمقاومة الهيمنة الإعلامية الرجعية أو الغربية. المهزلة الكبرى هنا هي حينما تدقّق وسائل الإعلام في انتقاء المحلل السياسي المناسب لكنها تتراخى في انتقائه حينما يتعلّق الأمر ببلدان أجنبية عن بلد المركز، فلا يهمّ هنا أن تمنح فرصة للمحلل السياسي المحتال حيث تساهم في استكمال سياسة الحصار على المحلل السياسي الحقيقي وتصبح شاهد زور على هذا الاستنبات الطفيلي لخبراء مغشوشين.

ما زلنا نتحدث عن الموضوعية المطلقة والحقيقة المطلقة في الإعلام وهي الحقيقة التي يصعب تحقيقها في مجال التأمّل الفكري فكيف بالصناعة الإعلامية، مادام الجمهور له الرغبة في تقبّل المعلومة من دون إعمال نظر وغير معني بتكذيب الصورة والتمرد على سلطتها بالإضافة إلى غياب توازن بين القوى الإعلامية، ستستمر هذه المعضلة ولن يحسن بعد ذلك الإعلام المقاوم للزّيف أن يفعل أكثر سوى المقاومة.

نحن في سياق لاتواصلي للإعلام، الخبر الذي أذاعته وكالة الفضاء الأمريكية(نازا) قبل أسابيع مفاده أنه بات بالإمكان أن يتواصل جمهور الأرض مع جماهير الكواكب الأخرى وينقلون لهم معلومات عن حياة الأرض وثقافتها وأن هذه القضية باتت ممكنة ومتاحة لعامة المواطنين. هنا يبدو أنّنا أمام هروب إلى الأمام. في غياب تواصل حقيقي بين أهل الأرض كيف نتحدّث عن فائض تواصلي يمكننا من مراسلة سائر الكواكب؟ هذا ما أسمّيه بالطّنز الأيديولوجي الذي يساهم في لعبة الإلهاء والتمويه على إفلاس كبير في وسائل وأيديولوجيا التواصل.

على هذا الأساس ماذا يعني الرأي العام في عالم مفتوح على مساحات هائلة من الوسائط الإعلامية التي تتنافس على تحقيق الإجماع على تزييف الواقع؟

5.الإعلام ودور المثقّف

من ناحية أخرى كان الحديث عن تحكم وسائل الإعلام في المحلل السياسي الذي يشعر بأنه مضغوط تحت قهر الزمن ونوعية الخطاب، لكنني أؤكّد هنا أنّ المحلل السياسي بالمعنى الذي أعنيه من المحلل السياسي الذي له قدرة على التحليل وإنتاج الرؤية والتأثير على الرأي العام قد يجد نفسه مهانا داخل ستوديوهات وسائل الإعلام، ولذلك تفاصيل لسنا في واردها، ولكن ثمّة نوع من التحليل النفسي النازي الذي يستعمل تجاه المحلل السياسي الذي يبقى رهن لمستوى اختيارات الوسائط ووجهة نظرها في عملية انتقام المحللين إلى حدّ التكرار والاستهلاك والمساهمة في ظهور أمبراطورات التضليل والتسطيح الإعلامي واللعب على لغة التواصل المجردة عن المفاهيم، وهي عملية تجعل الجودة مسألة استهلاك وصناعة النجوم على حساب المضمون، ولعبة اللّوبيات في هذه الفوضى.

أحبّ هنا أن أؤكّد على مسألة الخوف من الاعتراف بتعقيد الواقع، لماذا نحن ضدّ العمق. التعقيد في النظر المواكب لتعقيد الواقع أمر ضروري ولكن يمكننا الحديث عن لغة التعبير الميسرة عن مخرجات النظرية. نعود إلى إدغار موران في التمييز بين المعقّد والتعقيد. أي الاعتراف بـ(complexus)، حيث بناء عليه يتمّ استغلال غير المفكّر فيه، وإخضاع الوعي لمغالطة التبسيط.

إنّ عملية تثقيف الإعلام مسألة أساسية. الإعلام حتى الآن بما أنه خاضع للعبة التواصل اللاّتواصلية فهو يستهين بالثقافة والمثقف، لذا فهو يبادر إلى صناعة بدائل ونجوم ثقافية ضحلة لتفادي هذه المعضلة مما يجعل وسائل الإعلام تسقط في استهلاك فاقد للجودة ويتّجه برسالة الإعلام إلى حيث إهانة المثقف.

أمّا انطباعاتي فهي كثيرة، كم يثيرني أولئك الذين يتحدّثون أمام مثقفين محترفين عن أفكار ومهارات كما لو أنهم عاقروها ولا قبل لغيرهم بها. يحصل هذا ببلادة تتكرّر وأحيانا تزعج العقل. قضية تكرار مفاهيم أنتجها الغير من دون أمانة الإحالة، هي حيلة من حيل حاطبي ليل يستغبون المتلقي الذي من المفترض أن تكون له لوعة إن لم نقل احترافية في تتبع هسيس المفاهيم. الحسابات الغامضة في الانتقاء وأشكال التمييز غير المقنعة شكل آخر يجعل المهمّة الحضارية والإصلاحية للإعلام قضية مستفزة للمثقف، هذا الأخير يملك سلطة خاصة وهو قادر على أن يتفرّد في الكون الجماعي ويبني له عالما خاصّا وهو يمتلك سلطة فوق سائر المؤسسات وتمرّده يدخل في خانة الصعائب. إنّ الإعلام يعيش هو الآخر حالة من الاستبداد الذي ينعكس على جودة القول والفكر، بل ويساهم في لعبة التبسيط الذي يجعل العقل مستهلكا خارج واقع الكومبليكسوس.

إنّ إقناع الجمهور بالزيف واعتباره مغني اللّبيب عن إقناع المثقف خطيئة في صلب العملية التواصلية. إنّ ثورة التواصل أنتجت فوضى لاتواصلية بل ساهمت في تلوّث البيئة الرمزية، وفي نهاية المطاف يصبح الإعلام بما هو صناعة للزّيف مساهما فعّالا في تدمير الثقافة وتقويض العمق الذي يتطلّبه تعقيد الواقع.

واليوم يتعين أن يتحلّى الإعلام المقاوم للزيف والتضليل بقدر من الاستيعاب لمعضلة علم الوسائط ومدى نفوذ الأيديولوجيا الزائفة وسلطة الصورة في الحياة العامّة. إنّنا في حاجة إلى ثورة في طرق الإقناع ووخز الدماغ باتجاه النباهة وسرعة البداهة في تحديد مكامن الكذب، وهي مهمّة تتطلّب الكثير من الفكر والكثير من العمل.

أؤكد على مسألة الاستهانة بالمثقف حين يكون عضويا بتعبير غرامشي، لقد سمعت في مناسبة سابقة أحد المحللين من النمط المحتال يتحدث بسلبية عن المثقف وكأن المثقّف غير معني بالسياسة، وهو بذلك أكّد على أنّه جاهل بمصير الوعي داخل لعبة الإعلام. نسي أنّ المثقف الحقيقي المعني بالمفاهيم هو الأكثر قدرة على تفكيك الخطاب، والأكثر قدرة على كشف الهشاشة، أقول: حين يتعلّق الأمر بالمثقف الحقيقي ليس الذي يردد مقولات متوفرة في سوق الإنشاء العام بل الذي يمتلك أدوات ومهارة في استعمال تلك الأدوات، أي المثقف المبدع. ما قيمة السياسة إذا لم تصبح مثقّفة،

أليس المثقف هو الذي أسس علم السياسة؟ أليس أكثر النقوض للعبة الإعلام وأفضلها ما قام به الفيلسوف والمؤرخ واللغوي: تشومسكي وبورديو وأمبرتو إيكو وهابرماس ودوبريه وغيرهم؟

في أي كوكب يعيش أولئك الذين يعتقدون أنّ التّاريخ يتحرّك من دون المثقف أو أن يظل هذا الأخير تحت رحمة الفوضى السياسية؟ في الثقافة لا يمكن أن يحصل الخداع لأنّ المثقف يقوم بالرقابة الصارمة على مهنته، ولذا أهمية وضرورة النقد المستدام، وحتى الآن وحده المثقف من يجرؤ على نقد وضعية الإعلام وهيمنة الميديولوجيا ومساهمتها الريادية في صناعة الزّيف. المثقف الحقيقي هو حارس المعنى ومكافح من أجل الحقيقة. بل المثقف هو أوّل ناقد لواقع الإعلام وأزمته، أما محاولات الهيمنة على مشهد صناعة المثقفين كما تقوم به اليوم بعض المؤسسات الرجعية لأنها لا تريد أن تظل هناك مساحة حرّة للمثقف، أي محاربة المثقف بإنتاج موجة من المثقفين المزيفين وتمكينهم من محاصرة المثقف بالضجيج والتكرار، فهي صناعة فاسدة وعاجزة، لأنّ المؤسسة هي أضعف من المثقف الحقيقي حين يصبح في حالة تمرّد.

أقصد زمجرة المثقف المجروح التي قد تطيح بالزّيف. مع كثرة الوسائط التي يوازيها ضيق في الاختيارات، لأنّها تتجه نحو الإجماع، الإجماع الذي يحاصر الخلاف: وحده كما في نظر ليوتار ونظرائه يحقق الإبداع. وهنا يكمن الخداع الآخر، افتعال الاختلاف وفق معايير تبسيطية، كالاتجاه المعاكس والرأي والرأي الآخر الذي يضعنا في حالة ما يسميه البعض صراع الديكة وبتعبير ليوتار هو شيء مختلف عن سوء التفاهم،

بل هو نوع من النزاع الذي لا يفضي إلى حلذ عادل. هنا في صلب هذا الاختلاف الممسرح والمفرغ من المحتوى لا تمنح فرصة لظهور المعنى ولا لتنميته. والميديولوجيا - وفق اصطلاح دوبريه -

تساهم في هذه الوضعية التناقضية: تواصل لا تواصلي. المثقّف ليس رهينة للوسائط، هذه الأخيرة التي يجب أن تنمو لتستوعب المثقف بدل أن تعاند في رتابتها وتحلّ مشكلة الجمود بالتعويض عن المثقف الحقيقي بالمثقف المغشوش الذي هو جزء من الأزمة ومؤثّث لمشهد الرداءة. نحن نلاحظ انقراض جيل من الرّواد وميلاد جيل الرّداءة. الإعلام حين يتجه اتجاه معاكسا للثقافة يصبح وسيلة تخليف بامتياز.

وعليه وجب أن نقيس جودة الإعلام بحجم حضور الثقافة والمثقف، أما إذا دخل في المسألة حساب ما يرضي الجمهور واللاّوعي فهذا يعني أن الإعلام ورسالته لم تعد شأنا للوعي، أي باتت مجرد خداع تقني ومتقن. إن الإعلام المقاوم للزّيف والذي يستمدّ قوته من العمل التّطوّعي للمحلل السياسي ويمنح فرصة الوفاء للمبدئية وخطاب العقل يحتاج أن يقطع مع أساليب الماركوتين والنظرة الخاطئة للجمهور التي تقوم على تطبيق مغرض لنظرية التّلقي.

إنّ الإعلام المقاوم للزيف معنيّ بالوعي، وهو حتما هاهنا ينطلق من واقع متلقّي أضيق، لأن مساحة الوعي أضيق، وهنا يصبح المطلوب إقحام الناس في دائرة الوعي بل واستعمال اللاّوعي وآلياته في خدمة الوعي أيضا. الخوف هنا من الرّدة في أساليب الإعلام المقاوم للزيف، لأنّ غايته نقيضة.. وثورية.. وإنسانية.. وهي لا تحتاج إلى تقنيات للكذب بل تحتاج إلى تقنيات تبليغ الحقيقة وممارسة الصدق في الإخبار كسلطةلا يملكها الكذب الذي يتوسّل سلطة الصورة.

المــراجع

أولاً: باللغة العربية :

ألين هيوم، حرية الصحافة، مجلة قضايا الديمقراطية، مجلة إليكترونية تصدرها وزارة الخارجية الأمريكية، المجلد 10، العدد 2، ديسمبر 2005.

أندرو بوديفان، دور وسائل الإعلام في بناء الديمقراطية وتعزيزها، في المؤتمر الدولي السادس للديمقراطيات الجديدة والمستعادة " بناء القدرة في سبيل تحقيق الديمقراطية والسلام والتقدم الاجتماعي " الورقة رقم 10، الدوحة – قطر 29 أكتوبر- 1 نوفمبر 2006.

حسين عبد الغني، كيف يمكن إعادة هيكلة الإعلام المملوك للدولة؟ تحديات التحول الديمقراطي في مصر خلال المرحلة الانتقالية، مؤتمر بالتعاون بين مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان وصندوق الأمم المتحدة للديمقراطية .) 27 يوليو/تموز 2011 – بأسبانيا،)القاهرة: 26 FRIDE ومركز العلاقات الدولية والحوار الخارجيUNDEF

سليمان صالح، الإعلام والتطور الديمقراطي في مصر (1992-1982) في المؤتمر السنوي الأول للباحثين الشباب: التطور السياسي في مصر 1982-1992، محمد صفي الدين خربوش (محرر)، مركز البحوث والدراسات السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 1994، ص 635

شاكر عبد الحميد، عصر الصورة- السلبيات الايجابيات، عالم المعرفة، العدد ٣١١ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والإداري، . ٣٩٠- الكويت، ٢٠٠٥ .

صفوت العالم، دور وسائل الإعلام في الإصلاح السياسي بعد الانتخابات الرئاسية والبرلمانية 2005، الأهرام، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، 2005،ص 4.

عاطف عدلي العبد، الاتصال والرأي العام ، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٣ .ص ٢٤٥-255

عبد الفتاح عبد النبي ,تكنولوجيا الثقافة والاتصال بين النظرية والتطبيق, القاهرة :العربي للنشر والتوزيع ,1990.

عبد الغفار رشاد القصبي ، الاتصال السياسي والتحول الديمقراطي، (القاهرة: مكتبة الآداب، 2007) ص 43.

فاروق أبو زيد، إصلاح الإعلام المصري، مجلة المحيط الثقافي، المجلس الأعلى للثقافة،وزارة الثقافة،العدد 46،أغسطس 2005، ص55.

بن نبي -مالك –شروط النهضة –لبنان 1979م

غاتشف، غيورغي–الوعي والفن –عالم المعرفة الكويت1900م

سانتيانا -جورج –الاحساس بالجمال –القاهرة 2002م

تريز -ماري –التمثيل الثقافي –القاهرة 2002م

خضور، اديب– صورة العرب في الاعلام الغربي – دمشق 2002م

مالك -محمد محجوب –المقاومة الداخلية لحركة المهدية –بيروت 1987م

انظر المادة : "شرق" في المعجم الوسيط، من إصدارات مجمع اللغة العربية في القاهرة.

يراجع في هذا الصدد: جلال آل أحمد، الابتلاء بالتغرب. ترجمة وتعليق: إبراهيم الدسوقي. القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، 1999.

والمؤلف مفكر إيراني مرموق، أعد كتابه هذا في صورة تقرير قدم إلى مجلس أهداف التعليم في إيران عام 1961 م.

لمن يريد متابعة الفكرة "التعليم كامهنة" – مراجعة المصادر التالية: صامويل هنتنجتون، صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي. ترجمة طلعت الشايب، وتقديم د. صلاح قنصوة، القاهرة : كتاب سطور رقم 2، 1998.

فهمي هويدي، مقال في الأهرام القاهرية بتاريخ 17 يوليو 1990 بعنوان: من يعادي من؟ نقل فيه عن عدد مجلة "النيوزويك" الصادر بتاريخ 2 يوليو 1990.

انظر : بول هيرست زجراهام تومبسون، مساءلة العولمة : الاقتصاد الدولي وإمكانات التحكم، ترجمة إبراهيم فتحي، القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، 1999.

تراجع كتابات يمنى طريف الخولي التالية: العلم والاغتراب : مقالفي فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية. القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، 1987.

الحرية الإنسانية والعلم : مشكلة فلسفية، القاهرة : دار الثقافة الجديدة، 1990.

هانس – بيتر مارتين وهارالد شومان، فخ العولمة : الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة د. عدنان عباس علي، مراجعة وتقديم أ. د. رمزي زكي، الكويت : عالم المعرفة، الكتاب رقم 238، 1998.

رمزي زكي، المصدر السابق، مقدمة المراجع، ص 15.

تراجع مقالة متوسطة الحجم عن "الاستشراق" في الموسوعة العربية العالمية التي تصدرها مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع في الرياض بالمملكة العربية السعودية. طبعة أولى ص ص 676 – 689.

انظر في موضوع الاستشراق الجديد ما كتبه د. مصطفى عبد الغني، في الأهرام القاهرية يوم 3 يوليو 2000م. عن ندوة أقيمت أخيرا "بالأهرام الدولي."

سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي. القاهرة : دار الشروق.ط الحادية عشر. ص 7.

محمد الغزالي، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين. القاهرة : دار الشروق، 1997 م ص 151.

زكي نجيب محمود، مقال في صحيفة الأهرام القاهرية بعنوان"لك اللهيا علوم الإنسان" عدد يوم 1986/12/22 م.

محمد عمارة (دراسة وتحقيق) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، الجزء الثالث ص 282 – 283، طبعة بيروت، 1972.

يراجع المعجم الوسيط، إصدار مجمع اللغة العربية في القاهرة.

يراجع في شأن هذه الصورة الذهنية : طه جابر علواني، "التعددية : أصول ومراجعات بين الاستتباع والإبداع" منبر الحوار، مجلة تصدرها دار الكوثر في بيروت، المجلد التاسع، العددان 32 – 33 ربيع وصيف 1994.

المصادر

(العربي إرهابي في السينما الفرنسية)- معاذ محمود - صحيفة (الحياة- 2009/3/5م).

("جوجل يقترح".. قرار مسبق بالإساءة إلى العرب)- غاي غابرييل – صحيفة (الحياة- 2010/3/9م).

أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي عليها - د. جعفر شيخ إدريس – موقع (جعفر إدريس).

(قراءة في: واقع الصحافة الألمانية: "دير شبيغل نموذجا")- الدكتور خالد حاجي- موقع مركز الجزيرة للدراسات التابع لقناة الجزيرة.

دعوة لاستخدام الثقافة والإعلام لتوسعة النفوذ الأميركي بالمنطقة- صالح سليمان عبد العظيم- الجزيرة نت.

الحرب الإعلامية الغربية الأمريكية على الإسلام -د. سيد عيسى محمد - موقع (قاوم).

ثانياً المراجع :باللغة الأجنبية:

Shelton Generate. “ Democracy , Journalism and Systems Perspectives From East and West “ , inx , Hao and S.K , Data Ray (eds) , issues and challenges in Asian Journalism , (Singapore: Marshall Cauendish , 20006) pp. 1-24

W. Bennett. Lance. “The media and democratic development: The Social Basis of political communication”, in Patrick H. O, Neil(Ed) communicating democracy: the media and political Transition. (Boulder: Lynne Renner – 1998) pp.195-207.

3- Stanford Unger J. The role of a free press in Strengthening Democracy: in Democracy and the mass media, Lichtenberg J (ed) New York: Cambridge, 1990, p. 368.

4- Elizabeth, Fox, Latin American Broad Casting and the State: Friend and Foe: in Communicating Democracy: the media and political Transition, p. H, O, Neil. (Ed) (Boulder: Lynne Reiner – 1998) , pp.21-30.

Adam, Jones, The press in Transition: A comparative Study of Nicaragua , South Africa , Jordan – and Russia , (Germany , Hamburg: Deutsches Oversee – institute, 2002) , pp.408-496 .

Groan , Hayden, and Charles Okigbo , “ The media and the Two waves of Democracy ; in media and democracy in Africa ” , G. Hayden, M. Leslie and F.F Ogudimu, (e.ds) (New Brunswick, N, J: Transaction Publishers, 2002) pp29-50.
James , Carron , ” Mass media and democracy revisited ” in: James , Carron and Michael , Gurevitch , (eds) Mass media and Society , (London, Edward Arnold , 1996) ,pp. -81 -104.
Richard Gunther, Anthony Mughan, ” The political Impact of the media: a Reassessment ” , in Richard Gunther and Anthony Mughan , (eds) Democracy and the Media , (Cambridge: Cambridge university press , 2000) , pp. – 402-447
Sarason, S. B, The Culture of the school and the Problems of Change. Boston Mass.,; Allyn and Bacon, 1982.
Goodlad, J. I (editor), The Ecology of school Renewal. Chicago: The University of Chicago Press, NSSE Yearbook. Part I, 1987.
Said, E, The World, The Text and the Critic. Cambridge Mass.,: Harvard University Press, 1983.
Jantasch, E. Design for Evaluation. New York: George Braziller, 1975. P. 7.

Eisner, E. (editor) Learning and teaching: The Ways of Knowing. Chicago : The University of Chicago Press, NEES 1985 Yearbook, Part II.

Sarason, S. B, The Culture of the school and the Problems of Change. Boston Mass.,; Allyn and Bacon, 1982.

Goodlad, J. I (editor), The Ecology of school Renewal. Chicago: The University of Chicago Press, NSSE Yearbook. Part I, 1987.

Ahmed E. Abdel-Halim, "An intersystem Model For Curriculum Theory and Practice." Ph D. Diss-ertation the Ohio State University, 1965.

Helen Longino, "Subjects, Power and Knowledge" in Feminist Epistemology (eds) Linda Alcoff and Elisabeth Potter New York : Routaledge, 1991.

David Olson and Jerome S. Bruner. "Folk Psychology and Folk Pedagogy" ch 2 in David Olson and Naney Tarrance (Editors) The Handbook Education and Human Development, U. K Oxford : Black well Publisher, 1998. PP 90 – 97.
